القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • مارس - أبريل 2004

ملف العدد

المهرج
ضحك حتى البكاء

الممرضة السعودية .. آفاق المهنة

- صورة البطل الرياضي اليوم
- فردوس: القصة الفائزة في مسابقة القافلة

العدد 2
المجلد 53

معارض ومؤتمرات

مارس 2004

- **مؤتمر** خبرات القيادة لمشرفي العمل
  دبي: **6 - 10**
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk
- **مؤتمر** المحاسبة والتمويل في صناعة النفط والغاز
  دبي: **6 - 10**
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk
- **مؤتمر** حماية البيئة
  صنعاء: **9 - 11**
  http://www.exposanaa.com
- **مهرجان** الدوحة الثقافي
  الدوحة: **9 - 20**
  http://www.nccah.com
- **ملتقى** الشراكة العراقية العربية لإعادة الإعمار وأعمال التجارة والاستثمار
  المنامة **20 - 22**
  http://www.exicon-intl.com
- **معرض** تكنولوجيا المياه والطاقة والبيئة (ويتكس 2004)
  دبي **22 - 24**
  contracts@dewa.gov.ae
  http://www.dewa.gov.ae
- **معرض** الشرق الأوسط لمقاومة الشيخوخة
  دبي **28 - 30**
  mail@antiagingmideast.com
  http://www.antiagingmideast.com

أبريل 2004

- **سباق** الفورميولا ون الدولي
  البحرين **2 - 4**
  www.bahraingp.com.bh
- **المعرض والمؤتمر** الدولي للتجارة الإلكترونية بالمملكة
  الرياض **18 - 22**
  esales@recexpo.com
  http://www.recexpo.com
- **معرض** الغاز والنفط بغرب آسيا
  مسقط **19 - 21**
  omanexpo@omantel.net.com
  www.omanexpo.com
- **معرض** الخليج السادس عشر للتربية والتدريب
  دبي **20 - 23**
  info@icedxb.com
  http://www.icedxb.com
- **المعرض** التجاري الدولي بالكويت
  الكويت **21 - 30**
  info@kif.net
  http://www.kif.net
- **مؤتمر** آفاق تصدير النفط الإيراني
  طهران **25 - 26**
  www.thecwcgroup.com

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها

محطات العدد

مارس - أبريل 2004
محرم - صفر 1425

توزع مجاناً للمشتركين
للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

رسالة المحرر

1 قبل سنة، رافقنا أرامكو السعودية جواً من خلال يوم في حياة طيار، ونرافقها اليوم، عبر مناخ الطاقة، في رحلة بحرية لاستكشاف استعدادات الشركة وتدابيرها الوقائية لمواجهة كوارث البحار الناجمة عن حوادث الناقلات وانسكاب الزيت.



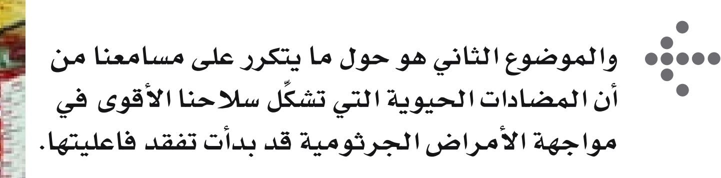
2 وتجاوباً مع أكثر من مطلب بإسقاط قراءتنا السابقة لظاهرة "هاري بوتر" على واقع النشر العربي للأطفال، تعرض الاختصاصية في هذا الشأن أميرة أبو المجد صورة عن هذا الواقع في باب "قول في مقال"، وتقدم لنا جواباً لافتاً بتفاؤله وبالوجه المشرق لحال كتاب الطفل عندنا.

وفي مناخ القضايا نتوقف أمام مهنة التمريض التي تعاني عالمياً من أزمة تتمثل في نقص في الأيدي الماهرة في هذا المجال، وتشكل عندنا مجالاً مهنياً وإنسانياً نبيلاً مفتوحاً للشابات السعوديات الباحثات عن فرص عمل.



3 أما في مناخ العلوم والبيئة فهناك موضوعان على تماس مباشر مع حياتنا اليومية. الأول يتناول بالتصويب بعض الانطباعات حول المنتجات المعدلة وراثياً والتي تبدو في الحقيقة غير ما هي عليه في الأخبار الصحافية المثيرة، إضافة إلى مناقشة ظاهرة العودة إلى الزراعة الطبيعية كردة فعل على الأولى.

والموضوع الثاني هو حول ما يتكرر على مسامعنا من أن المضادات الحيوية التي تشكّل سلاحنا الأقوى في مواجهة الأمراض الجرثومية قد بدأت تفقد فاعليتها.



ويجمع الملف المصور لقطات جميلة لمصورين غير محترفين، هم في الواقع موظفون في أرامكو السعودية التقطوا هذه الباقة من الصور خلال رحلاتهم وإجازاتهم. الأمر الذي يؤكد أن كل واحد منا يستطيع أن يستمتع بإنجاز مثل هذه اللقطات.. وأن كل المطلوب هو المعرفة البسيطة وشيء من الرغبة.

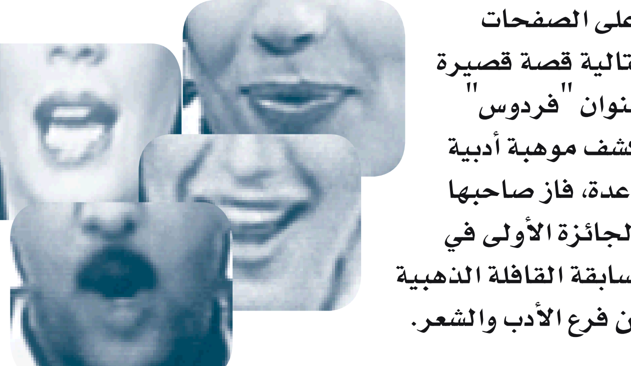
فراشة زاهية – مخيم الحوطة علي السلطان 2002/04/10م



4 الموضوع الرئيس في مناخ الحياة اليومية يتناول التحول الذي طرأ على قيم أبطال الرياضة ما بين الأمس واليوم. وإن كنا تناولنا هذا التحول بإسهاب في مجال كرة القدم التي يعرفها الجميع، فمن المرجح أنه لا ينسحب فقط على جميع الرياضات، بل أيضاً على مجالات حياتية عديدة وصولاً إلى المهن والفنون.

5 واللغة العربية التي طالبنا العديد من القرّاء بمزيد من الاهتمام بها حنيناً إلى الباب القديم "أخطاء شائعة"، تمثل هنا المساحة الأكبر، من خلال قضية حيّة نعيشها يومياً "على مضض"، وتتمثل في ما آلت إليه لغتنا على الفضائيات العربية.

وعلى الصفحات التالية قصة قصيرة بعنوان "فردوس" تكشف موهبة أدبية واعدة، فاز صاحبها بالجائزة الأولى في مسابقة القافلة الذهبية عن فرع الأدب والشعر.





6 وفي الختام نصل إلى الملف الذي قد يفاجئ الكثيرين بموضوعه: المهرِّج، تلك الشخصية التي عرفتها كل حضارات العالم منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، والتي تتجاوز في عمقها مهمة إضحاكنا، لتشكل جانباً مؤثراً ومعبراً من جوانب الحياة الإنسانية قلّما حظي بالأضواء التي يستحقها.

المحرر

الرحلة معاً

..بعد سنة

**لدينا في هذا العدد وقفة صغيرة للمراجعة والتأمل.
لقد مرت سنة على صدور القافلة في حلّتها الجديدة. ولأننا قلنا في العدد الأول من تلك السنة إن القارئ هو الحاكم في بلاط الصحافة، فإن موقفه ورأيه يشكلان أفضل منطلق لمراجعة عملية التجديد هذه وتقويم نتائجها.**

كنّا في العدد الأول من القافلة الجديدة قد خصصنا صفحتين لرسائل القرّاء، وكنّا نعتقد أننا سنضطر لاحقاً إلى التضحية بواحدة منهما لضيق المجال. ولكن الأمور سارت على عكس التوقعات، فانهال سيل من الرسائل المعقبة والمتحفّظة ولم يخل الأمر من الرسائل المهنئة، الأمر الذي فرض زيادة المساحة المخصصة لهذه الرسائل إلى أربع صفحات.

مسؤولون كبار، أكاديميون، شعراء، أدباء، صحافيون، طلاب وأشخاص من مختلف الاهتمامات عبّروا عن ترحيبهم من جانب، ورؤاهم من جانب آخر فيما يختص بالقافلة الجديدة مضموناً وإخراجاً.. نشرنا بعض رسائلهم، وحال ضيق المجال دون نشر بعضها. ولكننا تطلعنا إلى كل رسالة على حدة على أنها أغلى المكافآت على عملنا. وأكثر من ذلك، فإن هذه الرسائل والعدد الكبير الذي رافقها من طلبات الاشتراك في المجلة، شكلت جواباً عن سؤال كنّا قد طرحناه على أنفسنا وقت الإعداد للتغيير الذي حصل في القافلة.

كان سؤالنا على هذا النحو: هل إن كثرة الدوريات الثقافية قد أبقت على فراغ يمكن للقافلة أن تملأه ويبرر استمرارية وجودها؟ وقلنا وقتها إن مجرد وجود أي منبر إعلامي يكمن في قدرته على تقديم مادة صحافية غير متوافرة في غيره، أو مختلفة في روحيتها وتوجهها عما هو متوافر في المنابر الأخرى، فماذا ستقدم القافلة؟

لأن للقافلة مكانتها الخاصة في قلوب جمهورها العريض، وصل هذا السؤال إلى رئيس الشركة، الأستاذ عبدالله بن صالح بن جمعة، الذي وضع، بعد مداولات طويلة مع المسؤولين في إدارة العلاقات العامة، تصوره لما يجب أن تكون عليه القافلة، وفصّله في رسالة من خمس صفحات شكّلت الركيزة الأساس التي قامت عليها عملية التطوير لاحقاً.

فبعد أن أشار إلى "وجود حاجة لتطوير القافلة بحيث تحقق الأهداف التي تتوخاها الشركة وتلبي احتياجات قرائها" آخذاً بعين الاعتبار تكاثر المجلات الثقافية العربية في المنطقة خلال السنوات الأخيرة، ضَمَن رسالته عدداً من التوجيهات التفصيلية نذكر منها على سبيل المثال:

- هناك حاجة إلى تناول مجموعة كبيرة من الموضوعات ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بأرامكو السعودية وصناعة الزيت.
- على المجلة أن تشتمل على مقالات حول التكنولوجيا، وأن تتناول، في اتجاه آخر، المنطقة والمملكة مع التركيز على الثقافة العربية وتراث المملكة وشعبها.
- ومن المجالات التي يجب أن تهتم بها القافلة رفع مستوى الوعي عند قرائها حيال قضايا السلامة والصحة والبيئة.
- ولكي تكون المادة الصحافية المنشورة ذات جدوى، سواء أكانت ذات طابع تقني أم غير ذلك، فيجب أن تقدم بأسلوب سهل ولغة مفهومة. فمن الضروري أن تكون الموضوعات المنشورة جذّابة للقارئ، الذي يجب أن يجدها مثيرة للاهتمام إلى جانب كونها ذات قيمة تربوية وتثقيفية.





وفي قراءة متأنية لهذه النقاط، نكتشف أن توافرها مجتمعة في القافلة كفيل بأن يرسم لها شخصية جديدة، تسد فراغاً موجوداً بالفعل في الصحافة الثقافية، وهو الأمر الذي يعيدها إلى دورها واتصالها بالقارئ بالحيوية نفسها التي عرفتها في العقود الأولى من عمرها، مع الأخذ في الاعتبار اختلاف المعطيات ما بين الأمس واليوم.

وعبر ضوء أخضر أعطاه عاشق القافلة الأستاذ عبدالله جمعة لإدارة العلاقات العامة لتوفير كل ما تحتاجه عملية التطوير هذه، وصولاً إلى التعاون مع الكفاءات المتاحة في باقي إدارات الشركة وحتى من خارجها، انطلقت الورشة لبلورة هذه الرؤية في صورة قافلة جديدة.

ولكن، كيف؟
مناخات المجلة وأبوابها بدءاً من الطاقة والاقتصاد وصولاً إلى الملف.. صار القارئ يعرفها. ونتجاوز الحديث عنها للوصول إلى ما قد يكون ارتسم في ذهنه من أسئلة خلال مطالعته لصفحات القافلة، ولعلنا نكشف بذلك عرضاً - وعمداً - "سرّ الخلطة".

لا شك في أن القارئ لاحظ في الأعداد الستة السابقة كثرة الموضوعات التي تحمل توقيع فريق التحرير، بعدما اعتاد رؤية اسم كاتب واحد يوقع هذه المقالة أو تلك في صحافتنا الثقافية والعربية عموماً.
والواقع أننا اعتمدنا في إعداد الموضوع الصحافي الواحد نمطاً جديداً يقوم على جمع المساهمات في الموضوع الواحد من أكثر من مراسل وكاتب. كل يكتب للموضوع نفسه حسب اختصاصه أو موقعه ووفق ما هو متوافر لديه من مصادر ومعلومات، ولاحقاً يتولى مكتب التحرير جمع هذه المساهمات في توليفة متكاملة وموحدة تتناول الموضوع من أوسع زاوية ممكنة وتطال أكبر قدر ممكن من جوانبه.

أي أن فريق التحرير أعطى الأولوية لتكامل المادة الصحافية والارتقاء بمستواها إلى أقصى ما يمكن، على العائد المعنوي المتمثل بتوقيع اسم الكاتب المنفرد. من جهة أخرى، لا بد من كلمة حول شخصية المادة الصحافية التي تنشرها القافلة، ونتوجه بها إلى المتسائلين، خاصة الأخوة والأصدقاء الذين يوافوننا بمشاركاتهم عبر البريد: لماذا تتعامل القافلة بإسهاب مع هذا الموضوع وتستبعد ذاك؟

إن الأهداف التي تسعى القافلة إلى تحقيقها تشمل التعريف بالصناعة البترولية بلغة سهلة وأسلوب مشوّق، والبحث في قضايا





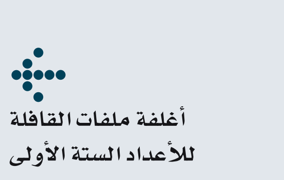




التنمية المحلية والعالمية، وتنمية روح التطوير والابتكار وغرس قيم العمل والإنتاج وزيادة الوعي الصحي والبيئي ونشر أصول السلامة، وتنمية الحسّ الفني والأدبي وإثراء الحصيلة الثقافية. أي أن "تشكيلة" اهتمامات القافلة هي من أوسع ما يمكن أن تكون عليه مجلة ثقافية، لكن للوصول إلى هذه الأهداف طريق محددة على صعيد تناولها مهنياً.

فالمواضيع الرئيسة في القافلة تعرض أساساً لقضايا، وترصد تحولات اختمرت ببطء. فلو أخذنا التعليم الجامعي في المملكة مثلاً، لوجدنا أن التوقف أمام وصف كل جامعة وأقسامها المختلفة لم يعد يكفي لأن يكون مادة في مجلة تصدر مرة كل شهرين طالما أن هذه المعلومات متوافرة بتفصيل أكبر في كتيبات هذه الجامعات وعلى شبكة الإنترنت وغيرها.. أما البحث في تضخم بعض الكليات على حساب كليات أخرى، وتحليل المسائل التي يثيرها هذا الأمر وانعكاساته على علاقة الخريجين بسوق العمل.. كل ذلك يشكّل قضية تستحق أن تكون مادة صحافية تطرح في مجلة دورية، وقد طرحناها في القافلة على حلقتين. وهذا لا يعني أبداً فارقاً في المستوى بين المادة الإخبارية ومواضيع القضايا، ولكن تنوع وسائل الإعلام وتكاثر أعدادها في العصر الحديث وسرعتها في أداء وظيفتها فرزت المواد الصحافية بين ما هو صالح للتلفزيون أو الإنترنت من جهة، وما هو صالح للمجلة الشهرية أو الدورية من جهة أخرى.

الأمر نفسه ينطبق على جانب من جوانب الإخراج الفني للمجلة يتعلق بالصور والرسوم التوضيحية المصاحبة للنصوص، فالانتشار الهائل الذي عرفته الصور الفوتوغرافية التقليدية في العقود الأخيرة أفقدها الكثير من تأثيرها، وصار خطابها في معظم الأحيان مقتصراً على تأكيد "صحة النص" أو على مجرد التذكير البصري ببعض فقرات النص، الأمر الذي جعلنا نميل في القافلة إلى الاعتماد أكثر على الرسوم الفنية والرمزية التي تشير إلى روحية الموضوع وتتناغم ومزاجه العام، حيثما كان ذلك ممكناً. ونعتز بأن بعض هذه الرسوم الجميلة مثل "شجرة التعليم الجامعي" تحولت على يدي وزارة التعليم العالي، بعد تطويرها، إلى هدية وزعتها على العديد من مرافقها وعلى المهتمين بهذا المجال.





أغلفة ملفات القافلة للأعداد الستة الأولى

ملصق الحقيبة المدرسية الذي وزِع في الصحف المحلية بعد توزيعه مع مجلة القافلة

شجرة التعليم العالي





وبشكل عام يمكن القول إن الكثير مما تحقق للقافلة وحيوية علاقتها بالقارئ يعود إلى النقاش المستمر في الخطوط العامة وكذلك في التفاصيل، نقاش يصل إلى حد الإرهاق داخل فريق التحرير، ونسعى دائماً إلى "توريط" أكبر عدد ممكن من الأصدقاء ومحبي القافلة فيه. ومن رحم هذه النقاشات ولدت كل تلك التغيرات، حتى تلك التي ما زالت تتوالى عدداً بعد عدد.

وفي عودة إلى رسائل القراء، نشير إلى أن بعضها لم يقتصر على التهاني، بل تضمَن نقداً واقتراحات وأفكاراً كان علينا أن نناقشها في الاجتماعات الطويلة التي نعقدها لتقويم كل عدد.

فالرأي أن المساحة المعطاة للشعر في العدد الأول كانت قليلة (صفحتين)، دفعنا إلى توسعتها لاحقاً إلى أربع صفحات. والرأي القائل بأن توالي المقالات الطويلة قد يتعب القارئ، دفعنا إلى استحسان باب من صفحتين للأخبار العلمية القصيرة سمَيناه "زاد العلوم".. بالإضافة إلى تلبية بعض رغبات القراء بزيادة موضوعات مناخ معين مثل العلوم أو الثقافة أو القضايا، فارتفع عدد الصفحات تدريجياً من ست وثمانين صفحة إلى أربع وتسعين ثم إلى مائة صفحة واثنتين، وهو قابل باستمرار للتغيير حسب متطلبات كل عدد وما يتطلبه من تنويع وتلبية لرغبات قرائنا.

وأخيراً، فإننا لن نستطيع أن نلم بتفاصيل سنتنا الأولى كلها، حيث نكتفي بهذه المقتطفات من رؤية الانطلاق الأساسية وما حققناه حتى الآن. فالتطوير عملية حيّة، خاصة في دنيا الصحافة التي هي أكثر المهن ارتباطاً بالحياة وتطوراتها. وهذه العملية ستستمر في القافلة بإذن الله. فمع كل عدد هناك مغامرة صحفية جديدة محسوبة. والعدد التالي لا يولد من الأول، بل مثله من نقطة مشتركة هي التجربة، مضافاً إليها الرأي.. رأي القرّاء والمحبين، وهم كثر ولله الحمد.

رئيس التحرير











قافلة القرّاء

ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

شهادة نعتز بها

أنا قارئ لقافلة الزيت منذ أمد بعيد، وتعود معرفتي بها إلى أواخر الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي، عندما كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ شكيب الأموي، وقد وجدت فيها دائماً معيناً ثراً من العلوم والمعرفة، ولا شك أنني أدين لها بشيء من تكويني الثقافي.
ولقد كانت مفاجأة لي أن أتلقى القافلة في ثوبها الجديد، وأخذت، من دون شك، بإخراجها الفني الرائع، ولعل ما ضاعف فرحتي بها هو المستوى الرفيع لمحتواها، مما يدعوني للكتابة إليكم لتهنئتكم بهذا الإنجاز المتميز، وأرجو أن تنقلوا هذه التهنئة لجميع زملائكم العاملين في جهاز تحرير القافلة وإدارتها، والإدارات التي قدمت لها الدعم، وأخص بالتهنئة أيضاً الإدارة العليا الرشيدة لأرامكو السعودية التي هيأت الظروف، ووفرت الإمكانيات للقافلة لتكون بهذا المستوى الراقي.
تحياتي لشخصكم الكريم، ولكل العاملين في القافلة وفي الشركة.

صالح بن عبدالله باخريبة
وكيل الجامعة للدراسات والأبحاث التطبيقية
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

أدب الرحلات

تلقيت بالشكر والتقدير العدد الجديد من القافلة (رمضان – شوال 1424هـ)، وسعدت بمطالعته واستمتعت بقراءته، وأهنئكم على ما حفل به من الإخراج المتميز والمادة الجيدة والموضوعات المتجددة والمقالات الهادفة، وأشكركم على اهتمامكم بوصول المجلة إليّ بانتظام. ومع تمنياتي للقافلة بالمزيد من التقدم والازدهار والإبداع والنجاح، أرجو تخصيص بعض الصفحات عندما تسنح الفرصة لأدب الرحلات، إذ أنه سبيل من سبل المعرفة والثقافة وفن أدبي متميز يشكّل ثراءً معرفياً يطل منه القارئ على أنماط مختلفة من صور الحياة، ويرى ويشاهد من خلاله عوالم واسعة من ثقافات الأمم والشعوب وتاريخها وآدابها ومتاحفها.

عبدالله بن حمد الحقيل
الرياض

النخلة

تلقيت بالشكر والتقدير نسخة من العدد الخامس لمجلة القافلة، ويطيب لي أن أهنئ سعادتكم والقراء بالنقلة الكبيرة التي حققتها القافلة في عددها الجديد (نوفمبر – ديسمبر 2003م)، وكانت لفتة جميلة ومعبرة أن تخصص النخلة بتكريم خاص شهدت به صفحات هذا العدد.
وأحسب أن القافلة أرادت بهذه المناسبة ترميم جدار الإحساس بالعقوق الذي يشعر به عشاق النخلة حيالها من لدن الجيل الحالي.. متذكرين دائماً أن النخلة هي التي أقامت صلب أجدادنا وآبائنا من قبل وكانت لهم السند بعد الله، والرفيق الأمين في السراء والضراء، متمنياً لكم وللعاملين معكم دوام التوفيق والسداد. مع أطيب تحياتي.

عبدالرحمن بن محمد السدحان
نائب الأمين العام لمجلس الوزراء

الإخراج والتبويب

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير إهداءكم الخاص من "مجلة القافلة" (عدد سبتمبر – أكتوبر 2003م) تلك المجلة المتجددة منذ خمسين عاماً، وقد أعجبني ما ظهرت عليه اليوم من إخراج جيد وتبويب لافت.
وأثمن لكم قراركم بإدراج اسمنا على قائمة توزيع المجلة.
نكرر شكرنا على الإهداء، آملين باستمرار التعاون معكم ومع دار "أسبار" للدراسات والبحوث والإعلام.

د. فهد العرابي الحارثي
دار "أسبار" – الرياض

المشاركة النسائية

أشكركم جزيل الشكر على تفضلكم بإهدائي هذه المجلة الرائعة، وأقدم لكم تهنئة صادقة على الموضوعات المتنوعة والغنية بالعلوم والثقافة والأدب، وأتمنى لو أن للمشاركة النسائية دوراً أكبر في مجلتكم، وأن يكون للتجارب الشخصية، وللمجتمع والتربية والتعليم دور أيضاً إن أمكن، فمشكلات المجتمع لا تنتهي. وأن تساهموا في حل تلك المشكلات بالتعاون مع أحد المتخصصين في هذا المجال أو ذاك، هذا بظني سيعطي للمجلة طابعاً أشمل وأكثر التصاقاً بالواقع. هذه بعض المقترحات وبجميع الأحوال فأنتم أعلم مني بما هو أفضل، وسأبقى بإذن الله تعالى على تواصل دائم معكم. أخيراً أكرر شكري على هذه المبادرة الطيبة وأتمنى لكم دوام التوفيق والنجاح. وتفضلوا بقبول فائق احترامي.

بثينة النواف
جدة

بهجة العيد

لا أستطيع أن أكتفي بإعجابي المضطرد، وأنا أتابع القافلة عدداً بعد عدد، نافضة عنها رمال الرتابة، منخرطةً في خضرة الإبداع، مؤكدة أن ثمة انبعاث يُزحزح القالب، وحركة تزعج الكُمُون!
هذا بالضبط، وباختصار ما أراه عبر جرأة الشكل وتطلّع المحتوى لطموح ممتد، الأمر الذي جعلني أفعل شيئاً رومانسياً: وهو الكتابة الأخوية، معبراً عن فرحي بكم أيها الحداة الجدد لقافلة جديدة.
بل إنني اخترت أن أخطّ بيدي هذه المشاعر الملحة، تماماً كما يفعل الأطفال السعداء وهم يتركون أجسامهم لبهجة العيد.
آمل الاستمرار في هذا الانغمار المدهش.. آملاً – أيضاً – في نفس اللحظة أن تُتاح لحظة شخصية لي لأشارككم هذه التجربة المثيرة.. إن قلمي ينتظر القيام بدوره في صناعة غنائكم المتميز.. وللجميع فرحي.

أحمد زرزور
رئيس تحرير مجلة قطر الندى للأطفال
القاهرة

أين القصة القصيرة

لقد افتقدت في إصداراتكم تلك القصص القصيرة التي كانت أكثر ما تشدني في هذه المجلة وهي السبب الذي عرفني بالمجلة.
إن من المواضيع التي كثيراً ما بحثت فيها وتناقشت مع الأصدقاء والزملاء فيها موضوع (كيف تشكلت اللغات في العالم) فكلنا خلقنا من آدم عليه السلام ومن ثم فني العالم في زمن سيدنا نوح وعاد الناس بالتناسل، فكيف المصدر واحد واللغات كثيرة؟ راجياً أن تكتبوا في هذا الموضوع في الأعداد القادمة. كما أتمنى من القافلة العزيزة أن تزيد من المواضيع المتعلقة بالطبيعة وخباياها. وفي الختام.. أعذروني لكثرة طلباتي ولكن هذا أملنا بالقافلة التي استطاعت أن تضم كل من تجده في طريقها وتجعله يستفيد مما تحمل في جعبتها.

أنس أحمد أبو خيران
مخيم البقعة – الأردن

القافلة: ستجد في هذا العدد قصة قصيرة، نتمنى أن تعجبك، وبالنسبة لاقتراحاتك الأخرى فسوف ترى النور لاحقاً بإذن الله، مع جزيل شكرنا وتقديرنا.

تعقيب على "العطر" و"المدينة"

بعد قراءتي لموضوع حول رواية "العطر" المنشورة في العدد الخامس من مجلتكم، وبعد قراءتي ملف "المدينة" المنشور في العدد السادس، رأيتني أرغب في أن أُدلي بدلو، ولو بماءٍ قليل، في كلا الموضوعين. إن ميخائيل نعيمةً، المفكر والأديب اللبناني، أتى على ذكر "العطر"، كما أتى على ذكر "المدينة" والمدنية في قصة "ساعة الكوكو". غير أن العطر الذي كان يجذب "بو معروف" بطل قصة نعيمة، يختلف كلياً عن العطر الذي كان يبحث عنه "غرنوي" بطل رواية باتريك زوسكيند. إنه عطر تراب الأرض. ومن يقرأ قصة ساعة الكوكو لا يسعه نسيان تلك الجملة الفاصلة الخالدة التي قالها نعيمة بلسان "بو معروف": "إن في التراب لعطراً لا تعرفه حوانيت العطارين".
أما بالنسبة لازدحام المدينة وحركتها القاتلة، وحركة الناس المتسارعين فيها، فنعيمة طويل الباع في وصف ذلك، وفي "ساعة الكوكو" نجد أحد هذه المشاهد الوصفية، مشهد لا يُمحى من أمام الناظرة لرهبته وجهنميته. يقول: "..التفت حواليه وسمع جلبة المدينة التي لا تنام، فخُيّل إليه أن المدينة برجٌ هائلٌ قائمٌ على ألوف الدواليب التي تكرّ بحركة إبليسية، وأن تلك المركبة الجهنمية تنحدر من علوّ جبل قمته في السحاب وأركانه في هوّة لا قرار لها. وأنها تسير على صدره، ورأى الراكبين فيها يتناهشون ويتعاضضون مقهقهين، مولولين، متسابقين إلى حيث لا يدرون، جاهلين أنهم سائرون إلى حيث تسير بهم المركبة لا إلى حيث يرغبون. ورأى بين هؤلاء الملايين ألوفاً من أبناء بشرته زجّت بهم الأوهام والمطامع بين الراكبين فداست بعضهم أرجلُ المتسابقين. وعَلِقَ الآخرون بدواليب المركبة فراحوا يكرّون معها سكارى وحيارى ومولولين يلتفتون إلى الوراء ويودّون الإفلات والرجوع فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً.." إن أتون هذه المدينة الغربية دفع نعيمة للهروب إلى الشرق الروحاني، إلى قرينه، إلى الأرض ينبوع الخير وجعلته يشمّ في ترابها ذاك العطر الساحر الفريد الوجود.

نجاح طلعت
بيروت

القافلة.. للدكتوراة

أنا أحضر لرسالة الدكتوراة بجامعة أم القرى – الأدب والنقد، وأرغب في أن يكون موضوع رسالتي حول مجلة القافلة، لذا أتمنى عليكم مساعدتي بإرسال بيبليوغرافيا كاملة عن أعداد المجلة، إضافة إلى أعدادها الأخيرة، شاكراً حسن تعاونكم.

محمد عبدالله الأسمري
مكة المكرمة

القافلة: يسرنا أن نرسل إليك بالبريد الفهرس الشامل الذي أصدرته القافلة لمناسبة يوبيلها الذهبي، إضافة إلى الأعداد اللاحقة.

اقتراحات جديدة

بكل فخر وغبطة تلقيت هذه التحفة الثمينة والدرة النفيسة (مجلة القافلة)، والواقع أن إخراجها الفني والشكلي لا غبار عليه وهو أكثر من رائع، غير أن لدي بعض الأفكار والاقتراحات المتواضعة التي يمكن أن تضفي جمالاً إلى جمالها وهي على النحو الآتي:

1- أن تخصص زاوية لإجراء الحوارات والمقابلات مع أصحاب التجارب في شتى الحقول.
2- سرد بعض قصص الأنبياء والمرسلين على شكل حلقات لما فيها من الدروس والعبر لنا جميعاً.
3- سيكون أمراً رائعاً أن تجوب كاميرا القافلة العالم شرقاً وغرباً، وأن تُكثّف جولاتها الميدانية على المعالم الأثرية والسياحية في المملكة.
4- يجب انتقاء بعض المواضيع المختصرة والقصيرة بغية إبعاد الملل عن نفس القارئ.
5- أن تخصص زوايا تعليمية في شتى المعارف على شكل حلقات ودروس.

محمد حسين بن ناصر المسلم
الأحساء



الملف

يسعدني أن أزف إليكم شيئاً من مشاعري الصادقة تجاه هذه الموسوعة الفكرية والثقافية التي تزيد فكرنا وتنير عقولنا. إنها حقاً المجلة المفضلة لديّ لا في الساحة الخليجية فحسب بل العربية أيضاً. كما أشكركم جزيل الشكر على وضع اسمي في قائمة توزيع المجلة ولا يفوتني في هذا المقام إلا أن أذكر إعجابي بتقديم ثوبكم الجديد وخاصة ملف القافلة الذي منه نستفيد وأقول لكم سيروا إلى الأمام والأفضل ونحن ننتظر المزيد منكم.

حسن حجي الشبيب
الأحساء - الهفوف

لو أنها تباع

قبل عشر سنوات، حصلت صدفة على عدد من القافلة في مصر. وها أنا أعود لأحصل عليها صدفة في المملكة، وأتساءل عن عدم عرض مجلتكم الجميلة عند باعة الصحف. فيا حبذا لو كانت تباع لإفادة الجميع من مقالاتها العلمية. كما أقترح عليكم زيادة أبوابها، والقيام باستطلاعات مصورة عن جغرافية المملكة وطبيعتها الفريدة من نوعها.

عاطف عبدالجواد علي
محافظة القويعية

القافلة: نرجو التكرم بإرسال عنوانك البريدي لتصلك المجلة بانتظام إن شاء الله.

الشعر في كل عدد

نعم.. لقد تطورت مجلة القافلة، ولكن على حساب جوانب من أهمها: الشعر! إذ وجدت المجلة قد أهملته تماماً. وإن نشرت واحدة، ففي بريد القراء!! لماذا؟
هذا أمر، والأمر الآخر: المجلة وعدت بنشر ديوان القافلة الشعري. مختارات مما نشر من شعر خلال مسيرتها المديدة. فماذا حلّ بهذا المشروع الرائع؟
والأمر الثالث يتعلق بالمسابقة التي أعلنت عنها القافلة منذ شهور. فليس هناك أية إشارة لها لا من قريب ولا من بعيد. ما حلّ بنتائجها؟

مصطفى النجار
حلب

القافلة: لم تهمل القافلة الشعر إطلاقاً، فهو يحتل بقديمه وجديده باباً ثابتاً في كل عدد ويقع في أربع صفحات. و"ديوان القافلة" الشعري يحتاج إلى شيء من التروي. أما مسابقة القافلة فتجدون نتائجها على صفحات هذا العدد.

كتب عن النخيل

أعجبني كثيراً الملف الذي طرح ضمن مجلتكم في العدد الخامس من المجلد 52 والذي كان بعنوان "النخلة". وللحصول على المزيد من المعلومات الواردة في هذا الملف رغبت في الحصول على بعض المراجع المذكورة في الصفحة 102 من العدد نفسه وخصوصاً الكتابين "معجم النخيل" من تأليف عبدالهادي الفكيكي، و"النخيل والتمور وآفاتها" من تأليف الدكتور علي عبدالحسين الذي صدر في عام 1985م. وفي ما يخص الإصدار الذي أصدرته جامعة الملك سعود بعنوان "نخيل التمر في الإنترنت" فقد زرت موقع الجامعة للحصول عليه ولكن من دون جدوى. وبناءً عليه، نرجو منكم التكرم بمساعدتنا في الحصول على هذه المراجع.

علي القطان
القطيف

القافلة: نرحب بزيارتك للمجلة، أو الاتصال بالزميل حبيب محمود على هاتف المجلة لتزويدك بما تريد.

الاستمرارية والتجدد

بفرحة ملؤها الإعجاب والتقدير، استقبلت ثلاثة أعداد من مجلتكم العريقة القافلة. وأنا، إذ أشكركم على هذا الإهداء الجميل الذي تكرمتم علي به، فلن أنسى أن أشير إلى عراقة هذه المجلة التي كنت ألتهم قراءتها كل ما وقعت في يدي منذ وقت مبكر من عمري، وها هي الآن في ثوبها الحديث تبدو أكثر أناقة، وأكثر انفتاحاً وشمولية في موضوعاتها مما يجعل لها تميزاً خاصاً ونكهة تختلف في عمقها عن بقية المجلات، وهذا مما يزيد من رصيدها بين القراء. كنت ولا زلت وسأظل معجبة بهذه المجلة وأذكر أني كتبت عنها عندما كنت أكتب زاوية في صحيفة البلاد قبل حوالي سبع أو ست من السنوات. وأشرت إلى تميزها وتفردها في موضوعات كثيرة عن غيرها من المجلات. أهنئكم على هذه الاستمرارية والتجدد.

زينب غاصب
جدة

الأصدقاء الجدد

السادة: يسري محمد عبدالحميد شاهين، المنوفية مصر - خليل محمد وابي، الكاميرون - بو خلف عبدالله، الجزائر - مومني حنان، الجزائر - جبر بن محمد الجبرين، المكتبة العامة بالسويدي - سمير بن عثمان هاشم بنجر، جامعة أم القرى بمكة المكرمة - ياسين حسن القضيب، الهفوف - سعيد بن أحمد الغامدي، الباحة - يونس بن أحمد العباسي، مدرسة الفاروق المتوسطة في الجبيل - عبدالرحمن السلطان، الرياض.

القافلة: نشكركم على العواطف الصادقة التي أبديتموها في رسائلكم، وقد أحيلت عناوينكم والتعديلات التي طرأت عليها إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم القافلة بانتظام إن شاء الله.

القافلة ٥٠

تهانينا..
الفائزون في مسابقة القافلة الذهبية

يسر القافلة أن تعلن نتائج مسابقتها الذهبية التي أطلقتها لمناسبة ذكرى مرور خمسين عاماً على صدورها. كما يسرها أن تهنئ الفائزين بها. وللتذكير فإن قيمة الجوائز لكل فرع من فروع المسابقة هي 15,000 ريال سعودي للجائزة الأولى و10,000 ريال سعودي للجائزة الثانية و5,000 ريال للجائزة الثالثة، وفيما يلي أسماء الفائزين بنتائج المسابقة، علماً بأنه قد تم حجب جوائز فرع الطاقة والاقتصاد لعدم توفر المستوى المطلوب فيما ورد من مشاركات قليلة في هذا الفرع:

الفرع الثاني: الموضوعات الخاصة بالبيئة والصحة والسلامة

الجائزة	الفائز	الموضوع
الأولى	د. محي الدين لبنية (سوريا)	مركبات داي أوكسين المسرطنة في طعامنا
الثانية	د. هاشم محمد المدني (البحرين)	سياسات قيادية تساعد في خفض الحوادث
الثالثة	د. وحيد محمد مفضل (مصر)	شعابنا المرجانية وظاهرة الدفيئة

الفرع الرابع: الموضوعات الدينية والتربوية والاجتماعية

الجائزة	الفائز	الموضوع
الأولى	د. أحمد محمد كنعان (سوريا)	الفحص الطبي قبل الزواج
الثانية	عدنان عبدالمنعم قاضي (السعودية)	تحليل فلكي لحديث كريب
الثالثة	د. محمد عبدالرحمن السبهين (السعودية)	واجب الجامعات ورجال التعليم

الفرع الثالث: الاستطلاعات المصورة

الجائزة	الفائز	الموضوع
الأولى	أحمد ابراهيم البوق (السعودية)	ربوع الحياة في الربع الخالي
الثانية	عبد محمد بركو (سوريا)	نواعير حماة
الثالثة	سعيد عبدالله الوايل (السعودية)	نقوش الأبواب التقليدية في المنطقة الشرقية

الفرع الخامس: الأدب والشعر

الجائزة	الفائز	الموضوع
الأولى	محمد عبدالمنعم زهران (مصر)	قصة: فردوس
الثانية	جاسم محمد الصحيح (السعودية)	قصيدة: يا بحر يا شيخ الرواة
الثالثة	محمد حسين الحرز (السعودية)	دراسة: الوعي الكتابي

أعضاء لجنة تحكيم المسابقة:

- **الطاقة والاقتصاد:** الأستاذ ياسر مهدي مفتي، مستشار التخطيط الاقتصادي في أرامكو السعودية - الدكتور عبدالوهاب سعيد القحطاني، أستاذ مساعد في الاستراتيجيات والتسويق بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن.
- **البيئة والصحة والسلامة:** الدكتور إباء فؤاد العادل، اختصاصي الصدأ والتآكل في أرامكو السعودية - الأستاذ خالد بن عبدالله العقيل، مدير عام صحة البيئة بأمانة مدينة الدمام.
- **الاستطلاعات المصورة:** الأستاذ مطلق العنزي، مدير التحرير بصحيفة "اليوم" السعودية - الأستاذ عبود عطية، سكرتير تحرير مجلة القافلة.
- **الدين والتربية والاجتماع:** الدكتور علي بن عبدالعزيز العبدالقادر، الأكاديمي والكاتب الاجتماعي - الأستاذ محمد عبدالحميد طحلاوي، رئيس تحرير القافلة السابق والكاتب المعروف.
- **الأدب والشعر:** الدكتور سعد البازعي، أستاذ الأدب المقارن بجامعة الملك سعود - الدكتور معجب الزهراني، أستاذ مشارك في الأدب الحديث بجامعة الملك سعود.

مواجهة كوارث البحار

على الرغم من قلة عددها مقارنة بالكوارث الصناعية والطبيعية الأخرى، فإن كوارث البحار الناجمة عن انسكاب الزيت من الناقلات أو محطات الإنتاج يمكنها أن تقع في أي وقت وفي أي مكان من العالم، مسببة خسائر لا يستهان بها وخاصة على الصعد البيئية، وقد تصل كلفة معالجة ذيولها في بعض الأحيان إلى بلايين عدة من الدولارات.

الكاتب ريك سنيدكر، من إدارة العلاقات العامة بأرامكو السعودية، يحدثنا عن استعدادات الشركة لمواجهة كوارث البحار.



ذات يوم من العام 2001م، اكتشف أحد مفتشي أرامكو السعودية تصدعاً في منتصف الناقلة "برستيج"، وذلك ضمن إجراءات معاينة الناقلات التي بدأتها الشركة منذ العام 1996م. وأدى اكتشاف المفتش إلى إبعاد تلك الناقلة ومنعها من الرسو في الميناء. بعد ذلك بعام واحد، وفي شهر نوفمبر 2002م، تحطم هيكل الناقلة المذكورة بفعل عاصفة بحرية وانشطرت إلى نصفين قبالة الشواطئ الإسبانية، فغرقت مسربة نحو 150 ألف برميل من الزيت في مياه المحيط. وضربت الكارثة شواطئ إسبانيا والبرتغال وفرنسا... ولو أن الإجراءات الصارمة كانت معتمدة أينما كان، لما وقعت هذه الكارثة التي بلغت الخسائر الناجمة عنها نحو 1.2 بليون دولار ولا تزال تتصاعد حتى اليوم.

مواجهة "الكوارث"

المعروف أن أكثر من نصف الزيت العالمي يتم نقله عبر الخليج العربي، ويشكل زيت أرامكو السعودية نحو 50 في المئة من الزيت الذي يمر عبر مضيق هرمز في الطرف الجنوبي للخليج، ولهذا؛ فإن الاحتياط لوقوع أية حوادث انسكاب يُعد بالضرورة مهمة دائمة.

وعلى الرغم من كثافة نشاط الصناعة البترولية في المنطقة، فإن الدراسات تشير إلى أن الأخطار الناتجة عن حوادث الانسكاب المتوسطة أو الرئيسة في منطقة الخليج، تعد نسبياً أقل مما هي عليه في مناطق أخرى من العالم.

اكتسبت الشركة خبرة لا تقدر بثمن في معالجة كارثة العام 1991م، ووظفتها لتحسين الاستعدادات للمواجهة

غير أن المنطقة تعرضت بالفعل لبعض الحوادث التي وصلت إلى حد الكارثة بما فيها كارثة عام 1991م، عندما تدفق الزيت من مجمع الفرضة في إحدى الجزر الصناعية الكويتية المدمرة، ومن العديد من ناقلات البترول التي تم إغراقها إبان حرب الخليج الأولى والتي قدرت بـ 6 – 8 ملايين برميل. وكذلك في عام 1983م، أثناء الحرب الإيرانية العراقية، عندما دُمرّ عدد كبير من منصات الحفر؛ وأدى ذلك إلى تسرب نحو 850,000 برميل من الزيت الخام من حقل النيروز الإيراني إلى مياه الخليج، وهي كمية تعادل ثلاثة أضعاف الكمية المنسكبة في حادث الناقلة "إكسون فالديز" في ألاسكا في مارس من عام 1989م. أما الغالبية العظمى من حوادث انسكاب الزيت في الخليج فقد كانت على مدى السنين من النوع البسيط نسبياً، وكانت كمية التسرب في 85 في المئة منها تقل عن 50 برميلاً.

ورغم الصعوبة البالغة التي واجهتها أرامكو السعودية في الاستجابة لحادث عام 1991م لقربه من مسرح العمليات العسكرية؛ فقد نجحت بمساعدة العديد من الهيئات الحكومية والدولية، بإنجاز الجزء الأكبر من أعمال إزالة واستخلاص الزيت في غضون ستة أشهر، وتم كشط ما يزيد على 1.7 مليون برميل من المياه المشبعة بالزيت من سطح الخليج، واستخلاص أكثر من مليون برميل من الزيت، حسبما تشير سجلات الشركة. وأدى ذلك إلى الحد من الأخطار التي كانت تتهدد الشاطئ من جراء المواد الهيدروكربونية اللزجة، حيث تمت إزالتها بعيداً عنه من خلال خطة نفذت ببراعة.

اكتسبت الشركة خبرة لا تقدر بثمن في التعامل مع ذاك الانسكاب. واليوم، لا يمكن لغير العين المدربة اكتشاف أي أثر له في ساحل الخليج في المملكة، كما استرد النظام البيئي عافيته، ويتجه بخطى حثيثة نحو العودة إلى الحالة الطبيعية. أما السواد الذي يخلفه انسكاب الزيت في البيئة المائية، فلا يستحق الكثير من الاكتراث، إذ أن الطبيعة قادرة على تجديد حيوية الأرض وإزالة ما لحق بها من ضرر. ولكن سياسة أرامكو السعودية تقضي بعدم ترك الأمور للطبيعة إلا في الحدود الدنيا، بالحرص على منع انسكابات الزيت قدر المستطاع؛ لأن التلف الذي يحدثه الزيت المنسكب قد يكون حاداً وطويل الأمد.

فالمعقَّد في حوادث انسكاب الزيت في الخليج هو أن ضيق مياهه وضحالتها تجعل دورة المياه بطيئة وتجعل تشتيت الانسكاب يستغرق وقتاً طويلاً، كما أن ارتفاع درجة الحرارة يعجِّل بتبخر المواد

الهيدروكربونية الخفيفة، ورسو المواد الثقيلة في القاع؛ مما يضر بالنظام البيئي في الخليج. ومن ثم فإن السرعة تعد العامل الأهم في أعمال الاستجابة في هذه المنطقة.

برنامج انسكاب الزيت

يدرك الجميع أن حوادث انسكاب الزيت يمكنها أن تقع في أي وقت، وهي تقع بالفعل. وبالنظر إلى ذلك، فإن برنامج انسكاب الزيت في الشركة يشرح بالتفصيل طرق المنع وإجراءات الاستجابة والتطهير، كما يضم قائمة شاملة بأرقام الأشخاص الذين يتعين الاتصال بهم في أنحاء الشركة، ويحدد مسؤوليات كل فريق من فرق الاستجابة ومهام قائده، كما يتضمن متطلبات شاملة للتوثيق أثناء الحادث وبعده، إلى جانب ما يحتويه من الاعتبارات القانونية، ومواد التدريب وغيرها من العناصر العديدة.

احتواء الزيت واستخلاصه هو الخيار الأول، واستخدام المواد الكيميائية المشتتة مرتبط بالمعطيات البيئية

ينصبُّ التركيز أولاً على الاستجابة للانسكاب. ولما كانت الإجراءات الخاصة بكل حادث تتوقف على حجمه، فقد صنفت الشركة انسكابات الزيت إلى فئات ثلاث:

- انسكابات بسيطة: أقل من 50 برميلاً وذات تأثير محدود للغاية.
- انسكابات متوسطة: ما بين 50 و 5,000 برميل، وتنطوي على آثار خطيرة.
- انسكابات كبرى: أكثر من 5,000 برميل، وتنطوي على آثار بالغة الخطورة.

وبالإضافة إلى هذا التصنيف هناك نوعان من الزيت يساعدان في تحديد طبيعة الاستجابة، هما الزيت الثقيل، ونعني به زيت الوقود الثقيل الذي يبقى ملتصقاً ويصعب تطهيره، والزيت الخفيف، وهو الزيت الخام الخفيف والمنتجات المكررة التي يسهل تطهيرها، وإن كانت أكثر سميّة وربما تنطوي على مخاطر بيئية كبيرة. وقد حددت خطط الطوارئ ثلاث مستويات للاستجابة هي:

- **المستوى الأول:** وفيه تستخدم الموارد المحلية ويشمل الانسكابات التشغيلية.
- **المستوى الثاني:** ويشمل الانسكابات الكبيرة التي تستخدم فيها موارد من جهات قريبة.
- **المستوى الثالث:** ويشمل الحوادث التي تحتاج إلى موارد كبيرة وتتطلب الحصول على موارد من جهات بعيدة.

دائرة انسكاب الزيت

تأتي لجنة انسكاب الزيت على رأس الترتيب في برنامج انسكاب الزيت في أرامكو السعودية، وهي تتألف من أعضاء الإدارة التنفيذية، والمدير العالمي لمكافحة التلوث بالزيت، وفرق الاستجابة لانسكابات الزيت في كل منطقة من مناطق أعمال الشركة. وتتمثل مسؤوليتها التضامنية في التأكيد على السرعة والكفاءة في الاستجابة لأي حادث.

وتقدم اللجنة مشورتها للإدارة حول السياسات والخطط والإجراءات ذات الصلة بمنع انسكاب الزيت واحتوائه وتطهيره في جميع مناطق عمل أرامكو السعودية حول العالم.

وفي حال وقوع أي من الحوادث الكبيرة التي تتحمل أرامكو السعودية أو أية من الشركات التابعة لها



أرامكو السعودية

المسؤولية عن وقوعه؛ فقد تنعقد اللجنة للإشراف على الأنشطة الرئيسة لتحقيق أقصى درجات الفاعلية.

وبناءً على اقتراح المدير العالمي لمحافحة التلوث تعمل الفرق الخاصة بانسكابات الزيت بكامل أعضائها في حال وقوع حوادث الانسكاب الكبرى فقط. أما بالنسبة للانسكابات المتوسطة، فقد يستعان ببعض الأعضاء لمعالجة الاحتياجات المحددة الخاصة بالانسكاب.

وفي معظم الأحوال، تتم إدارة أعمال التطهير من قبل المنسق الإقليمي بالتشاور مع المدير العالمي ووحدة الشؤون البيئية ومراقبة التلوث البحري. وهناك فِرَق استجابة في كل منطقة من مناطق عمل الشركة. ويرأس المدير العالمي لمكافحة التلوث بالزيوت هذا الفريق في كل منطقة، يليه في الترتيب قائد فريق الاستجابة، وعادة ما يتم الإشراف على فريق الاستجابة من قبل هذين الشخصين.

الدورات التدريبية مستمرة لرفع مستوى الجاهزية والكفاءات، وشارك فيها حتى الآن 842 موظفاً

وقد يتسع نطاق أعمال الإنقاذ على سبيل المثال ليشمل أعمال الإنقاذ التي يديرها رئيس أعمال فيلا ورئيس الإرشاد في الفرضة، والإشراف على فريق الإنقاذ (المهندس البحري وأخصائيي السطح وغرفة الماكينات واستشاريي الإنقاذ الموظفين والمساحين والمقاولين)، ووضع خطط الإنقاذ، وتنسيق الأعمال التشغيلية المتعلقة بالإنقاذ والتعويم والتحكم في خسائر الناقلة المتضررة.

معدات المواجهة

تعد وحدة مراقبة التلوث البحري التابعة لإدارة الأعمال البحرية في أرامكو السعودية المسؤولة بالدرجة الأولى عن الاستجابة لحوادث الانسكابات البحرية بالتنسيق مع فرق الاستجابة. وتمتلك الشركة الكثير من معدات الاستجابة لحوادث الزيت وتقوم بصيانتها، وإذا ما دعت الحاجة في حوادث بعينها إلى معدات إضافية، فإن لدى الشركة مصادرها الخارجية العديدة للحصول على ما يلزم من مواد ومعداتٍ وأيدٍ عاملة.

ويُعد الاحتواء والاستخلاص الخيار الرئيس في التعامل مع انسكابات الزيت، وفي بعض الحالات المحددة يتم اللجوء إلى استخدام المواد الكيميائية المشتتة التي تحول دون تشكّل أية بقع أخرى في المناطق الحساسة.

وطبقاً لسياسة الشركة، فإن المواد المشتتة لا تستخدم بشكل مباشر في المناطق البيئية الحساسة أو في المياه التي يقل عمقها عن عشرة أمتار (30 قدماً)، ويتقرر استخدامها على أساس ما تمثله من فائدة للبيئة مقارنة مع سلبيات استعمالها.

وتنتشر معدات مراقبة التلوث على طول ساحل البحر الأحمر غربي المملكة وعلى طول ساحلها الشرقي، ويمكن توجيهها إلى أي مكان في المملكة إذا ما دعت الحاجة.

ولدى الشركة ما يقرب من 51 مكشطة زيت ونحو 23,550 متراً من حواجز الزيت، منها 22 مكشطة

و4,491 متراً حواجز في رأس تنورة، وسبع مكاشط و9,296 متراً حواجز في رأس تناقيب، و6 مكاشط و3,330 متراً حواجز في جدة، و7 مكاشط و2,553 متر حواجز في رابغ، و6 مكاشط و1,540 متراً حواجز في ينبع، ومكشطتين و1,340 متر حواجز في ضبا، ومكشطة واحدة و1,000 متر حواجز في جازان. ومن المعدات الرئيسة الأخرى التي تملكها أرامكو السعودية:

- **طائرات رش المواد المشتتة لبقع الزيت من طراز 802**: ويوجد اثنتان منها في الدمام على ساحل الخليج العربي. ويمكن لهذه الطائرة أن تقطع المسافة من الدمام إلى البحر الأحمر في ست ساعات، وبها خزان يتسع لنحو 800 جالون أمريكي من المواد المشتتة، وتبلغ سرعتها القصوى أثناء الرش 120 عقدة (140 ميلاً في الساعة). ويمكنها الرش لمدة ساعة واحدة على الأكثر عندما تكون محملة تماماً كما يمكنها القيام بالرش على نطاق عرضة 24.4 متر (80 قدماً).

أكثر من نصف الزيت العالمي ينقل عبر الخليج العربي، ومع ذلك فحوادث الانسكاب أقل عدداً مما هي عليه في مناطق أخرى

- **مدين**: سفينة مصممة لتغطية أعمال أرامكو السعودية في البحر الأحمر. وتحتوي هذه السفينة المستخدمة في مكافحة التلوث البحري والتي يبلغ طولها 70 متراً (210 أقدام) على معدات للكشط تصل قدراتها إلى 100 متر مكعب في الساعة. كما تحمل على متنها حواجز لبقع الزيت يبلغ طولها 2,500 متر، وهي مزودة بخزان يتسع لنحو 3,500 برميل من الزيت المستخلص.

- **عين دار 1 حتى عين دار 8**: تتوزع هذه القوارب الثمانية على المنطقتين الساحليتين للمملكة، ويمكنها استخلاص الزيت بمعدل يتراوح ما بين 108 – 7,200 برميل في اليوم.

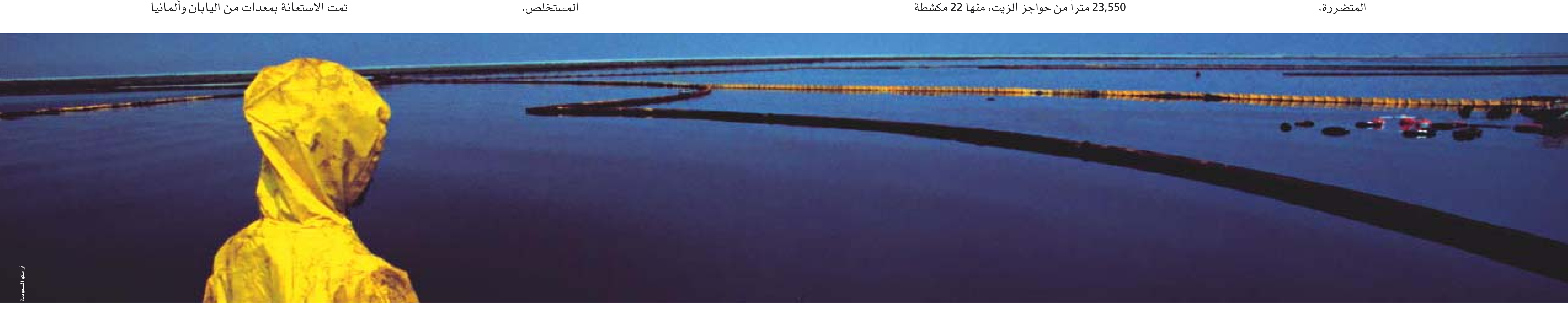
- **صنادل استقبال المواد الملوثة**: تمتلك الشركة 5 صنادل لاستقبال المواد الملوثة تتراوح سعتها ما بين 6 و 20 ألف برميل.

- **سفن نشر الحواجز**: هناك أربع سفن متخصصة في هذا المجال هي مرسال 1 و 2 و 3 وتبلغ سعة كل منها 8,618 كيلوغرام، إضافة إلى السفينة زودياك.

- **الحواجز الماصّة**: تمتلك الشركة 49,044 متراً من الحواجز الماصّة.

ويتمتع الغواصون العاملون تحت الماء بمهارات ممتازة في أعمال التطهير تقيهم من أن يتعرضوا في عملهم للبرد والقاذورات والمخاطر من مشرق الشمس إلى مغربها إلى جانب تعرضهم لمخاطر تسرب المواد الهيدروكربونية إلى أجسامهم. وقد قاموا في انسكاب عام 1991م بتركيب وإصلاح وإعادة نشر الحواجز باستخدام خطافات.

ويتم جلب معظم هؤلاء الغواصين عن طريق مقاول، كما يستعان بمصادر أخرى لمكافحة الانسكاب، من جميع أنحاء العالم حسبما يلزم. ففي انسكاب عام 1991م على سبيل المثال، تمت الاستعانة بمعدات من اليابان وألمانيا


أرامكو السعودية

ونيوزيلندا وفرنسا وبريطانيا وكندا والولايات المتحدة وهولندا شملت أكثر من 32,000 متر (20 ميلاً) من الحواجز البحرية وأكثر من 30,000 متر (19 ميلاً) من الحواجز الماصة للزيت و 2,000 متر (1.250 ميل) من الحواجز الخليجية إضافة إلى ما لا يقل عن 16 كاشطة. وقد استخدم في نقل الشحنات العاجلة إلى الظهران 30 طائرة مستأجرة بما فيها طائرات الأنتونوف-124 العملاقة روسية الصنع. وقد بلغ مجموع ما نقل من معدات إلى الظهران 80,000 متر مكعب.

تشدد سياسة الشركة على منع انسكاب الزيت، ولكنها تدرك أن مثل هذه الحوادث يمكن أن تقع، ومن هنا تجري كل هذه الاستعدادات

التدريب

ولدعم الجاهزية في مكافحة انسكابات الزيت؛ يتم تنظيم دورات تدريبية متخصصة لجميع الموظفين في الدوائر ذات الصلة بانسكاب الزيت. وقد حضر هذه الدورات التدريبية المتخصصة ما مجموعه 842 موظفاً من جميع أنحاء الشركة.

قبل حرب الخليج عام 1991م، كانت أرامكو السعودية تبعث بموظفيها إلى الخارج للتدريب على مكافحة الانسكاب، ولكنها أنشأت، منذ ذلك الحين، برامج للتدريب الداخلي مستعينة في ذلك بمهندسي مراقبة التلوث البحري.

وتنظم أربع دورات حول الاستجابة لانسكابات الزيت سنوياً، حيث تغطي مجموعة كبيرة من الموضوعات ذات العلاقة بهذا الشأن، مثل الاستراتيجية، والتخطيط للحالات الطارئة، وخيارات الاستجابة. ويلي كل دورة تمرين عملي ليوم واحد يحضره أعضاء فرق الاستجابة لانسكابات الزيت في مختلف مواقع الشركة على البحر الأحمر والخليج العربي. ويقوم خبراء معروفون دولياً بتنظيم هذه الدورات والتمارين التي عقد آخرها في ينبع في شهري سبتمبر وأكتوبر 2002م. وقد تم عقد ما مجموعه 17 دورة منذ عام 1992م عن طريق قسم تنسيق الاستجابة لانسكاب الزيت العالمي في العديد من فرض أرامكو السعودية على ساحلي المملكة، كما عقدت إدارة الأعمال البحرية 20 دورة خلال السنوات الخمس السابقة.

ولا تزال الشركة تبعث بموظفيها إلى الخارج لحضور المؤتمرات وورش العمل والتمارين التي تعقد لتبادل الأساليب والأفكار مع نظرائهم الدوليين. وفي عام 1998م، نشرت الشركة برنامجاً على موقعها الإلكتروني بعنوان "برنامج التوعية والتدريب حول انسكاب الزيت في أرامكو السعودية"، للعاملين في هذا المجال في الشركة والشركات التابعة لها في أنحاء العالم.

وقد اضطلعت الشركة بدور رئيس خلال السنوات العديدة الماضية في العديد من التمارين حول العالم، شملت تمرين مدينة مورقان في لويزيانا الأمريكية، ومدينة القيسيراس بإسبانيا، إضافة إلى تمرين أقيم بالتعاون مع الهيئات الحكومية السعودية حول حماية منطقة سحب الماء الخاصة بمحطة تحلية المياه في الجبيل، كما شاركت الشركة في تمارين في هيوستن وقلفيستون في ولاية تكساس الأمريكية، وأماكن أخرى عديدة من العالم.

خطة مكافحة انسكاب الزيت

فبشكل عام، يمكن القول إن الشركة تلتزم بمنع تسرب الزيت في أعمالها ومرافقها سواء كان هذا التسرب على اليابسة أو في الماء. غير أنه نظراً لضخامة الموارد البترولية في المملكة وضخامة أعمال إنتاج الزيت والفرض في أرامكو السعودية، فإن هذه التسربات قد تحدث بصورة عرضية. وفي هذه الحال، فإن إجراءات أرامكو السعودية تستند إلى الأولويات التالية:

- يكون الاهتمام الأول في أية مرحلة من مراحل الاستجابة لانسكاب الزيت منصباً على حماية الحياة البشرية، ودائماً ما تكون سلامة الناس وموظفي أرامكو السعودية هما الهم الأول.
- وتُعطى الأولوية الثانية لحماية المرافق الحيوية مثل محطات توليد الكهرباء وتحلية المياه، حيث تؤثر هذه المرافق في صحة وسلامة واقتصاد قطاع كبير من الناس في المملكة.
- وتتمثل الأولوية الثالثة في الحد من توقف الأعمال في فرض التصدير العائدة لأرامكو السعودية ومرافق الإنتاج الحيوية وتأمين سلامتها. وتفرض الأهمية الشديدة لهذه المرافق تسخير كافة الموارد المتاحة في أرامكو السعودية لحمايتها وتأمين سلامتها واستمرارها.
- أما الأولوية الرابعة فتتمثل في اتباع أفضل الوسائل العملية في الحد من الآثار البيئية الناجمة عن الانسكاب. ولتحقيق ذلك؛ تتخذ أرامكو السعودية إجراءات عاجلة فور تلقيها تقريراً عن الانسكاب في أي مرفق من مرافقها. ويقصد بمرفق أرامكو السعودية أي مرفق أو معدة تملكها الشركة أو تشغِّلها أو تستأجرها أو تقوم بإنشائها. إضافة إلى ذلك، تلتزم الشركة بتوفير الأيدي العاملة والمواد اللازمة لتنفيذ إجراءات التطهير والحماية اللازمة وتشتيت الزيت المنسكب من أية سفينة راسية على الخطاف أو في المرسى أو متحركة في منطقة فرض أرامكو السعودية أو أية سفينة من أية جهة غير معروفة عندما يشكل هذا الانسكاب تهديداً لمرافق أرامكو السعودية.

هناك أسطول من السفن والزوارق والمعدات تدعمه طائرتان لرش المواد المشتتة على استعداد للتدخل متى دعت إلى ذلك الحاجة

وتقوم الشركة في أحوال معينة بالمساعدة على تطهير أية انسكابات أخرى عندما يُطلب منها ذلك بشكل واضح من قبل الدولة. وتتجه الشركة في سياستها إلى تحميل المسؤولية القانونية للانسكاب على الجهة التي يثبت ضلوعها في وقوعه وتحميل هذه الجهة المصاريف التي تتكبدها أرامكو السعودية في عملية التطهير.

إلى ذلك، تتولى الشركة إشعار أعضاء منظمة تبادل المساعدات بين شركات منطقة الخليج التي قد تتضرر أعمالها بالانسكاب الناتج عن أي من مرافقها أو مرافق الغير في المياه الإقليمية للمملكة، وحيث أن معظم أعضاء منظمة تبادل المساعدات بين شركات منطقة الخليج هي شركات غير سعودية؛ فإن هذا الإشعار يعد في الحقيقة بمثابة تحذير لدول المنطقة من خلال شركات الزيت فيها إزاء الخطر المترتب على أي انسكاب، وهو التزام لا يستهان به، ويمثل جزءاً من خطة الاستجابة للانسكاب شأنه شأن الرجال والمعدات.

أرامكو السعودية



التعاون على المستوى الدولي

سعياً منها إلى توسيع وتعزيز قدراتها في مجال مكافحة انسكاب الزيت؛ انضمت أرامكو السعودية إلى عضوية عدد من الهيئات الدولية التي تتبادل التقنية وتقدم المساعدة في مجال الاستجابة للحوادث الطارئة في هذا المجال. ومن هذه الهيئات ما يأتي:

- الهيئة الإقليمية لنظافة البحار: وتقدم هذه الهيئة خدمات الاتصال للشركات الأعضاء (بما فيها أرامكو السعودية). وتستطيع أية شركة عضو طلب المساعدة من الأعضاء الآخرين من خلال هذه الهيئة للاستجابة لحوادث الزيت التي تخرج عن نطاق إمكانياتها. والأعضاء الحاليون في هيئة البحار النظيفة الإقليمية هم: أرامكو السعودية، وشركة الزيت العربية المحدودة، وشركة تكساكو العربية السعودية إنك، وشركة البترول البحرينية، وشركة البترول الكويتية، والهيئة العامة للبترول في قطر، وشركة دبي للبترول، وشركة تطوير نفط عمان، وشركة أبوظبي الوطنية للزيت، وشركة كالتكس الخليج، وشركة ماإيرسك القطرية للزيت، وشركة بنزأويل قطر.
- هيئة الاستجابة لانسكاب الزيت المحدودة: ومقرها ساوث هامبتون بإنجلترا، وهي هيئة غير ربحية ولديها مخزون كبير من معدات الاستجابة لانسكاب الزيت يمكن إرسالها إلى أي مكان يتعرض لمثل هذه الحوادث.
- الهيئة التعاونية لنظافة الكاريبي: وهي هيئة غير ربحية تعمل في مجال الاستجابة لحوادث الزيت ومقرها فورت لودردال بفلوريدا في الولايات المتحدة، وتعمل في منطقة البحر الكاريبي والمياه الساحلية لأمريكا الجنوبية.
- هيئة المحافظة على البيئة البحرية: وهي هيئة أمريكية غير ربحية تركز على نشاط شركات البترول والطاقة في التعامل مع التلوث البحري وخاصة انسكابات الزيت. وتحصل هذه الهيئة على أموال من خلال شركات الزيت الكبرى في الولايات المتحدة. وتمنح هذه الأموال إلى الهيئات غير الربحية مثل هيئة الاستجابة لانسكاب الزيت التي تقدم خدمات استجابة للشركات الأعضاء في هيئة المحافظة على البيئة البحرية.
- هيئة الاستجابة للانسكاب البحري: وهي تقدم خدمات ومعدات الاستجابة للانسكاب المحمولة بحراً في خليج المكسيك بصورة أساسية، وكذلك في البحر الكاريبي.
- هيئة شرق آسيا الخاصة بالاستجابة: وهي هيئة دولية غير ربحية تضم ثلاثة مراكز استجابة تغطي منطقة الباسيفيك. وتضم في عضويتها شركات الزيت الكبرى العاملة في المنطقة، ولديها مخزون كبير من معدات مكافحة الانسكاب في سنغافورة.
- هيئة البترول اليابانية: وهي هيئة تجارية غير ربحية وغير حكومية تمثل صناعة التكرير والتسويق لدى الدولة والهيئات الصناعية والصحافة والجمهور العام. ولديها مخزون كبير من معدات الاستجابة في ستة مواقع في اليابان وخمسة مواقع أخرى على طول مسار نقل الزيت من الخليج العربي إلى اليابان. وتحتفظ هيئة البترول اليابانية بموقع لمعدات الاستجابة في الخفجي وآخر في أبوظبي.

من أضخم حوادث انسكاب الزيت

شهد العالم العديد من كوارث البحار النفطية، لكن الاهتمام بها وحصر حجم أضرارها ازداد مع ازدياد الاهتمام العالمي بحماية البيئة وحماية البحار بنوع خاص. وفيما يأتي أكبر حوادث انسكاب الزيت العالمية التي وقعت في السنوات الأخيرة:

– **بريستيج – 13 نوفمبر 2002م:** كانت الناقلة بريستيج التي أمضت 26 سنة في الخدمة قد تعرضت لتسرب الزيت منها في 13 نوفمبر 2002م، عندما تحطم هيكلها بفعل إحدى العواصف. وفي 19 نوفمبر انشطرت السفينة إلى شطرين وغرقت على بعد 200 كيلومتر من ساحل مدينة قاليسيا الإسبانية في مياه عمقها 3,600 متر (11,800 قدم)، مسربة نحو 150,000 برميل من زيت الوقود الثقيل. وقد انتشر الانسكاب على طول مئات الكيلومترات من الساحل الإسباني وجنوب فرنسا وشمال البرتغال. وأدى حظر الصيد في هذه المنطقة من جراء الحادث إلى خسارة آلاف الناس لأعمالهم، كما أثر في اقتصاد المنطقة لفترة مؤقتة.

– **ناتونا سي – 4 أكتوبر 2000م:** كانت هذه الناقلة المسجلة في بنما قد جنحت في المياه الإندونيسية بالقرب من منارة بيتو برهانت، مما أضر بخزانات الشحن الأربعة فيها وأدى إلى انسكاب نحو 49,000 برميل من الزيت في البحر. وقد وصلت بقع الزيت المنسكب إلى سنغافورة، وتطلب الأمر إجراء أعمال تطهير على شواطئ سنتوسا، أكثر المنتجعات السياحية شهرة في سنغافورة.

– **إريكا – 12 ديسمبر 1999م:** كانت الناقلة إيريكا المسجلة في مالطا قد تحطمت في عاصفة بحرية بالقرب من الشواطئ الفرنسية، وجرفت المياه نحو 105 آلاف برميل من الزيت نحو الشاطئ الفرنسي. وقد أدت الرياح والتيارات القوية إلى إعاقة مجموعة السفن التي جاءت لمكافحة التسرب وتجاوزت تكاليف المكافحة 160 مليون دولار.

– **ناخودكا – 7 يناير 1997م:** تسرب ما يزيد على 36,400 برميل من الزيت الخام الثقيل من هذه الناقلة بعد غرقها بالقرب من السواحل الشمالية الغربية لليابان. وقد غطى الزيت المنسكب شواطئ قرى الصيد وهدد المواطن البحرية للمحار.

– **سي إمبرس – 15 فبراير 1996م:** أطلق حرس السواحل إنذاراً بيئياً عاماً، عندما اصطدمت هذه الناقلة المسجلة في ليبيريا بالصخور بالقرب من ميناء ميلفورد هافن، في ويلز بالمملكة المتحدة، وقد تسرب من هذه الناقلة التي تصل حمولتها إلى 147 ألف طن والتي كانت تحمل 910 آلاف برميل من الزيت الخام، نحو 280 ألف برميل في المحيط بعد يومين من الاصطدام. وقدرت السلطات البريطانية تكلفة أعمال التطهير في البحر وعلى اليابسة بنحو 37 مليون دولار.

– **براير – 5 يناير 1993م:** كانت الناقلة براير التي تبلغ حمولتها 89 ألف طن والمسجلة في ليبيريا قد اصطدمت بالصخور بالقرب من جزر سيتلاند شمال اسكتلندا، فسكبت كامل شحنتها البالغة 620 ألف برميل من الزيت الخام النرويجي في البحر عند الطرف الجنوبي للجزيرة الرئيسة. وبسبب تلاطم الأمواج وقوة العواصف هناك، تعذر استخلاص أية كمية من الزيت المنسكب وتدفق الزيت على ساحل الجزيرة.

– **إكسون فالدز – مارس 1989م:** سكبت الناقلة إكسون فالدز 254,700 برميل من الزيت في ولاية ألاسكا الأمريكية عند مضيق الأمير وليام، وغطى الانسكاب مساحة قدرها 12,400 كيلومتر مربع من المياه النقية الصافية وتسبب في مقتل ما لا يقل عن 34,400 طائر بحري و 10 آلاف من الثعالب البحرية، وما يقرب من 16 حوتاً. وقد ذكرت إكسون أنها أنفقت 2.5 بليون دولار في عملية التطهير، وأدت هذه الحادثة إلى صدور قانون التلوث البحري في الولايات المتحدة عام 1990م.

– **حقل النيروز في إيران – 4 فبراير 1983م:** أدى تدمير منصة الحفر رقم 3 وغيرها من المنصات الأخرى في حقل النيروز الإيراني إلى تسرب 850,000 برميلاً من الزيت الخام في مياه الخليج العربي.

– **البئر الاستكشافية في خليج المكسيك – 3 يونيو 1979م:** أدى انفجار البئر الاستكشافية في المنطقة المغمورة في باهيا دل كمبتشي، الواقعة على بعد 80 كيلومتراً شمال غرب سيوداد دل كارمن، إلى تسرب 3.3 مليون برميل من الزيت.

– **أموكو كاديز – 17 مارس 1978م:** أدى تعطل عجلة التوجيه في الناقلة أموكو كاديز إلى جنوحها نحو الساحل البريطاني. وخلال شهر واحد سكبت السفينة كامل شحنتها من الزيت البالغة 1.5 مليون برميل من الزيت الخام وبضعة آلاف طن من وقود السفن، وتسببت في تلوث شديد للساحل. وقدرت قيمة المطالبات المترتبة على هذا الحادث بنحو 100 مليون دولار.

– **توري كانيون – 18 مارس 1967م:** كان هذا هو حادث الانسكاب الأول الذي أثار اهتمام المجتمع الدولي عندما اصطدمت الناقلة توري كانيون بالصخور عند جزر سيسيلي خارج المياه الإقليمية البريطانية. سكبت السفينة 210 آلاف برميل من الزيت الخام وتسببت في تلوث 300 كيلومتر على طول الساحل الجنوبي الغربي لإنجلترا والساحل الشمالي الغربي لفرنسا. وقد لجأت القوات الجوية الملكية البريطانية إلى تدمير السفينة لوقف تدفق ما بقي من حمولتها من الزيت.



.. البيئة حجّتها الباقية!

بدائل النفط تنتظر

الطاقة النووية، الطاقة الهوائية، الطاقة الشمسية.. والآن الهيدروجين. عناوين تضج بها وسائل الإعلام موسمياً وكأن العالم الذي يبحث عن بديل للزيت بات على وشك الوصول إلى ضالته. فلماذا هذا البحث عن بديل للزيت؟ وهل هناك بديل فعلاً خلال المستقبل المنظور؟ اختصاصي التخطيط والتحليل محمد عبدالرحمن الفهيد يناقش هذه الإشكالية فيما يلي..



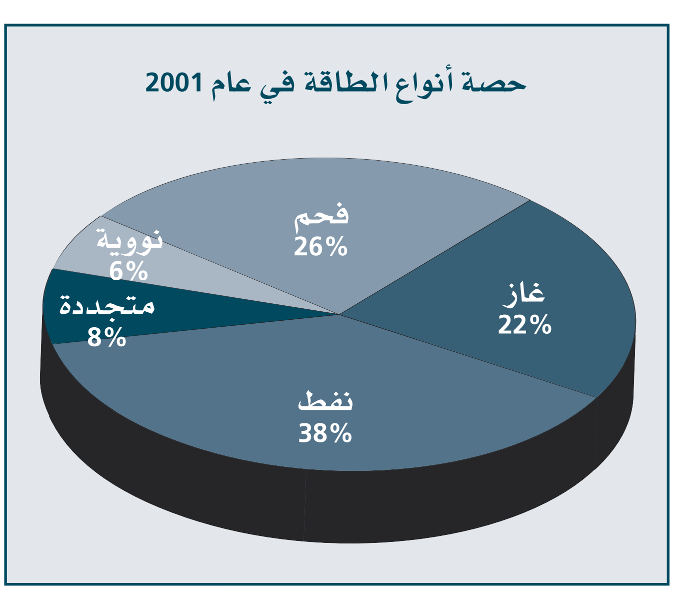
شهدت مصادر الطاقة منذ أن بدأ الإنسان باكتشاف النار لأغراض التدفئة والطبخ والإنارة تحولات دراماتيكية على مر العصور. فقد استمر استخدام الخشب والمواد الصلبة الأخرى بالإضافة إلى الزيوت المستخرجة من الحيوانات والنباتات في إنتاج الطاقة اللازمة لتلك الأغراض على مدى عصور طويلة، حتى بدأ الإنسان في استخدام مصادر الطاقة تلك في التصنيع وخاصة في تصنيع المعادن.

ومع مطلع القرن الثامن عشر، تم اكتشاف الفحم كمصدر مهم ورئيس للطاقة فحل محل الخشب وأصبح عاملاً رئيساً في قيام الثورة الصناعية وقطاع المواصلات. وتأتي نقطة التحول الثانية مع اكتشاف البترول في بداية القرن التاسع عشر مما أدى إلى تطور كبير في مجالي النقل والصناعة على حد سواء.

وعند تتبع مراحل الانتقال من مصدر معين للطاقة إلى آخر يلاحظ أن نوعية التحول كانت في جودة الوقود. فالفحم مثلاً تنتج عنه طاقة أكبر من الخشب وغيره من أنواع الوقود الصلب الأخرى، وكذلك البترول تنتج عنه طاقة أكبر من الفحم. لذا يمكن القول أن التطور التقني أدى إلى التحول لاستخدام أنواع من الوقود ذات جودة أعلى من سابقتها، مما أدى بدوره إلى نمو إطرادي في المجال الصناعي، وبالتالي في المجال الاقتصادي. وبهذا أصبح البترول مصدر الطاقة الأكثر قبولاً لدى المستهلك حتى عام 1973م حين وقعت حرب أكتوبر وما تبعها من تهديدات بفرض حظر على صادرات البترول من الدول العربية إلى بعض الدول الصناعية المستوردة، مما أدى إلى ظهور محور جديد في مجال الطاقة ألا وهو المحور السياسي أو ما يسمى بسياسات تأمين مصادر الطاقة.

انبثقت عن ظهور هذا المحور اتجاهات عدة، منها توجه الدول الصناعية في أمريكا وأوروبا الغربية واليابان إلى تطوير تقنية الاستهلاك وضخ أموال طائلة في مجال البحوث بهدف إيجاد مصادر جديدة للطاقة. وفي المقابل اتجهت الدول النامية إلى مواصلة مسيرة الاستهلاك من البترول لتدعيم برامجها التنموية والاقتصادية. ولكن، لم تقف التحديات للبترول عند هذا الحد. ففي الثمانينيات ظهرت إلى حيز الوجود تحديات جديدة ألا وهي عوامل البيئة مما أدى إلى استبدال جزء كبير من الفحم والبترول بالغاز الطبيعي وخاصة في مجال توليد الكهرباء. وتجاوباً مع مطالب ناشطي البيئة ولأهداف اقتصادية ومالية بحتة؛ سنّ العالم الغربي الضرائب على المنتجات البترولية لتصبح هذه الضرائب مصدر دخل لتلك الحكومات لا يمكنها التخلّي عنه.

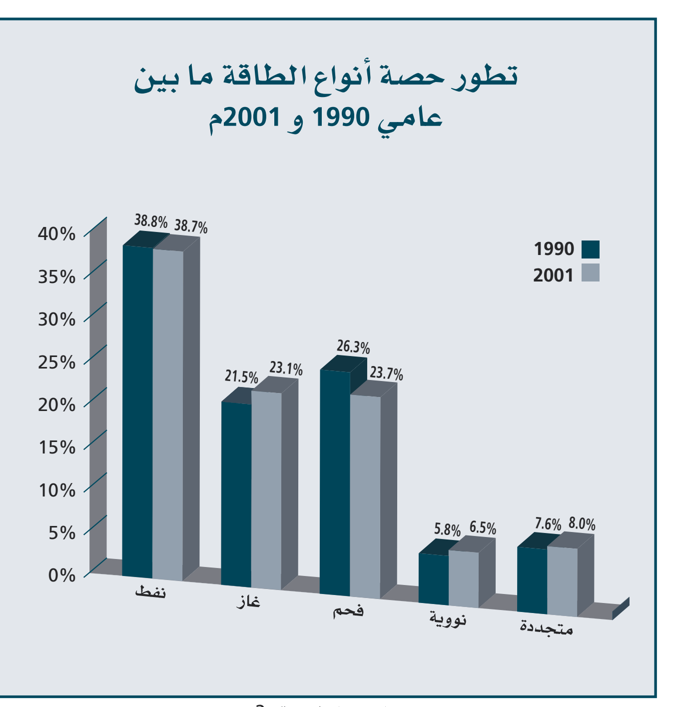
وقبل التطرق إلى ما يواجه البترول من تحديات في هذا المجال، يجب استعراض أنواع مصادر الطاقة، التي تنقسم إلى قسمين رئيسين وهما طاقة متجددة[1] وطاقة غير متجددة. حيث تعتبر الطاقة الناتجة عن استخدام الفحم والبترول والغاز الطبيعي واليورانيوم (الطاقة النووية) من أنواع الطاقة غير المتجددة بينما تعتبر الطاقة الناتجة عن استخدام قوة اندفاع المياه (الطاقة المائية) والطاقة الناتجة عن الحرارة المنبعثة من باطن الأرض (Geothermal) والطاقة الشمسية (Solar) والطاقة الهوائية (Wind) والطاقة الناتجة عن حركة الأمواج في البحار والمحيطات (Tide) والطاقة الناتجة عن حرق المواد العضوية لبقايا النباتات والحيوانات وفضلات الكائنات الحية (Biomass) سواء الصلب منها أو السائلة أو الغازية من أنواع الطاقة المتجددة. ويوضح الرسم البياني (رقم 1) أنواع الطاقة المستخدمة حالياً في العالم وحصة كل منها في الاستخدام العالمي لعام 2001م.



الرسم البياني رقم 1

(1) اختلفت المصادر في تحديد أنواع الطاقة المتجددة ولكن بشكل عام يتفق غالبيتها على الأنواع المذكورة هنا.

وحيث أن موضوع هذا المقال هو بدائل النفط فيمكننا استبعاد الأنواع التي ثبت عدم جدوى منافستها للبترول في المجالات الرئيسية لاستخدامه بشكل غالب. حيث يوضح الرسم البياني (رقم 2) حصة كل نوع من أنواع الوقود في الاستهلاك العالمي للطاقة في عام 2001م بالمقارنة مع عام 1990م. ويتضح من ذلك تراجع حصة الفحم وإلى حد ما تراجع حصة النفط، لصالح الغاز الطبيعي والطاقة النووية وأنواع الطاقة المتجددة.



الرسم البياني رقم 2

إن معظم الإحلال الذي حصل كان في مجال إنتاج الكهرباء والتدفئة، حيث زادت حصة الغاز الطبيعي بشكل أكبر والطاقة النووية والمتجددة بشكل محدود في هذين المجالين، بينما حافظ النفط على سيطرته الكاملة في مجال المواصلات. لذا اتجهت جهود الدول الكبرى المستهلكة للطاقة في مجال المواصلات إلى محاولة إيجاد أنواع وقود بديلة للنفط في هذا المجال. وكان وراء ذلك دوافع عدة، ولكن الدافع الرئيسي المعلن هو تقليل التلوث الناتج عن حرق المنتجات النفطية. ورصدت ميزانيات هائلة سواء حكومية أو خاصة للوصول إلى تحقيق هذا الهدف.

وتمخضت هذه المحاولات عن اكتشافات عدة نذكر منها التالي:

- استخدام الطاقة الشمسية في المركبات. ولم تحقق هذه التقنية تقدماً يذكر في هذا المجال ولم تشكل تهديداً للنفط؛ إما بسبب تكاليفها الباهظة، أو لعدم ملاءمتها لأنواع المركبات بشكل عملي.

- استخدام الكحول ذي المصدر النباتي (الميثانول) كوقود بديل أو بإضافته إلى الوقود المنتج من النفط (الجازولين) بنسب معينة. ولكن ظل ذلك بشكل محدود نظراً لمحدودية المنتج أو لصعوبات تقنية أو بسبب الأضرار البيئية الناتجة عنه. ولكنه في الآونة الأخيرة عاد إلى حيز الاستخدام في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك لتشجيع القطاع الزراعي المنتج له هناك، ولكن هذا الاستخدام لا يزال على نطاق ضيق.

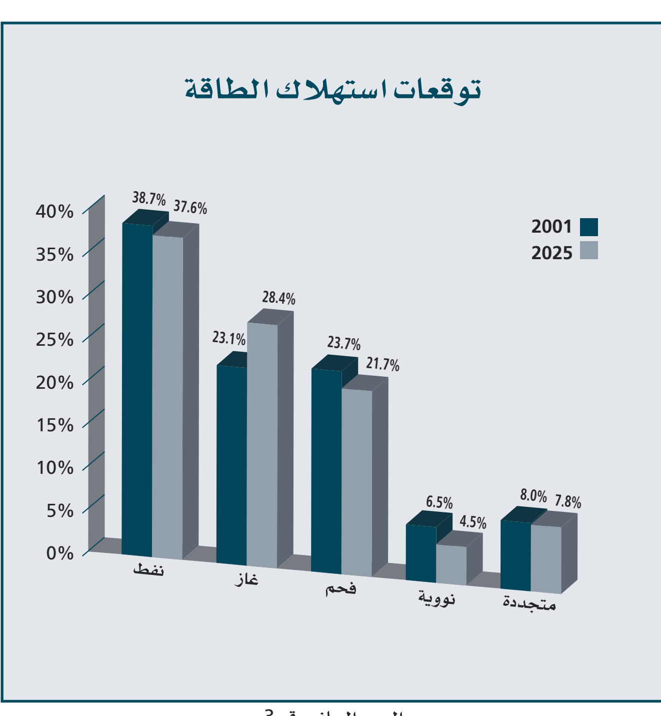
- استخدام الغاز الطبيعي كوقود لوسائل المواصلات. وقد لاقى هذا البديل انتشاراً محدوداً واستخدم خاصة في وسائل النقل العام، وذلك بسبب صعوبة تخزينه وعدم انتشار وسائل التوزيع المناسبة لذلك والمخاطر التي قد تنجم عنه في حالة الحوادث.

- استخدام تقنيات مبتكرة تعتمد على استخدام غاز الهيدروجين كوسيط في الطاقة المستهلكة مثل تقنية خلية الوقود (Fuel cell). وتستخدم هذه التقنية حاليا الجازولين لإنتاج الهيدروجين. ولا تزال تكاليف هذه التقنية مرتفعة بالمقارنة مع الاستخدام المباشر للوقود المنتج من النفط.

وهناك تقنيات أخرى كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكر خصائصها مثل تقنيات المحركات المهجنة (hybrid cars) مزدوجة المصدر، والتي تستخدم الجازولين والكهرباء كمصدر للطاقة. وهذه التقنيات إما أن تكون في طور البحث والتطوير أو في طور التجريب. وبشكل عام يمكن القول إن تأثيرها لن يكون كبيراً على حصة النفط في الاستهلاك العالمي للطاقة خلال العقدين القادمين، حسب توقعات إدارة معلومات الطاقة الأمريكية الموضحة في الرسم البياني (رقم 3).

الخلاصة

يتضح مما سبق أن الدول الكبرى المستهلكة للطاقة ترصد إمكانيات مادية هائلة في محاولة لإيجاد بدائل للنفط وذلك لأسباب عديدة.



الرسم البياني رقم 3

- **السبب الأول:** أمن الإمدادات. تسعى الدول الصناعية المستهلكة إلى تعزيز أمن وصول إمداداتها النفطية من أماكن إنتاجها إلى مناطق استهلاكها دون انقطاع، وتحاول تقليل اعتمادها على النفط كمصدر رئيسي لتقليل مخاطر انقطاعه. وقد أثبتت الدول المنتجة للنفط من أوبك وعلى رأسها المملكة العربية السعودية قدرتها على تأمين سلامة الإمدادات للدول المستهلكة خلال الأزمات والتوترات الدولية وارتفاع الطلب وبأسعار مناسبة لكلا الطرفين. ولا تزال المملكة ودول أوبك الأخرى تؤكد حرصها على ذلك الأمر الذي تجسّد دعمها للحوار وتقريب وجهات النظر بين المنتجين والمستهلكين من خلال منتدى الطاقة الدولي الذي أنشئت أمانته في المملكة.

- **السبب الثاني:** التلوث البيئي. وهو التلوث الناتج عن استخدام الوقود الأحفوري ومشتقاته في إنتاج الكهرباء وفي وسائل المواصلات وما ينتج عن ذلك من ملوثات مثل غازات الكربون والنتروجين والملوثات المعدنية الأخرى والآثار المترتبة عليها كظاهرة الاحتباس الحراري. ورغم قبول هذا الأمر عالمياً ، إلا أن الدول الصناعية المنتجة للفحم - وهو أكثر تلوثاً من أنواع الطاقة الأخرى - تسعى إلى ترويجه كسلعة بديلة للبترول عن طريق إعانات ضريبية ومالية عالية وعن طريق تشجيع الأبحاث الرامية إلى تنظيفه من الملوثات.

ونظراً لما يمتاز به النفط من خصائص أهمها سهولة نقله من أماكن إنتاجه إلى أماكن استهلاكه بالمقارنة مع أنواع الوقود الأخرى، وكذلك سهولة تخزينه وما يمتاز به على التقنيات الجديدة من وجود البنية الأساسية للتوزيع والاستهلاك مما يقلل من تكاليفه، ونظراً لانحسار حجة أمن الإمدادات كما ورد سابقاً ، فإن العامل الكبير الذي سوف يؤثر على مستقبل الطلب على النفط هو مدى ملاءمته للمتطلبات البيئية الدولية. وستكون المصادر الأكثر تأثيراً على حصة استهلاك النفط هي المصادر المبتكرة تقنياً والموجهة إلى خفض استهلاك النفط في مجال المواصلات. لذا من الضروري أن تبادر الدول المنتجة للنفط إلى رصد إمكانيات مادية في مجال الأبحاث سواء الأكاديمية منها أو الصناعية تهدف إلى إنتاج أنواع وقود نظيفة مشتقة من النفط تتناسب مع التوجهات الدولية للمحافظة على البيئة والتقليل من تلوثها. وفي هذا الإطار تبذل جهود كبيرة في شركة أرامكو السعودية لتحقيق هذا الهدف عن طريق تشجيع الأبحاث والدراسات الرامية إلى تعزيز مكانة النفط بيئياً واقتصادياً.

عالم كتب الأطفال ممتع.. رحب.. وصعب!

قول في مقال

عندما بحثنا في ظاهرة النجاح الهائل الذي لقيته سلسلة روايات الأطفال "هاري بوتر" في عدد سابق من القافلة، عبّر العديد من القرّاء عن تمنياتهم لو أننا قرأنا هذه الظاهرة من زاوية إسقاطها على واقع النشر العربي وخاصةً النشر للأطفال.

القافلة حملت السؤال إلى الباحثة المصرية أميرة أبو المجد المسؤولة عن نشر كتب الأطفال في دار الشروق، التي تعرض لنا واقع كتاب الطفل العربي وتقدم عنه صورة أكثر إشراقاً مما يعتقد الكثيرون.

من المفرح والمدهش أن الحديث عن كتب الأطفال في العالم العربي سيضطرنا إلى كسر التقليد العربي السائد هذه الأيام بتمجيد الماضي والحديث عنه بالحسرة والندم على ما ضاع، ونعي الحاضر مقارنة بأمجادنا التي ولّت!! فإن حاضر كتب الأطفال سيخرج عن كل المعتاد والمألوف، ويتضح أنه أكثر إشراقاً ومدعاة إلى التفاؤل الموضوعي الذي يدفعنا، بإذن الله، إلى بذل مزيد من الجهد في ذلك المجال. والواقع أن كثيراً مما يثار عن وضع كتب الأطفال في العالم العربي الحديث يعتبر من نوع الكلام المرسل الذي تنقصه الدقة والموضوعية، والذي يعكس خطورة المنعطف التاريخي الحاد الذي تمر به أمتنا في ظل تطورات عالمية سريعة، وعولمة تبدو لنا مهددة للهوية العربية والتي تعتبر اللغة وبالتالي الكتاب أهم عناصرها على الإطلاق.

ريادة الطهطاوي

بدأ تاريخ نشر كتب الأطفال العربية في شكله الحديث مبكراً أكثر مما يظن الكثيرون. فأول كتاب نشر في مصر عام 1837م. وقد لا يذكر كثيرون أن رائد التنوير الشيخ رفاعة الطهطاوي قدم كتابين للأطفال. أولهما: بعنوان "تعريب الأمثال في تأديب الأطفال"، وهو مترجم قام الطهطاوي بتصحيحه في عام 1845م. وثانيهما في العام نفسه ومن تأليفه بعنوان "القول الأرفع في حكاية الإصبع". وشكل الطهطاوي بذلك نواة لاهتمام المفكرين والأدباء بتوجيه إنتاجهم إلى الأطفال، فجاءت بعد ذلك أشعار محمد الهراوي وغيره في بدايات القرن الماضي.

ومنذ ذلك الوقت وحتى نهاية القرن نفسه بلغ إجمالي عدد كتب الأطفال التي صدرت في أنحاء العالم العربي حوالي خمسة عشر ألف عنوان في جميع موضوعات المعرفة البشرية، وإن كانت النسبة الأعلى من هذه الكتب تندرج تحت موضوع الأدب بما تشتمل عليه من قصص وأشعار ومسرحيات، حيث بلغت 64% من الإجمالي، ثم تليها الكتب الدينية في المرتبة الثانية بنسبة 12%.

وبالتحليل الدقيق لطبيعة الكتب التي صدرت في النصف الأول من القرن الماضي، التي قدمها رواد كتاب الطفل العربي، أمثال كامل الكيلاني ومحمد عطية الإبراشي وغيرهما يلاحظ أن كثيراً منها ترجمات لكنوز الأدب العالمي، حيث وضع هؤلاء الرواد اللبنة الطيبّة لتنشئة القارئ الصغير على تنوع المعرفة والانفتاح على العالم شرقاً وغرباً؛ وإن كان فاتهم في بعض الأحيان ذكر المؤلف الأصلي أو الإشارة إلى الناشر الأصلي! كما يلاحظ إلى جانب عنصر اللغة العربية السليمة المصحوبة بالتشكيل، أن معظم الكتب التي صدرت حتى نهاية الثمانينيات من القرن الماضي ركزت تركيزاً أساسياً على الحث على مكارم الأخلاق وتعليم السلوك القويم وتنمية الحسّ الديني عند الطفل، ولعل أوضح مثال على ذلك عنوان كتاب رفاعة الطهطاوي المذكور "تعريب الأمثال في تأديب الأطفال".

أما بالنسبة إلى مركز نشر كتاب الطفل العربي خلال القرنين الماضيين، فيتضح أن مدينة القاهرة هي موطن ناشري حوالي 78% من إجمالي ما نشر، تليها مدينة بيروت بنسبة 16% من المجموع.

أما الأمر المدهش والمفرح حقاً فهو أن حوالي 50% من إجمالي ما صدر في قرنين كاملين صدر في العقدين الأخيرين منه، أي أنه منذ بداية الثمانينيات الميلادية وحتى عام 2000م صدر حوالي 6800 عنوان جديد في مجال كتب الأطفال العربية.

والأهم من تلك الطفرة في الكمية الهائلة هو تطور الكتاب نفسه تأليفاً ورسماً وإخراجاً وإنتاجاً. فمما لا شك فيه أنه مع تطور الطباعة أصبح من المتاح إنتاج كتب أكثر جمالاً وجاذبية، مما يعطي للكتاب احترامه ويجسّد جماله وجاذبيته بالنسبة للطفل، ذلك الطفل الذي بدأ ينصرف عن الكتاب ليجلس أمام شاشة الفضائيات بتنوعها وإنتاجها المبهر، أو ليجلس أمام شاشة الكمبيوتر ليقضي ساعات وساعات، يغوص من خلالها في أعماق أي فرع من فروع العلوم أو التسلية أو اللعب واللهو، مما يشكل تحدياً أمام القائمين على صناعة كتاب الطفل من مؤلف ورسّام وناشر ثم موزع أو مدرس أو أمين مكتبة.

ويبدو أن الناشرين قبلوا التحدي واستطاعوا الصمود. وخير دليل على ذلك هو ذلك الكم من الجوائز العالمية التي حصدها ناشرو ومؤلفو ورسامو كتب الأطفال في العقدين الماضيين.

ولعل الوصول إلى العالمية ما هو إلا تطور طبيعي للتميز على المستوى المحلي، فمما لا شك فيه أن الجهود المبذولة في سبيل التوعية لأهمية القراءة لعبت دوراً أساسياً في استنهاض الهمم وتشجيع الإبداع والارتقاء بكتاب الطفل، وفتح قنوات من التعاون والتبادل والتعلم بل والتنافس مع كبرى دور النشر العالمية.

وإذا كانت الجوائز المحلية ثم الجوائز الدولية هي المدخل الطبيعي لدخول كتبنا، وبالتالي ثقافتنا وهويتنا ضيفاً مرغوباً به ومطلوباً لدى الآخرين، فإن ذلك يدفعنا إلى التعرف بشكل أعمق على هؤلاء الآخرين الذين سبقونا بالفعل في مجال كتاب الطفل، لعلنا نستفيد من تجاربهم ونزداد فهماً لثقافتهم وأيضاً لثقافتنا.

ناشرونا وناشروهم

وفي هذا الصدد نشير سريعاً إلى بعض الإحصاءات العامة الصادرة عن اتحاد الناشرين الدولي: يبلغ عدد الناشرين في مصر 198 ناشراً، بينما يبلغ في فرنسا 975 ناشراً، وفي ألمانيا 2155 ناشراً، والولايات المتحدة 1475 ناشراً.

المكتبات العامة في مصر لا يزيد عددها على 400 مكتبة، بينما عدد المكتبات العامة في فرنسا هو 9240 مكتبة، وفي ألمانيا 12396 مكتبة، وفي الولايات المتحدة 36240 مكتبة عامة!!

الإصدارات السنوية الجديدة في مصر تبلغ 5700 عنوان، وفي فرنسا 62000 عنوان، وألمانيا 68111 عنوان، وفي الولايات المتحدة 14700 عنوان!!

ولتحليل الأرقام ولمس خطورة الفرق بين مصر وتلك الدول فلنا أن نعرف أن سكان فرنسا أقل من ستين مليون نسمة بقليل، بينما سكان ألمانيا اثنان وثمانون مليون نسمة، وسكان الولايات المتحدة مائتان وسبعون مليون نسمة.

وفي الواقع أن هذه الأرقام ما هي إلا انعكاس للمناخ الاجتماعي والتعليمي والتثقيفي لتلك البلدان. فمثلاً أفاد تقرير اتحاد الناشرين الفرنسيين لعام 2002م أن كتب الأطفال والناشئة التي يصدرها الناشرون تم اعتمادها بشكل رسمي في المناهج المدرسية، حيث يلزم كل طالب أو تلميذ بقراءة 10 كتب خلال العام الدراسي، مما يتيح لدور النشر إقامة علاقة وثيقة مع القرّاء تسمح لها بفرص أكبر للتعريف بكتبها ومؤلفيها، وبقدر أقل من القلق من المسائل التسويقية!!

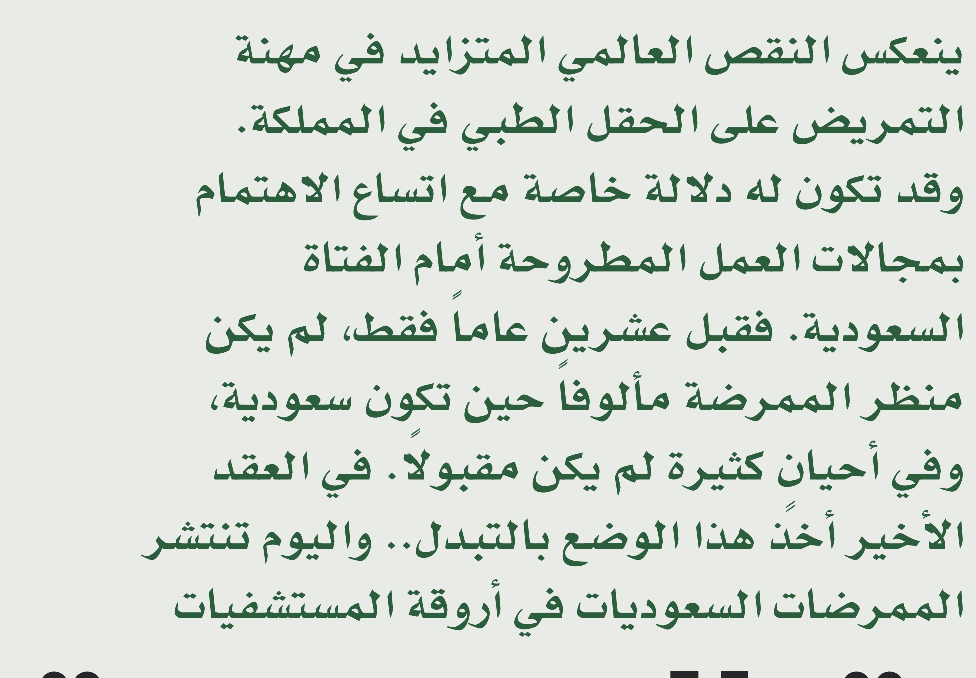
فجوة واضحة

وإلى جانب الفجوة الواضحة بيننا وبين الغرب من حيث الكم، فإن زائر معارض كتاب الطفل الدولية وعلى رأسها معرض بولونيا، ثم معرض فرانكفورت وغيرهما، يجد أن الكتب الأجنبية تهتم أساساً بإقناع الطفل وإبهاره بجمال الكتاب شكلاً وموضوعاً، وبروعة رسومه وإبداع إخراجه وكيفية تقديم كل المعارف والمعلومات بطرق بالغة الفن والجاذبية والسلاسة والتشويق، دون صعوبة أو حذلقة أو إسهاب ممل أو مباشرة فجة. ولعل ظاهرة سلسلة كتب هاري بوتر الشهيرة خير دليل على الفارق بيننا وبين الغرب في ما يتعلق بتشجيع إطلاق خيال الطفل، فمن منّا كان يتصور أن يقبل الملايين من أطفال العالم على قراءة كتب يزيد عدد صفحات بعضها على سبعمائة صفحة غير مصورّة؟

وأخيراً ومع التسليم بأن هاري بوتر ظاهرة غالباً من الصعب أن تتكرر، إلا أننا في العالم العربي نواجه كثيراً من التحديات والمشكلات التي تعد بمثابة عائق قوي لانتشار القراءة والإقبال عليها وإدراك متعتها، ومنها:

1- ضعف مستوى المناهج الدراسية في الكثير من الدول العربية، والذي يستوجب تعديلها بما يعظّم دور الكتاب ويرسّخ عادة القراءة ويتيح وقتاً أكثر للبحث والاطلاع ليكون أساساً للقدرة على التعليم المستمر والتعليم الذاتي، وذلك ببذل جهد أكبر في تحسين مستوى الكتاب المدرسي شكلاً وموضوعاً، علماً بأن الكتاب المدرسي تسبب في ظهور الكتاب المدرسي المساعد وهو ظاهرة مصرية فريدة يكرر فيها جهد المجتمع في إنجاز العمل نفسه عدة مرات، مما يشكل عائقاً أمام القراءة لأن الكتاب المدرسي هو الأكثر انتشاراً والأعمق تأثيراً سلباً وإيجاباً.
2- غياب حركة نقدية موضوعية لكتاب الطفل وأدب الطفل بشكل عام.
3- إصرار الكثير من المؤلفين والقائمين على إعداد الكتب الدراسية على التعلق ببعض المعايير المتخلفة عن الواقع، وتمسكهم بمناهج التعامل مع الطفل نفسها التي كانت متبعة منذ خمسين عاماً دون استيعاب لتطور الطفل، وبالتالي ضرورة تطوير كتابه.
4- قلة المكتبات العامة وضعف ميزانياتها.

وأخيراً، وعلى الرغم من كل هذه التحديات فإن كل من يعمل في مجال كتب الأطفال يدرك أنه عالم رحب جميل بالغ الصعوبة والمتعة معاً، وهو يستوجب أكبر قدر من الإحساس بالمسؤولية والإحاطة المعرفية والإبداع الفني الممتزج بحرية الخيال وروعته، ولذلك فلا بدّ من وقفة ضرورية وشجاعة مع النفس لنواجه أنفسنا بالحقائق، ونضع أمامنا السلبيات دون أن نغفل الإنجازات ولا الإيجابيات، ولكن لا نغلبها - كما اعتدنا في كثير من المناسبات - مقتنعين أنفسنا بالوهم أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.



ينعكس النقص العالمي المتزايد في مهنة التمريض على الحقل الطبي في المملكة. وقد تكون له دلالة خاصة مع اتساع الاهتمام بمجالات العمل المطروحة أمام الفتاة السعودية. فقبل عشرين عاماً فقط، لم يكن منظر الممرضة مألوفاً حين تكون سعودية، وفي أحيان كثيرة لم يكن مقبولاً. في العقد الأخير أخذ هذا الوضع بالتبدل.. واليوم تنتشر الممرضات السعوديات في أروقة المستشفيات

نقص عالمي وطلب محلي متزايد

تحديات الممرضة السعودية!

وغرف العمليات بشكل واسع. ويعزز حجم هذا الانتشار عوامل ثلاثة: ازدياد الطلب على ممرضات كفؤات، وتأسيس كليات تمريض جديدة، ووجود عدد أكبر من الفتيات السعوديات اللواتي يبحثن عن فرص عمل.

حبيب محمود، من فريق القافلة، اقترب إلى عالم الممرضة السعودية، محاولاً التعرف إليه عن كثب، ورصد بعضاً من التحديات التي تواجهها في هذه المهنة العربية الأصيلة.

يواجه العالم بأسره اليوم نقصاً متزايداً في مهنة التمريض، تختلف أسبابه من بلد إلى آخر. فإلى جانب ازدياد الاهتمام بالعناية الصحية في مختلف أنحاء العالم المتقدم، فقدت هذه المهنة جاذبية الانتساب إليها في الغرب بسبب ازدياد فرص العمل أمام النساء في كافة الحقول. الأمر الذي دفع البلدان الغربية إلى سد هذا النقص باستقدام الممرضات الماهرات من بعض الدول النامية مثل الهند والفلبين.

وفي المملكة، وعلى الرغم من الخطوات الكبيرة التي تم إنجازها في سبيل الاعتماد على الممرضة السعودية، لا يزال النقص حاداً بسبب تزايد عدد المستشفيات الخاصة والحكومية، وارتفاع مستوى الكفاءة المطلوبة الملازم لارتفاع مستوى العناية الصحية الذي يصل في بعض المستشفيات إلى أعلى مما هو عليه في العالم. وكما الحال في الغرب، يواجه هذا النقص عندنا باستقدام الممرضات الأجنبيات، في حين أن التفكير بفرص عمل للخريجات السعوديات يدفعنا فوراً إلى الالتفات صوب مهنة التمريض التي تبدو من أبرز المجالات المرشحة لاستقطابهن، لما لهذه المهنة من جوانب حضارية وإنسانية، ولما تتطلبه من جملة مزايا يمكن توافرها في الممرضة السعودية دون غيرها. يعزز ذلك النجاح الذي حققته السعوديات اللواتي خضن غمار هذه التجربة الفتية في بلادنا.

مهنة ذات جوانب إنسانية وحضارية تتطلب كفاءات عالية وأبوابها مشرعة أمام السعوديات

فهناك مفهوم مختلف لعمل التمريض الذي تنخرط فيه السعوديات. وحين نقول "مفهوماً مختلفاً"؛ فإننا لا نعني - بالتأكيد - ذلك اللباس الذي يؤدي دور العباءة والحجاب السعودي، ويكاد لا يختلف عنهما



إلا باللون تقريباً.. وإنما نعني تجربة مهنية أكدت السعوديات أنهن على قدر كبير من القدرة على العمل فيها ومراعاة خصوصية المجتمع في الوقت نفسه.

السعوديات نجحنَ في صناعة مفهوم لهذه المهنة الدقيقة النبيلة. ومن خلال وعيهنّ الديني والاجتماعي تخطين الصعوبات الحساسة، وشكّلن قوة عمل وطنية قادرة على القيام بدورها على



الوجه الذي لا يمس ثوابت المجتمع، ومارسن خصوصية حقيقية للممرضة السعودية وعملها وعلاقاتها المهنية بالمرضى، وبفريق العمل الطبي.

كانت العشرون عاماً الماضية بالذات، حاسمة في تجاوز الكثير من الحساسيات التي تلبّست نظرة المجتمع إلى العاملات في هذه المهنة، وعلى نحوٍ تؤكده أبسط المشاهدات اليومية في المستشفيات والمراكز الصحية. وما حدث، في حقيقة الأمر، هو أن المجتمع لم يغيّر شيئاً من ثوابته وأعرافه بقدر ما زحزحت الممرضة السعودية نظرة المجتمع إليها من موقع الرفض إلى موقع الاقتناع، وجعلت من مهنتها مصدر احترام. ومن الطبيعي ألا يتحقق ذلك بين عشية وضحىً، بل عبر مجموعة تطورات وتغيرات شهدها المجتمع السعودي في مراحل التنمية؛ فارتقى الوعي الاجتماعي بالتعليم، ورافقت الزيادات السكانية حاجات جديدة إلى الخدمات الصحية. وعرفت الممرضة السعودية، في تسارع هذه التغيرات، أنها الأكثر وعياً لمجتمعها وعاداته وتقاليده، وأنها الأقدر على التعامل مع المرضى وفهم احتياجاتهم.

التشريعات واحترام الخصوصية

وقد يكون اللباس أحد السمات البارزة في شخصية الممرضة السعودية، وهو لباسٌ يختلف كثيراً عن لباس أية ممرضة أخرى؛ فهو يراعي أساسيات الحجاب الشرعي حفاظاً على خصوصية المرأة المسلمة. غير أن اللباس ليس كل شيء في هذا الموضوع الحساس. فـ "بين فترة وفترة تحرص الجهات العليا في وزارة الصحة على تأكيد الكثير من الأمور المتعلقة بعمل الطبيبات والممرضات، بدءاً من اللباس الشرعي وانتهاء بالإجراءات الطبية التي تشترك فيها النساء". هذا ما تقوله الممرضة آسيا سعيد التي تحدثت بوضوح عن وجود تنظيمات إدارية كثيرة لعمل الممرضات. ومن خبرتها في أحد أقسام الطوارئ تقول: "هناك الكثير من التفاصيل في مثل هذه الإجراءات التي تؤكد العمل على ضوء المحاذير الشرعية، وتضمن وجود الممرضة، بل حتى الطبيبة، في منأى عن أي إشكال".

السعوديات نجحن في تخطي الصعوبات وشكلن قوة عمل محافظة على ثوابت المجتمع وقيمه

أربعة عقود من الخبرة

ترتكز خبرة السعوديات في التمريض إلى أكثر من أربعين عاماً مضت؛ حين أنشأت وزارة الصحة أول مدرستين للتمريض في الرياض وجدة عام 1381هـ. فكانت هاتان المدرستان نواة لتأهيل الكوادر السعودية النسائية للعمل في هذا الحقل الذي يمثل عصب النشاط الطبي في أية مؤسسة صحية. ولم يطل عام 1412هـ حتى اقترب عدد المعاهد الصحية من خمسين. وفي عام 1413هـ بدأ تطبيق نظام التمريض الجامعي المتوسط بافتتاح ثلاث كليات للعلوم الصحية المتوسطة للبنين بالرياض وأبها والدمام، إلى جانب ثلاث كليات للبنات بالرياض وجدة وعنيزة. وفي نهاية عام 1415هـ بلغ عدد كليات العلوم الصحية المتوسطة ثلاث عشرة كلية، منها سبع كليات للبنين وست كليات للبنات، وفي عام 1412هـ تخرج منها 32,180 من الفنيين الطبيين من الجنسين، وتدخل الوظائف التمريضية ضمن هذه الإحصائية. وفي أواخر العام الماضي 1424هـ، شهدت المملكة تأسيس أول كلية تمريض متخصصة.

وحسب إحصائية مصدرها وزارة الاقتصاد والتخطيط بلغ عدد الوظائف التمريضية المشغولة في المملكة 66,984 من الجنسين عام 1420هـ، منها 37,126 وظيفة في وزارة الصحة، و 17,212 في جهات حكومية أخرى، في حين هناك 12,610 وظائف في القطاع الخاص. وحسب الإحصائية نفسها فإن هناك ممرضة واحدة لكل 296 مواطناً، وهو معدل في حاجة إلى أن ينخفض إلى 250 مواطناً استناداً إلى المعايير الملائمة.

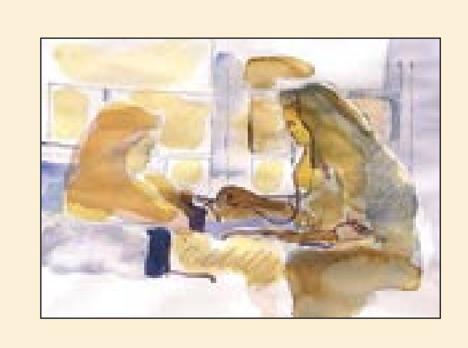
تحديات في طريق الآمال

وفي واقع الحال، فإن التمريض السعودي، النسائي على وجه الخصوص، يواجه تحديات جادة تحسب لها مؤسسات الدولة لها حساباتها حتى على مستوى المنظور. ومع الالتفات إلى العديد من المؤشرات، فإن الممرضة السعودية لا تزال ضمن هامش ضئيل من قوة العمل في هذا الحقل. ولا يتجاوز هذا الهامش نسبة 18٪ من بين العاملين والعاملات غير السعوديين، وينضمّ الممرضون السعوديون، أيضاً، إلى هذا الهامش. وتُعتبر هذه النسبة كبيرة في القطاع الصحي الحكومي قياساً بتلك الموجودة في القطاع الخاص، حيث لا تتجاوز نسبة سعودة الوظائف التمريضية فيها 1٪ فقط. وتصل نسبة التمريض السعودي في مستشفيات وزارة الصحة 27٪، و 15٪ في المستشفيات الحكومية الأخرى.





منيرة العصيمي.. النصيحة عن خبرة



الأستاذة منيرة العصيمي.. من ألمع الأسماء وأكثرها عطاءً لعالم التمريض في المملكة. فقد حازت على شهادة بكالوريوس في علوم التمريض ودبلوم تربوي من جامعة الملك عبدالعزيز، وماجستير في إدارة التمريض من جامعة الملك سعود، وتدرجت في عدد من الوظائف بدءاً من ممرضة قسم في عدد من المستشفيات وصولاً إلى منصب مدير عام التمريض بوزارة الصحة في المملكة. ولها من المشاركات في الندوات والأبحاث ما يصعب تعداده إلى جانب أنها عضوة شرف في منظمة الصحة العالمية لمنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى عضويتها في عدد من اللجان والجمعيات بمناطق المملكة. وقد أعدت عدداً من الأبحاث منها: رعاية الأمومة ونوعية الإرضاع للأطفال المترددين على مراكز الرعاية الصحية الأولية، تأثير العادات الغذائية في الحالة الصحية بمجتمع قويزة، أساسيات الاتصالات الناجحة لنجاح علاقات الاتصال بين المشرفين والموظفين وغيرها.

وقد حصلت منيرة العصيمي على دروع تذكارية وجوائز أحدها درع الموظفة المثالية بوزارة الصحة بالمنطقة الغربية لسنتين متتاليتين 1985/1986م وجائزة رفيدة الأسلمية – ممرضة الإسلام الأولى والتي منحتها وزارة الصحة لأول مرة بالمملكة العربية السعودية عام 1994م.

كما أن لها العديد من المؤلفات، حتى أنه يستحيل على الباحث في علم التمريض أن يتناول تاريخه وواقعه الحالي في المملكة من دون العودة إلى عطاءاتها ومؤلفاتها، وهي:

1 – "التمريض في المملكة العربية السعودية"، (1415هـ)، بالعربية والإنجليزية.
2 – "مختارات من التاريخ التمريضي الإسلامي"، (1417هـ) بالعربية والإنجليزية.
3 – "مسيرة التمريض السعودي وأوائل الخريجين والخريجات" (1421هـ).

وتقول الأستاذة العصيمي في حديثها الموجه إلى الفتاة السعودية: لكل فتاة أقول: أنتِ ثروة هذا الوطن.. المستقبل.. الآمال.. الطموحات. وهبكِ الوطن خيراته ومنحكِ العلم واهتمت الدولة بكِ.. إلى أن كبرتِ وحصلتِ على العلوم والمعارف بشتى مجالاتها.. والآن دوركِ الأساسي هو رعاية أطفالكِ وتربيتهم التربية الصالحة وإعدادهم لأجيال واعدة. كما حان الوقت لتردي للوطن عطاءه وأن تقدمي لبنات جلدتكِ كل ما بوسعكِ، فهن بحاجة ماسة إلى علمكِ وعطائكِ في القطاع الصحي لأن التمريض ما هو إلا عطاء. فأعطي وطنكِ كما أعطاك ولا تنتظري من مهنتكِ التمريضية العطاء المادي قبل العطاء المعنوي المهم، وهو الدعاء لكِ من كل مريض تقومين بتمريضه! فأنتِ تتقاضين أجراً وعطاءً يومياً، بل كل لحظة وليس كل شهر.

وعن الممرضة السعودية تقول: "أحثهن على الإخلاص في العمل ومراقبة الله عز وجلّ، في عطائهن التمريضي. لأن الله هو الرقيب الأول عليهن قبل أية جهة أو مراقب أو مراقبة، وأطلب منهن أن يكنّ حريصات على تطوير أنفسهن. فالعلوم الطبية والتمريضية بكل تقنياتها المتطورة أصبحت سهلة ميسرة لكل طالب علم، وعليهن الرقي في التمريض لأن مجال عملهن لتقديم خدماتهن الإنسانية هو.. المريض.. وهو يحتاج إلى كل ما هو جديد في مجال التمريض".

وعن الطالبات بالكلية الصحية: "أشجع الطالبات بالكليات والجامعات على أن يكنّ دعماً ومساندة للمستقبل في الرقي بالعملية التمريضية، وعلى عاتقهن يقع تطوير التمريض خلال السنوات القادمة".

وهذا ما حدا ببعض العاملين في هذا الحقل إلى المناداة بأخذ الموضوع على محمل أكثر جدية، خاصة أن "هناك عجزاً في عدد الممرضات بالمملكة بلغ 90 ألف ممرضة"، طبقاً لما صرّحت به المشرفة على الشؤون التمريضية بمستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث ليندا لونا، قبل مدة في ندوة حول التمريض عُقدت بمدينة جدة.

رغم تحول نظرة المجتمع من الرفض إلى الاقتناع فنسبة التمريض السعودي لم تتجاوز 18٪ فقط

التمريض.. مريض بالتسرب..!!

إنها مشكلة عالمية، تعانيها المستشفيات والمؤسسات الطبية على نحو واضح في كل مكان: التمريض مريضٌ بـ "التسرُّب"..! ولا فرق بين مستشفى متهالك في دولة من العالم الثالث ومؤسسة طبية عريقة في دولة صناعية كبرى..! غير أن وجوده عندنا – على ما يعانيه التمريض من قلة الكوادر الوطنية – يزيد الأمر سوءاً، خاصة وأن 50٪ من خريجات التمريض يتسربن سنوياً طبقاً لنائبة مدير التمريض بمستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث الدكتورة صباح أبو زنادة.

الممرضات يتسرّبن من المهنة، إما سعياً إلى موقع أفضل، أو عودة إلى المنزل. ولهذا السبب وذاك استشرت الظاهرة عالمياً ولا تزال مصدراً لقلق القائمين على السياسات الطبية. والمشكلة – في بعدها المحلّي السعودي – تقع في صدارة التحديات التي يواجهها التمريض..! والتسرب لا يعني بالضرورة الاستقالة من الوظيفة، بل يعني أحياناً انتقال الممرضة من التمريض إلى أعمال إدارية في الموقع الذي تعمل فيه.



وتعمل استشارية الرضاعة الطبيعية بمستشفى أرامكو السعودية بالظهران مريم أحمد المعلّم على دراسة تحديات التمريض السعودي من خلال أطروحة ماجستير لا تزال بصددها. وتحاول الأطروحة الإجابة عن أسئلة مهمة من واقع مهنة التمريض. فهناك مدى ما من الخطورة في مشكلة النقص في كوادر التمريض، وهناك تغيّرات وتطورات تستجدّ يوماً بعد يوم في المشكلة. وهو أمر يتطلب البحث عن استراتيجية جادة قائمة على التخطيط المستقبلي الذي يضمن تطوير برامج التوظيف، وتطوير الموارد البشرية وتنميتها كماً ونوعاً، والعمل على جعل المهنة عنصر جذبٍ يحول دون استمرار مشكلة التسرب أو التخفيف من حدتها.

من التحديات: كثرة ساعات العمل والمكافآت المادية والمعنوية التي لا تزال دون مستوى ما تستحقه الممرضة فعلاً

وتؤكد الباحثة المعلّم أن مشكلة التسرّب في حاجة إلى مواجهة استراتيجية بحيث تضمن فيه المؤسسات الطبية حداً معقولاً من الكوادر تتوزع اختصاصاته ومهامه على حقول مختلفة في التخصصات التي تحتاجها الخدمات الصحية في البلاد. وهو ما يتطلّب العمل على نحو يأخذ في اعتباره مستقبل المهنة، ومستقبل الخدمات الصحية، وتزايد عدد السكان؛ فضلاً عن التوطين الذي يجب أن يتزامن مع الاستفادة من القوى البشرية الأجنبية التي تؤمن، حالياً، نحو 80٪ من الوظائف التمريضية في المملكة.

والباحثة المعلّم تركز، بجدية أكثر، على ما يمكن أن تصنعه السياسات الإدارية لهذه المهنة، عبر وعي أبعادها العالمية، وتفاقمها على مستويات متعددة تؤثر سلباً في مجالات متعددة.

التمريض المتخصص

قلة الكوادر الوطنية والتسرب مشكلتان ترافقهما مشكلة لا تقل أهمية. هذه المشكلة هي حاجة المستشفيات في المملكة إلى الممرضة السعودية المتخصصة. وهذا ما نادت به ندوة التمريض السعودي في الألفية الثالثة التي استضافتها مدينة الملك عبد العزيز الطبية بجدة، قبل عامين. إذ يندر التخصص في صفوف الممرضات، وأكثرهنّ يُوجّهن بعد التخرج إلى العمل حسب احتياج الأقسام في المستشفيات أو المراكز الصحية من دون أخذ التخصص بعين الاعتبار، في حين هناك تخصصات تمريضية ملحّة، من بينها العناية بالأطفال الخُدَّج والعمل في غرفة العمليات وفي قسم التوليد وقسم غسيل الكلى، والغسيل البريتوني، وغيرها من التخصصات النادرة التي تتطلب تخصصاً بالمعنى المهني الدقيق.

فضلاً عن ذلك تتكرر الدعوات إلى توجيه الاهتمام بالكوادر التمريضية العاملة. ومن بين هذه الدعوات ما أشار إليه نائب المدير العام التنفيذي للشؤون الصحية في الحرس الوطني الدكتور عبدالله ابن عبدالعزيز الربيعة قبل فترة عبر بعض وسائل الإعلام المحلية، فقد أكد ضرورة "إعادة تأهيل الكوادر الوطنية الموجودة حالياً". وقال في استعراض حلول أولية لبعض مشاكل التمريض. إن "نسبة من الممرضات يعملن في مناصب إدارية أو في التمريض ولكن كمساعدات تمريض من دون تمتعهنّ بالكفاءة والتأهيل المناسب".

ومن اللافت للنظر أن الممرضة تنخرط في مهنتها بعد تخرجها واستقرارها في قسم من مستشفى أو مركز صحي، وغالباً ما ترافق الأعمال الإدارية مهامّ وظيفتها، ويعتمد تقدمها المهني على الممارسة المتكررة في العيادة التي تعمل فيها أو القسم، من دون أن تطّلع على مستجدات المهنة على نحو يكفل تطور قدراتها النظرية تطوراً فاعلاً. وللحقيقة إن هناك فعاليات كثيرة تنظمها المؤسسات الصحية، في وزارة الصحة وغيرها، كالندوات، واللقاءات العلمية، والدورات، والمحاضرات. بيد أن بعضاً من هذه الفعاليات تُنفذ مقابل رسوم مالية تدفعها الممرضة من جيبها الخاص؛ الأمر الذي قد يؤثر في وضعها المادي، ويقلل من الحماس المهني والعلمي، فضلاً عن أن تطوير الكوادر يتأتى - بطبيعته - من حرص المؤسسة الصحية نفسها على الرقيّ بخدماتها ورفع مستوى الجودة النوعية لديها؛ وهذا ما يعني مبادرتها إلى تحمّل المسؤوليات المالية المترتبة على تطوير العاملين فيها، بدلاً من تحمّلهم عبئاً مادياً فوق أعبائهم.

بعد المجتمع: الجهد والعائد

المجتمع، بدوره، لا يزال في مرحلة غير كافية من الوعي لدور التمريض في المجال الصحي، وبرامج التوعية المعنية بتطوير الوعي لا تزال قليلة، وهناك نظرة خاطئة إلى مهنة التمريض لا تختلف كثيراً عن النظرة إلى الخادمة. والأغرب هو وجود اعتقاد بقلة فرص الزواج أمام الممرضات قياساً بغيرهن، على الرغم من تأكيد الواقع غير ذلك. ولكن لا يمكن إنكار أن هناك تحدّياً في طبيعة عمل التمريض، فالممرضة تتحمل أعباءً أكثر مما تتحمله العاملات في وظائف أخرى، هناك ساعات العمل الطويلة، والمناوبات المتقلبة، والحرمان من الإجازة الأسبوعية التي تتمتع بها سائر الموظفات.. وهناك موقع المهنة من السلم الوظيفي غير المشجع، وهناك السلم الوظيفي الذي لا يسمح بالانتقال من مرحلة الى أخرى.

آن الأوان لأن تحصل على ما يوازي جهدها، ويعادل تفانيها في خدمة هذه المهنة

وبمقارنة هذا الواقع والمتطلبات المهنية بالعائد المادي للمهنة؛ تتكشف تحديات جادة، فراتب الممرضة هو الأقل بين المهن الأخرى، ناهيك عن عدم توافق بدلات العمل ومتطلباته. فالممرضة تعمل 48 ساعة في الأسبوع بزيادة 30٪ عن ساعات العمل في المهن الأخرى. أما العائد المادي المقابل لزيادة ساعات العمل فلا يتجاوز 20٪.

إن ما أنجزته المرأة السعودية في حقل التمريض ليس عملاً عادياً. إنها منذ أربعة عقود تكافح في خدمة وطنها عبر مهنة استثنائية بكل المعايير. لقد اخترقت منطقة حساسة وفرضت احترامها ووصلت إلى ما وصلت إليه بفضل إخلاصها الدؤوب، ونشاطها المستمر، وتفانيها في أداء واجبها المهني.. ولا تزال التحديات تحيط بها، وآن الأوان لأن تحصل على ما يوازي جهدها، ويعادل تفانيها في خدمة هذه المهنة التي كانت نساء الإسلام الأوائل رائدات فيها.

صور الموضوع: أرشيف القافلة وعبدالله الدبيس

أية ممرضة أنتِ..؟



أدى تطور علم التمريض الحديث إلى ظهور فئات عديدة من الممرضات، أطلقت عليها أسماء مختلفة تعكس نوع التعليم الذي تلقته والتدريب ومدته. وقد تختلف مستويات وفئات الممرضات من بلد إلى آخر وفقاً لاختلاف الأنظمة الصحية والإمكانات المتاحة. أما التقسيمات العالمية لفئات العاملات في التمريض فهي:

1 - ممرضة مساعدة: يختلف إعدادها من بلد إلى آخر، من خلال دورة تدريبية تتراوح ما بين ثلاثة أشهر وسنة، وقد يشترط فيها الحصول على تعليم عام لا يقل عن ست سنوات. وتُكلّف هذه الممرضة بأعمال مساعدة ومحدودة تحت إشراف الفئات الأعلى.

2 - ممرضة فنية: وهي الحاصلة على تعليم تمريضي لمدة تتراوح ما بين سنة وثلاث سنوات بعد شهادة الكفاءة. كما تشمل هذه الفئة خريجات المعاهد الصحية اللواتي يتابعن الدراسة لمدة ثلاث سنوات. وتقوم الممرضة الفنية بالأعمال التمريضية المباشرة تحت إشراف الممرضات المؤهلات.

3 - الممرضة المؤهلة: وهي الحاصلة على تعليم تمريضي لمدة لا تقل عن عامين بعد شهادة الثانوية العامة. كما تشمل هذه الفئة خريجات أقسام التمريض بكليات العلوم الطبية التطبيقية بالمملكة. وتقوم الممرضة المؤهلة بالأعمال التمريضية الدقيقة والتخصصية ذات المسؤولية التي تحتاج إلى اتخاذ قرار، كما تشرف على الممرضات من الرتب الأدنى.

ومع تطور هذا العلم، انفتحت آفاقه حتى أعلى المستويات، وبات بإمكان الممرضة متابعة التحصيل الجامعي والتخصصي وصولاً إلى شهادة دكتوراة علوم في التمريض.

للتمريض جذور في تراث الجزيرة العربية والفتوحات الإسلامية.. وعصر النهضة أعاد لهذه المهنة طابعها النبيل

التمريض.. المفترى عليه



أكثر من ربع قرن من السهر على أسرة المرضى والدراسة الأكاديمية المتوجة بشهادة دكتوراة علوم في التمريض.. حتى أصبحت بكفاحها الطويل من أبرز أعلام التمريض السعودي، إنها الدكتورة إلهام عبدالله النقشبندي، التي تشغل حالياً منصب وكيلة كلية الطب للعلوم الطبية المساعدة في قسم التمريض الأكاديمي، والتي خصّت القافلة بكلمتها هذه حول تاريخ هذه المهنة.

مهنة موغلة في القدم. اسمها مشتق من ملازمة المريض والحنو عليه في مرضه. والمرض هو كل ما وعك النفس أو الجسم، حتى ولو كان ذلك بعض التغيرات المصاحبة للنمو والتطور الطبيعي والفيزيولوجي.

اشتغلت في هذه المهنة الكثيرات من العربيات قبل الإسلام وبرعن فيه وخاصة في فن القبالة. وفي ما يخص التضميد وتجبير الكسور فقد كانت حرب البسوس التي استمرت زهاء مائة عام خير شاهد على براعتهن في العناية بالجروح والكسور المعقدة. ولم لا وقد مضت أجيال من الشباب يحارب بعضهم البعض حتى أصبحت هذه الأدوار أساسية تلقنها الأم لفتياتها كما تلقن الشعر والأدب والفصاحة، فالتمريض علم وأدب وفن.

وفي صدر الإسلام امتهنت الأنصاريات هذه المهنة، وتبعن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غزواته، ونصبن الخيام لرعاية المصابين من الجنود والأسرى. "فالدين المعاملة" وهذه المهنة لا تعرف فرقاً عند تقديم العلاج بين الجندي والأسير. وأطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على هؤلاء السيدات لقب "الآسيات" فهن مجاهدات معه مثل المحاربين، ولهن مثل أجر المجاهدين.

ومن هنا يستشف القارئ صلة التمريض بالحروب والغزوات وهو ما يسمى "بالتمريض العسكري" وهذا ما كان معروفاً ومتعارفاً عليه على مدى العصور. ونظراً لصعوبة متابعة النساء الممرضات للحروب والغزوات البعيدة، فقد انتقلت المهنة إلى الجنود المحاربين. فمنهم محاربون في النهار وممرضون في الليل، يسهرون على راحة المصابين ويتناوبون في السهر والحراسة، حيث أكدت لنا المصادر التاريخية في التمريض العسكري براعة العرب المسلمين في التجهيز للمطهرات والأدوات الجراحية، ووضعت الموسوعات في هذا الفن أكثر ما وضعت، عندما فتح محمد الفاتح أرض الهند والسند واستعملت تركيزات متفاوتة من الأحماض المختلفة لتشبيع الضمادات وتجفيفها حتى تستخدم جاهزة بمطهرها الحمضي لتوضع على الجروح وتلتئم القروح.

اختفت صورة الممرضة المرأة وإن لم تختفِ صورة القابلة في المجتمعات. وظهرت صورة الممرِّض الجندي المجاهد. واستمرت على هذا المنوال حتى انتهت عصور الفتوحات والغزوات. وكما هو حال أي دور مزدوج فهناك جانب يطغى على الآخر. فالجنديّ.. الممرض.. المجاهد أصبح جندياً متقاعداً امتهن التمريض في فتراته العصيبة وجاهد في سبيل الله والدين وهو الآن محارب قديم أو مجاهد شهيد، ولكن ليس ممرضاً امتهن هذا الدور مهنة، درس لها وامتهن بها وأصبحت هي قضيته الأولى والأخيرة.

هذه النقلة التاريخية تفسر لنا اختفاء دور التمريض العسكري المتمركز في التمريض الذكوري، ورجعت مهنة التمريض مهنة أنثوية بحتة أضفى عليها الأدب العالمي في العصور المظلمة صورة تلك الممرضة الهزيلة والمكبلة بالهموم التي تقوم برعاية دار الأيتام والعجزة، وهي معتلة المزاج، ضعيفة الحيلة والموارد. ولكن ها هي عصور النهضة تأتي لتبدد الظلام وتأخذ هذه المهنة طابعها النبيل ولكن بصورة مهنة نسائية تناسب طبيعتها، طبيعة المرأة بعطفها وحنانها وشجاعتها وثباتها حيث تستدعي المواقف. وأصبحت في العالم الغربي مهنة شائعة الانتشار بل تقليدية في مضمونها.

ويقلب التاريخ صفحة من صفحاته، وها هي طبول الحروب العالمية الأولى وهي مجموعة حروب في حرب واحدة تدور رحاها في أنحاء العالم المختلفة. الآلاف المؤلفة من القتلى والجرحى والمعاقين وها هو فن التمريض الحربي يتجدد ويظهر ما دثره التاريخ تحت معطفه منذ الحروب الصليبية. وتبدأ ولادة ما يسمى بالتمريض العسكري الحديث والذي أثار وطنية الشعوب، فخرجت السيدات الأوربيات بقيادة ملكة انجلترا الملكة الأم، وشاركن في ترتيب حملات التدريس والتدريب للمتطوعات في الجيش. واختارت نبيلات المجتمع الانجليزي للإنضمام إلى هذه الحملات ليرفعن من انتصارات الجيش الإنجليزي في ساحات المعركة. أما في الأمريكيتين فقد ظهرت صور الممرضات المحاربات في الجيش الأمريكي، لتشجع الأمريكيات الشابات على الالتحاق بهذه المهنة في السلم والحرب. ودخلت الممرضة في نظام التدريب والتوظيف العسكري، وأصبح لها لقب عسكري بجانب لقبها المهني. وأصدرت معظم دول العالم طوابع بريدية تاريخية كرمت فيها الممرضات ومساهماتهن في تضميد جراح الحرب والتخفيف من أهوالها. واستمر عطاء مهنة التمريض وازدهر التعليم فيها وأغلقت المدارس الصغيرة التي كانت تتبع دور العبادة والمستشفيات، وأصبحت معاهد وكليات فيما بعد وافتتح أول معهد تمريض.

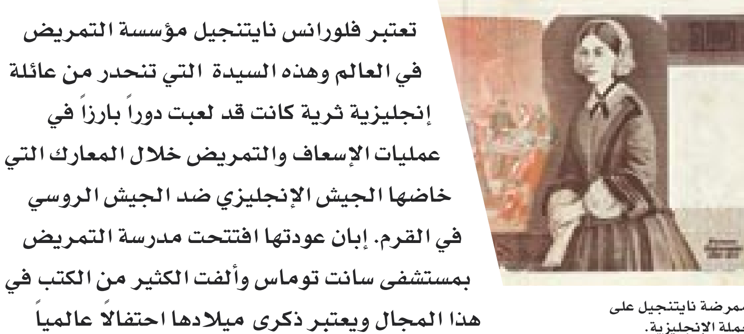
وما زلت أذكر ممرضة أمريكية فاضلة التقيت بها وأنا طالبة في مركز أرامكو الطبي حين علقت على وجود أوائل الخريجات من الممرضات الجامعيات قائلة: إنه من الجميل أن نرى فتيات القرن العشرين ينظرن إلى هذه المهنة كمهنة جديدة وليست تقليدية كما هو الحال لدينا، فعندما كنت في عمركن لم يكن للفتاة الأمريكية مهنة غير مهنة التدريس ومهنة التمريض، وكنت أعتقد أنه من الأفضل أن أختار مهنة التمريض حتى أستطيع الرقي إلى أعلى وظائف المستشفى.

الهند.. لسد النقص

النقص في عالم التمريض ليس مسألة محلية فقط، بل مشكلة عالمية. ففي بريطانيا، تقول مصادر "الكلية الملكية للتمريض" أن نقص الممرضات سيبلغ في العام الجاري 110,000 ممرضة، وفي أمريكا، وفي ولاية تكساس فقط يبلغ النقص حالياً نحو 40,000، في حين تشير "مجلة التمريض" إلى أن هذا النقص سيبلغ على مستوى البلاد كلها نحو 808,000 ممرضة بحلول العام 2020م. ولأن مصائب قوم عند قوم فوائد، تحرك الواعون إلى حجم هذه المشكلة في الهند، حيث يبلغ عدد الممرضات المؤهلات نحو 600,000 ممرضة، وبدأ تأسيس المكاتب والمعاهد الهادفة إلى تصدير جزء من هذه القوة العاملة.

فقد نشرت صحيفة "فايننشال تايمز" تقريراً حول هذا الشأن جاء فيه أن بريطانيا استقدمت في العام الماضي 1,833 ممرضة هندية، وحتى شهر يونيه، كان عدد الممرضات الهنديات اللواتي هاجرن للعمل في أمريكا قد وصل إلى 670. الأمر الذي دفع برجال الأعمال إلى تنظيم عمليات التأهيل والتدريب محلياً، وإقامة المعاهد الخاصة لهذه الغاية. من هذه المؤسسات هناك واحدة في بنغالور تحمل اسم "ممرضات في أي وقت". يقارن مديرها التنفيذي شيخ شاه هذا الميدان الجديد بما شهدته صناعة الإلكترونيات في أمريكا من تدفق آلاف المهندسين والفنيين الهنود لسد النقص منذ بداية فورة الإنترنت.

وتتعامل المؤسسات المستحدثة في الهند مع هذا الشأن في شكل بالغ الجدية. فعلى المتقدمة إلى المؤسسة المذكورة مثلاً أن تكون حاملة شهادة معترف بها، وتتقن الإنجليزية، وذات خبرة لا تقل عن ثلاث سنوات. بعد ذلك تبدأ مرحلة التأهيل (في الهند) والتي تستغرق نحو ثمانية عشر شهراً، وتشمل الإعداد للارتقاء بالأداء إلى المستوى المطلوب أمريكياً، و"أمركة" اللهجة الإنجليزية لتخليصها من ملامحها الهندية - البريطانية.. وصولاً إلى التدريب على استخدام بطاقات الائتمان. أما الممرضات الهنديات فتبدو عليهن حماسة عامة للهجرة إلى أمريكا، وتختصر مبرراتهن في نقطتين: الراتب الذي يبلغ في أمريكا نحو 100 ضعف ما تتقاضاه الممرضة في بلادها، والثانية مناخ العمل وفرص التقدم المهني.



المرضة نايتنجيل على العملة الإنجليزية.

تعتبر فلورانس نايتنجيل مؤسسة التمريض في العالم وهذه السيدة التي تنحدر من عائلة إنجليزية ثرية كانت قد لعبت دوراً بارزاً في عمليات الإسعاف والتمريض خلال المعارك التي خاضها الجيش الإنجليزي ضد الجيش الروسي في القرم. إبان عودتها افتتحت مدرسة التمريض بمستشفى سانت توماس وألفت الكثير من الكتب في هذا المجال ويعتبر ذكرى ميلادها احتفالاً عالمياً للتمريض في جميع أنحاء العالم.



سباق بين زراعتين: الطبيعية والمعدلة وراثياً

في كل يوم تخرج من المختبرات أنباء جديدة عن إنجازات غير مسبوقة في تعديل النباتات وراثياً. ذُرة مقاومة للآفات، حبوب خالية من مسببات الحساسية، سنابل قمح تحمل حبوباً أكثر.. وحتى الطماطم التي تحتوي على لقاحات ضد الأمراض الجرثومية التي تصيب البشر. ومع ذلك، ومن تحت تربة هذا التطور العلمي والتكنولوجي، عادت الزراعة الطبيعية المبتعدة عن كل مؤثر كيميائي أو تغير وراثي لتنمو وتزاحم الزراعة الإنتاجية. الزميل ماجد نعمة يروي لنا قصة السباق بين هاتين الزراعتين.

في مطلع القرن العشرين، كان السؤال المطروح بإلحاح أمام علماء السكان والتخطيط والاقتصاد: هل ستكون الموارد الطبيعية قادرة على اللحاق بالتزايد السكاني المطرد في العالم نتيجة تقدم الطب والعلوم وارتفاع المستوى العام للمعيشة؟ ولم تكن هذه التساؤلات جديدة، بل كانت صدى لكتابات الفيلسوف الإنجليزي توماس روبرت مالتوس الذي كان قد تنبأ منذ عام 1798م بأن بريطانيا مهددة بنضوب مواردها الطبيعية ومقبلة على أزمات اقتصادية ومجاعات وأوبئة ما لم يتم تحديد النسل بسرعة.. كان عدد سكان بريطانيا آنذاك لا يتجاوز الثمانية ملايين نسمة، وهو اليوم يتجاوز الستين مليونا.. وبدلاً من أن تتحقق توقعات مالتوس التي كانت تنذر البشرية بالويلات وبعظائم الأمور، فقد صارت بريطانيا تنعم بوفرة لم يسبق لها مثيل..

> **نتائج التعديل الوراثي تبدو ظاهرياً باهرة، ولكنها لا تزال مصدر قلق من نتائجها على المدى الطويل**

وفوق هذا وذاك لم يعد الانفجار السكاني المنتظر هو الذي يشغل بال علماء الإحصاء والتخطيط في بريطانيا وغيرها من الدول المتقدمة صناعياً وحتى في بعض دول العالم الثالث بل هرم السكان وكيفية تشجيع العائلات على الإنجاب. والأهم من كل ذلك هو أن الشغل الشاغل في هذه البلدان لم يعد التفتيش عن لقمة العيش فقط، بالمعنى الحرفي للتعبير، بل عن نوعية هذه اللقمة: هل هي نتيجة الزراعة الصناعية المكثفة ومختبرات المنتجات المعدلة وراثيا أم ثمرة طبيعية لما تجود به الأرض؟ هل اللحوم التي يستهلكها هي من أبقار أصابها الجنون أم دواجن مصابة بالإنفلونزا الآسيوية أم أسماك مدجنة مليئة بالدهون والهرمونات ومعلوفة بالعلف الصناعي أم أنها نتاج الحقول والمراعي والمحيطات..

فمن دون التقليل من واقع سوق التغذية في العديد من البلدان الفقيرة، يمكن القول أن البشرية عموماً نجحت في تلافي المجاعة العالمية التي كانت مرتقبة نظرياً بفضل سلسلة من التطورات التي شهدتها الزراعة في القرن العشرين والتي يندرج معظمها في إطار تدخل الإنسان في مساراتها التقليدية وفي الطبيعة عموماً.

من الكيمياء إلى الوراثة

أدى تطور علم الكيمياء وتصنيع موادها في القرن العشرين إلى الاعتماد على الكيماويات لزيادة المحاصيل الزراعية: الأعلاف الصناعية للماشية، المبيدات للتخلص من الحشرات والآفات الزراعية، والمخصبات لزيادة سرعة نمو النبات ومقاييس الثمار.. ولكن العلم نفسه الذي كان وراء تفشي استعمال المواد الكيماوية في الزراعة هو الذي راح يفضح آثارها المدمرة على صحة الإنسان والبيئة.

تراجع استعمال الكيماويات واستقر على مستويات "مقبولة" من قبل المنظمات والجهات الحكومية المعنية بمسائل الزراعة والتغذية. ولكن تطوراً آخر في مجال علم الوراثة اقتحم عالم الزراعة زاعماً لنفسه القدرة على الوصول إلى النتائج المتوخاة من الكيماويات من دون استعمالها. ففي العام 1973م تمت في أمريكا أول عملية نقل ناجحة للجينات على المستوى البكتيري، وبعد ذلك بعشر سنوات، تم إنتاج أول نبتة معدّلة وراثياً، وكانت نبتة تبغ. وفي العام 1994م، أنزلت إلى الأسواق الأمريكية أولى ثمار الطماطم المعدلة وراثياً.. وانفتح عالم الزراعة – والبيئة ككل من ورائه – على مرحلة قيل أنها بداية تاريخ جديد في الحياة الزراعية.

المبدأ العلمي بسيط ويقول أنه بتعديل الخصائص الوراثية التي تحملها البذور في المختبرات، يمكن جعل نبتتها وثمارها مقاومة للآفات والحشرات وحتى للعوامل الجوية، كما يمكن زيادة عدد الثمار في النبتة الواحدة، وإضافة فيتامينات إليها، وإزالة المواد المضرة فيها.. الخ. النتائج تبدو ظاهرياً باهرة: أبقار تدر حليباً أكثر، حقول ذرة لا تشوبها الحشرات والآفات، خضار وفاكهة خالية من المواد الكيماوية، وسنابل قمح تحمل حبوباً أكثر من السنابل التقليدية، ولكن..

في العام الماضي، بلغت المساحات المزروعة ببذور معدّلة وراثياً حوالي 58 مليون هكتار في العالم بأسره. وهذا الرقم ارتفع عن ما كان عليه في العام الأسبق، ولكنه قد يكون مرتفعاً أيضاً عن ما سيكون عليه في الأعوام المقبلة.. إذ عادت الزراعة التقليدية المجردة من الكيماويات بشكلها المُخصِّب والمبيد للآفات والمعتمدة على البذور الطبيعية لتطل برأسها بخجل أولاً، ومن ثم لتفرض نفسها بقوة على السوق خلال سنوات قليلة بحيث بات يمكن القول أن هناك سباقاً عالمياً متكافئاً بين النباتات المعدلة وراثياً والتي هي حصيلة الذروة في التقدم العلمي، ومنتجات الزراعة التقليدية الطبيعية.

خلفيات الانقسام

يخطىء من يتصور أن هذا الانقسام في العالم حول الغذاء هو مجرد اختلاف في وجهات النظر بين

مدرستين فلسفيتين. إنه في الواقع يخفي صراعاً على مصالح هائلة وعن شهية لا حدود لها للسيطرة علىالأسواق وتكنولوجيا الإنتاج الزراعي في المستقبل القريب. وليس الصراع بين أوروبا والولايات المتحدة حول زراعة المنتجات المعدلة وراثياً وحقن المواشي بالهرمونات مجرد خلاف علمي أو طبي أو فلسفي أو تنافس على حماية الصحة العامة في هذا البلد أو ذاك، بل هو بالدرجة الأولى خلاف اقتصادي. فكل من هاتين القوتين الزراعيتين الغذائيتين المهيمنتين عملياً على سوق الغذاء في العالم اليوم تمارس في الواقع الأساليب الإنتاجية نفسها وتحاول الخروج منتصرة من السباق التكنولوجي الكبير الذي سيمكن الفائز فيه من التحكم عملياً بمستقبل التغذية في العالم عبر السيطرة على براءات الاختراع التي تحاول الشركات الغربية الكبرى احتكار القسم الأكبر منها.

النباتات المعدّلة وراثياً تحتل اليوم 58 مليون هكتار في العالم، أكثر من العام الماضي، ولكن أقل من العام المقبل

الوعي البيئي كان وراء الحرب على الكيماويات، فهل يكون القلق من الفيروسات الجديدة والعبث بالطبيعة راية الحرب على التعديل الوراثي؟

والحديث عن أيهما أفضل، منتجات الزراعة الإنتاجية المكثفة أو إن صح التعبير "الزراعة الصناعية"، بما في ذلك المنتجات الزراعية المعدلة وراثياً أم المنتجات الطبيعية، يبدو في الواقع سوريالياً بعض الشيء، لأن ذلك يفترض أن الزراعة التقليدية كانت فعلاً طبيعية وأن الزراعة الإنتاجية المكثفة هي بالضرورة مضرة بالبيئة والصحة والذوق. الواقع هو مزيج من كل هذه المعطيات في آن معاً، لأن الزراعة التقليدية كانت هي الأخرى في مرحلة فاصلة من مراحل تطورها نتيجة فرز غير طبيعي. فأنواع الحنطة التي طورها المزارع في بلاد الشام منذ أكثر من اثني عشر ألف عام كانت نتيجة ملاقحة وتقاطع بين أجناس متعددة من الحنطة كان للإنسان دور أساسي فيها. فهي، بشكل من الأشكال، نتيجة تعديل وراثي بدائي. كما أن المنتجات الزراعية المعدلة وراثياً بشكلها الحديث، إذا ما تركنا جانباً المصالح الاقتصادية التي تقف وراءها، ليست شراً كلها خاصة وأن إمكانية تحسينها نوعياً ومذاقاً واردة لا بل حتمية على ضوء تطور حاجات المستهلك الذي أصبح أكثر تطلباً ووعياً.

ولفهم أبعاد المعركة الدائرة حالياً بين الشركات الزراعية المتعددة الجنسيات (في الواقع تنتمي كلها إلى جنسيات أمريكية وأوروبية) المتحكمة بسوق البذور والتكنولوجيا الغذائية الزراعية الصناعية وكذلك بتجارة اللحوم والأسماك والحبوب، لا بد من التذكير أن هذا السباق من أجل تأمين الغذاء للإنسان، قد بدأ في الواقع مع بداية الزراعة المنظمة في منطقتنا منذ الألف العاشر قبل الميلاد. عندما لم يعد يكتفي الإنسان بقطف ما كانت تجود به عليه الأشجار المثمرة البرية أو طرائد الصيد وبدأ ينظم إنتاج غذائه بشكل منهجي وعقلاني من خلال البذار والحصاد في مواسم محددة ومن خلال تربية المواشي والدواجن لاستهلاكها عند الحاجة. وكان ذلك بداية مسار طويل وبطيء لتدجين منتجات الأرض أدى عملياً إلى إدخال تعديلات وراثية ومظهرية في بعض المزروعات وبالدرجة الأولى الحبوب. وفي أقل من ألف عام بدأت المزروعات المدجنة والمنتخبة تحل تدريجياً محل النباتات البرية. ويقول عالم الآثار النباتي جورج فيلكوكس حول هذا الموضوع إن "أول تغيير وراثي بارز في التاريخ حصل عندما لم تعد النباتات المتحولة تنثر بذورها على الأرض أثناء الحصاد بل تبذر عن طريق الانتخاب الطبيعي". وبذلك أصبحت الزراعة تخضع لتجارب طويلة لاختيار أفضل الأنواع وأكثرها إنتاجياً وملاءمة للتربة والمناخ والبيئة.. هذا المسار الذي استغرق آلاف السنين أصبح الآن وبفضل الهندسة الوراثية والأبحاث المكثفة يستغرق سنوات معدودة ولا يكاد يمر عقد من الزمن إلا وتخرج من المختبرات الزراعية أنواع معدلة من الحبوب والخضار والفاكهة ناهيك عن الأجناس المعدلة من الأبقار والدواجن والأسماك. وهذا التطوير السريع لأجناس جديدة هو الذي دفع ببعض العلماء إلى دق ناقوس الخطر لانعدام الفترة الزمنية الكافية لدراسة الآثار البعيدة المدى لهذه المنتجات المعدلة ليس فقط على الصحة العامة بل أيضا على البيئة.

مخاطر محسوبة

يقول معارضو المنتجات المعدلة وراثياً إنه يفترض بالمسؤولين عن الصحة العامة وعن الأمن الغذائي في العالم أن يطبقوا في مثل هذه الحالة مبدأ الحيطة والترقب وأن يعطوا لأنفسهم مهلة زمنية طويلة نسبية قبل السماح بإدخال هذه الاكتشافات العلمية الثورية على نطاق واسع وشامل. ويمكن تلخيص "مبدأ الحيطة" أو "الوقاية المسبقة" بما أعلنته في بيان شهير عام 1998م مجموعة من الباحثين في بريطانيا وقالت فيه: "عندما تحوم الشكوك بإمكانية أن يؤدي نشاط ما إلى تهديد لصحة البشر أو للبيئة فلا بد من اتخاذ إجراءات لمنع مثل هذا النشاط حتى ولو لم يتم تقديم الدليل العلمي القاطع عن وجود علاقة أكيدة بين هذا التهديد الملوح به ونتائج هذا النشاط. وفي مثل هذه الحالة فيتعين على صاحب النشاط المذكور، لا على الحكومة، تقديم الدليل على أن النشاط الذي يقوم به ليس خطرا".

ويرد أنصار المنتجات المعدلة وراثياً على ذلك بالقول إن الإنسانية لم تتقدم إلا عندما دخلت في مخاطرات محسوبة وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال تجاهل الخطر المفترض. ولو اعتمد العالم باستور هذا المبدأ لما كان توصل أبداً إلى ابتكار اللقاح ضد داء الكلب ولما تمكنت عالمة مثل ماري كوري من عزل الأشعة.

ويضيف هؤلاء أن فوائد هذه المنتجات على التغذية والبيئة والصحة العامة تشجع على الدخول في مثل هذه المخاطرة المحسوبة.

صورة مشرقة ولكنها غير مقنعة

من المبالغة طبعاً اتهام المنتجات المعدلة وراثياً بتهديد الجنس البشري والمقامرة بالصحة العامة وبمستقبل الكرة الأرضية. ويفضل بنيديت هرمولان، الأمين العام لإحدى أبرز اتحادات المزارعين في أوروبا التزام الحذر رافضاً اتخاذ موقف واضح مكتفياً بالقول أن: "لا أحد يستطيع أن يقدم أي دليل على ما يسوقه". ولكن الأكاديمية القومية للطب والصيدلة في فرنسا ليست من هذا الرأي. ففي تقريرها الأخير اتخذت موقفاً مؤيداً بدون تردد لهذا التقدم العلمي: "إن التحسينات الوراثية على الإنتاج الزراعي لا تشكل أي خطر على الصحة". ويذهب جان إيف لوديو، وهو رئيس جمعية غير حكومية تهدف إلى توعية الرأي العام بحقيقة هذه المنتجات الزراعية، في الاتجاه نفسه فيشير إلى ضرورة "عدم المبالغة في التهويل أو التقليل من النتائج الإيجابية لهذه التقنية التي ستسهم في تحسين مستقبل الإنسانية. فهي تجعل بعض الأطعمة أقل خطورة لأنها تلغي منها المواد المسببة للسرطان أو للحساسية. وهي ستحمي البيئة لكونها تحد من استعمال مبيدات الحشرات والأعشاب الضارة. إضافة إلى ذلك فهي تعطي دول العالم الثالث إمكانيات جديدة لاختبار نباتات مقاومة للجفاف وقادرة على النمو والعيش في مياه ذات درجة معينة من الملوحة وإضافة بعض المكونات الغذائية إليها مثل الفيتامين (أ) الذي يعاني من نقصه سكان العديد من بلدان الجنوب".

هذه الصورة الملمعة لهذه الثورة الغذائية العتيدة التي تروج لها هذه الشركات وتصورها على أنها اختراق علمي هائل سيقضي على كل إمكانية مجاعة في العالم تخفي وراءها في الواقع حقيقة أقل لمعانا وهي الارتهان الغذائي الذي سينشأ نتيجة الاعتماد على هذه الزراعة. فعلى عكس الزراعة التقليدية حيث يستطيع المزارع أن يستعمل قسماً من محصوله من القمح أو الأرز أو الذرة كبذار لموسمه القادم فإنه في حالة الزراعة الجديدة لن يستطيع تأمين البذور من محصوله بل عليه أن يشتري هذه البذار وبسعر مرتفع من الشركات المنتجة له بموجب براءة اختراع مسجلة.

وهذه الصورة المشرقة لا تبدو مقنعة تماماً للمستهلكين الذين ما زالوا رغم التطمينات الكثيرة غير مرتاحين إلى هذه المنتجات المعدلة وراثياً.

والرأي العام في أوروبا وإفريقيا ومعظم دول العالم لا بل حتى في الولايات المتحدة نفسها ما زال بغالبيته معارضاً لها. فالوضع الغذائي في العالم يعاني من فائض يكاد يقترب من التخمة وأولوية المستهلكين لم تعد الكم بل النوع. إضافة إلى ذلك فإن زيادة الإنتاجية للإنتاجية كما حدث في أوروبا في العقود الماضية حين وجدت هذه القارة نفسها أمام جبال من الزبدة وبحيرات من الحليب ناهيك عن الإهراءات العملاقة الفائضة ملايين الأطنان من الحبوب، لم تعد مقبولة من المستهلك ومن دافع الضرائب الأوروبي ولا حتى من بلدان العالم الثالث المتلقية لهذه المساعدات الغذائية لأنها أدت عملياً إلى القضاء على أمنها الغذائي، فباتت كلفة الحبوب والمنتجات الغذائية المستوردة من البلدان الصناعية والمدعومة أقل بكثير من كلفة إنتاجها المحلي وأقل جودة.

عودة إلى الطبيعة

من جهة أخرى، حصل تطور مهم في الغرب أولاً ثم في دول الجنوب، ألا وهو رفض المجتمع الاستهلاكي القائم على تلبية حاجات هامشية على حساب الحاجات الأساسية. حدث ذلك في الستينيات من القرن الماضي مع الحركة الطلابية والحركة الهيبية وحركة الدفاع عن المستهلكين. وتطور هذا التمرد وتعقلن مع بروز الحركات البيئوية واستطراداً مع ظاهرة العولمة المضادة. وما يجمع هذه التيارات على تناقضها الظاهري هو خيط رفيع عنوانه أولوية الإنسان على السوق، والمصالحة بين الاقتصاد والطبيعة. من هنا يمكن فهم موجة الرفض العارمة التي اجتاحت العالم منذ عقدين من الزمان وكانت تنادي بالعودة إلى الغذاء الطبيعي وإلى تبني أنماطاً جديدة من الاستهلاك. ولكن هذه الانتفاضة المشروعة على الإنتاجية المفرطة سرعان ما استوعبت من قوى السوق فتحولت بدورها إلى موضة استهلاكية جديدة وإلى دورة اقتصادية لها قوانينها وزبائنها ومستغليها.

ورغم انخراطها في الدورة الاستهلاكية التي قامت أساساً على رفضها، فلا بد من الاعتراف بفضلها على تكوين جيل جديد من المستهلكين الواعين المتطلبين من جهة، ومن جهة أخرى على دفع الحكومات إلى التدخل أكثر فأكثر في مراقبة قوى السوق وضبطها ومنعها بالتالي من التصرف بشكل يهدد الصحة العامة والذوق السليم وهذا ما جعل القوى الاقتصادية تستثمر أكثر فأكثر في النوعية.

> **الوضع القائم حالياً: استمرار التحسين في إجراء التعديلات الوراثية، وازدياد المساحات العائدة إلى الزراعة الطبيعية**

هذا التركيز على النوعية هو ما أعطى زخماً كبيراً للزراعة الطبيعية التقليدية بعدما كادت تصل إلى حدود الانقراض. وتغذى هذا المذهب الزراعي من موجات القلق التي اجتاحت العالم نتيجة تفشي أوبئة ومخاطر هي في النهاية حصيلة التلاعب بالمعطيات الطبيعية للزراعة وتربية المواشي مثل مرض جنون البقر قبل سنوات، وانفلونزا الطيور اليوم وربما طاعون التفاح غداً!! وهكذا، لم يعد هناك من متجر كبير في أوروبا إلا ويتضمن أجنحة خاصة لبيع المنتوجات الزراعية التي تنطبق عليها مواصفات الإنتاج الطبيعي الخالي من المبيدات الحشرية والعشبية، أو التي تزرع خارج الخيام البلاستيكية، أو الدواجن التي تُعلف بالحبوب الطبيعية وفي الهواء الطلق ولا تُحقن بالهرمونات ولا بالمضادات الحيوية.. وغني عن القول أن هذه المنتجات هي أغلى ثمناً بشكل ملحوظ من غيرها، نظراً إلى طول المدة التي استغرقها نضوجها، وصغر أحجام الثمار وقلة إنتاجية النبتة الواحدة منها.

من جهتها فإن المختبرات الزراعية بعد أن كانت تهتم فقط بالإنتاجية أصبحت تستثمر في تطوير منتجات ذات نكهة طبيعية شهية. إضافة إلى ذلك فقد أصبحت الحكومات الأوروبية تشجع العودة إلى الزراعة التقليدية وتمنح الشهادات والعلامات المسجلة لكل منتج تتوافر فيه النوعية العالية. وفوق




هذا وذاك فقد اكتشفت الهيئات التي كان تناط بها مسؤولية زيادة الإنتاج والتصدير أن هذه السياسة قد أدت في الواقع إلى القضاء على التعددية النوعية في الزراعة فبات عدد الأنواع المعروضة في الأسواق من العنب والفاكهة والخضار محدوداً جداً، فبدأت تشجع على إعادة زراعة بعض الأنواع التي تم التخلي عنها لأسباب تجارية بحتة. ورغم كل هذه الإجراءات التشجيعية ورغم ولادة ثقافة استهلاكية متطلبة ووعي ثقافي واجتماعي متزايد فإن حصة المنتجات الغذائية الطبيعية في الميزان الاستهلاكي العام في العالم ستبقى هامشية خلال المستقبل المنظور، ومقتصرة على نخبة من المستهلكين الذين يملكون من قوة الإرادة ومن الإمكانيات المادية ومن الثقافة المدنية والذوقية ما يمكنهم من السباحة عكس التيار ومن رفض ابتلاع ما تفرضه عليهم المختبرات الزراعية.

إقرأ للبيئة

"تاريخ المناخ" ..من دون مبالغات

في صيف 2003م، داهمت القارة الأوروبية موجة نادرة من الحر قضت على آلاف الأشخاص معظمهم من المتقدمين في السن. وقد حصدت هذه الموجة في فرنسا وحدها ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل. صحيح أن هذه الظاهرة كانت استثنائية في عتوّها ونتائجها ومدتها على الصعيد المناخي ولكنها جعلت الكثيرين من الباحثين والعلماء وكذلك أصحاب القرار السياسي يطرحون العديد من الأسئلة المقلقة حول مصير الكرة الأرضية مناخياً وبيئوياً. بمعنى آخر، هل كانت هذه الموجة مجرد ظاهرة عابرة استثنائية أم أنها نذير بتحول مناخي عميق ومستديم قد يحول الكرة الأرضية، كما يخشى محترفو التنبؤات الكوارثية، إلى مكان تصعب فيه الحياة الإنسانية؟

كتاب العالم الفرنسي باسكال أكو يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات المشروعة من خلال تتبع تاريخ المناخ منذ بداية الحياة البشرية على كوكبنا وحتى يومنا هذا. ومن خلال هذه الرحلة المشوقة والموثقة عبر الأزمنة الساحقة نكتشف أن الإنسان قد استطاع دائماً ترويض البيئة والمناخ، بحيث تمكن من بناء أرقى الحضارات في ظل أقسى الظروف المناخية، سواء في بيئات مرتفعة الحرارة كما حدث في الشرق الأوسط الذي كان مهد الحضارات والأديان أو في المناطق الجليدية التي شهدت بدورها نشاطا حضارياً مكثفاً.

وأهمية هذا الكتاب العلمي تكمن في فتحه لبعض الملفات التاريخية الكبرى المرتبطة بعلاقة الكوارث البشرية والسياسية والاجتماعية بتقلبات الطبيعة والمناخ. هل كانت المجاعات والأوبئة المتكررة في القرون الوسطى بسبب موجات الجفاف والحر أو البرد أم بسبب سوء التنظيم والإدارة آنذاك؟ هل خسر نابوليون بونابرت معركة روسيا بسبب "الجنرال ثلج" كما زعم البعض، أم على الأرجح بسبب الارتجال والتهور والثقة الزائدة بالنفس خلال تلك الحرب؟ هل انهارت الامبراطورية الرومانية بسبب توسعها غير المدروس والصراع على السلطة فيها وعليها أم بسبب تعاقب سلسلة من الحقب المناخية القاسية التي أربكت الاقتصاد وولدت الاضطرابات الاجتماعية والسياسية فيها؟

من خلال فتح هذه الملفات يحاول المؤلف في الواقع دحض بعض الأوهام والأفكار المسبقة حول التأثيرالمبالغ فيه للمناخ على تطور الإنسانية والتي تستعمل أحياناً كأسلحة في الصراع السياسي والاقتصادي الدائر في العديد من دول العالم.

ولكن الكتاب في صفحاته الثلاثمائة لا يتوقف عند دحض هذه الأساطير بل هو يركز قبل كل شيء على تاريخ المناخ منذ بداية أشكال الحياة على الأرض. ففي قسمه الأول يتناول هذا التاريخ منذ تكون الارض وحتى بدايات الحياة البشرية فوقها. أما القسم الثاني فيتعرض لدور المناخ في التاريخ ونظرية الحتمية المناخية من خلال أمثلة تاريخية قديمة وحديثة. أما القسم الثالث والأخير فيتناول بالتفصيل ومن زاوية علمية بحتة ظاهرة التسخن المناخي الخالي والمستقبلي نتيجة للنشاطات الإنسانية وما تثيره من رعب وقلق على مستقبل الكرة الارضية.

وينتهي العالم بسرد نقدي لعواقب هذا الارتفاع الحراري الناتج عن النشاط البشري على الوتيرة الحالية. والسناريوهات المستقبلية تبدو محملة بالكوارث إذا ما استمرت إفرازات ثاني أوكسيد الكربون من دون وازع. وليس من المستبعد في الحالة هذه أن يشهد المناخ في القرن الواحد والعشرين ارتفاعاً في الحرارة يتراوح ما بين 1.5 و6 درجات. ولكن نتائج مثل هذا الارتفاع لن تنقلب وبالاً على جميع أصقاع الأرض. فالشطر الشمالي من الكرة الأرضية سيتأثر أكثر من الشطر الجنوبي. أما الفكرة القائلة بأن ارتفاع المناخ سيزيد من تصحر الأرض في الجنوب فيعتبرها غير واقعية لا بل يرجح أن يكون العكس هو الصحيح. وبالاستناد إلى دراسة الفترات المناخية الماضية التي شهدت ارتفاعاً في حرارة المناخ، استنتج الكثير من العلماء والمؤرخين أن ذلك انعكس تقلصا في مساحة الصحارى في الشطر الجنوبي وزيادة في معدلات هطول الأمطار فيها.

يبقى أن كتاب "تاريخ المناخ" هذا، الذي يقرأ بشغف بسبب استعماله أسلوب السهل الممتنع في توعية القارئ بأهمية المحافظة على المناخ والطبيعة وضرورة انتهاج سبيل التنمية المستديمة سبيلاً وحيداً لذلك، هو نداء من أجل علاقة جديدة بين الإنسان والطبيعة، علاقة لا يمكن تصورها إلا من خلال تأسيس علاقة غير نزاعية بين البشر أنفسهم. لأن من الوهم بمكان، كما يختم باسكال أكو كتابه، "تغيير علاقات البشر المدمرة للمناخ وللبيئة، من دون تغيير علاقات التدمير الذاتي بين البشر أنفسهم".

زاد العلوم

زجاج السيارات مانع للفيتامين د

هل أشعة الشمس التي تصلنا من خلال زجاج السيارة تجعل أجسامنا تنتج فيتامين د الضروري لسلامة صحتنا؟
الجواب كلا. لأن طول موجات الأشعة الشمسية المنتجة لهذا الفيتامين لا تستطيع اختراق الزجاج، ولا تصل إلينا من خلاله.
ففيتامين د الفريد من نوعه بين الفيتامينات هو في الوقت نفسه هورمون. إنه يساعد الجسم على احتواء الكالسيوم لتقوية العظام والأسنان. وليس شرطاً على الإنسان أن يتناول هذا الفيتامين من خلال الأطعمة (ومصدره الرئيس الحليب)، إذا تمكن من الحصول على ما يكفيه من أشعة الشمس لمدة تتراوح ما بين 10 و 15 دقيقة يومياً.
وتختلف مقادير حاجات الناس إلى أشعة الشمس باختلاف الأعمار والبعد عن المناطق الاستوائية، وفصول السنة.. وكلما تقدمنا في السن تنحدر قدرات أجسامنا على إنتاج هذا الفيتامين بالاعتماد على أشعة الشمس. لكن معظم الناس قادرون على الاحتفاظ بهذا الفيتامين لأيام، وأحياناً لأشهر إذا لم يكونوا قادرين على التعرض لأشعة الشمس.

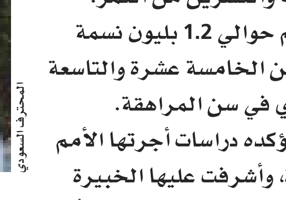

المحترف السعودي

الزكام وركوب الطائرات

يُنصح المصابون بالزكام أو الالتهاب في القصبة الهوائية بتجنب ركوب الطائرات.
فعند الإصابة بالزكام، تتعرض القناة السمعية للانسداد، وهي شبيهة بالأنبوب الدقيق الذي يصل ما بين البلعوم والأذن الوسطى. وفي الأوقات الطبيعية تكون وظيفة هذه القناة الموازنة بين الضغط في الأذن الوسطى والضغط الخارجي المحيط بالشخص.
إن انسداد الأنبوب يجعل ضغط الأذن غير متوازن، مما يؤدي إلى الشعور بالألم، وأحياناً إلى وقوع بعض الإصابات الطفيفة لطبلة الأذن. أما إذا كان لا بد من سفر المصاب بالزكام بالطائرة فعليه بالتدابير الآتية:
1 – استعمال مرطب الأنف لتسهيل إزالة الإفرازات، أو تناول حبوب دواء خاصة لهذه الغاية قبل ساعة من موعد السفر، وإذا كانت الرحلة طويلة، يجب تناول الدواء نفسه قبل ساعة من موعد الهبوط أيضاً.
2 – تناول الكثير من السوائل خلال الرحلة، لتجنب جفاف الجسم، ولجعل إفرازاته ليّنة.
3 – استعمال اللبان أو مضغ أي شيء آخر لتشجيع عملية البلع المتكرر لأنها تساعد على فتح القناة السمعية.
4 – استعمال سدادات الأذن الخاصة بالسفر والتي تباع في الصيدليات، فهي تتضمن فلتر لتخفيف الضغط على طبلة الأذن.


أرامكو السعودية

المراهقون يسيطرون على العالم


المحترف السعودي

نصف سكان الكرة الأرضية هم دون الخامسة والعشرين من العمر. وخمسهم حوالي 1.2 بليون نسمة هم ما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، أي في سن المراهقة.
هذا ما تؤكده دراسات أجرتها الأمم المتحدة، وأشرفت عليها الخبيرة العربية ثريا عبيد التي لاحظت أنه لم يسبق للبشرية أن شهدت مثل هذه النسب في تاريخها المعروف.
وجاء في التقرير الذي أعدته السيدة عبيد أن هذه الظاهرة يمكنها أن تكون ذات وجهين مختلفين. فمن جهة قد تكون سبباً للازدهار الاقتصادي بسبب القدرات الجسدية للصغار في السن على العمل وعلى التأقلم والتعلّم، ولكنها من جهة أخرى قد تكون عائقاً أمام هذا التقدم لأن حوالي 90 في المئة من هؤلاء هم في بلدان العالم الثالث، وهم معرضون للفقر والأمية ولمعدلات عالية من مرض الإيدز وغيرها من الآفات الاجتماعية كالمخدرات والعنف وتجارة الجنس مما يؤدي إلى انخفاض في قدراتهم الإنتاجية وتحولهم إلى عبء إضافي، بدلاً من أن يكونوا عاملاً مساعداً على مواجهة الأعباء الحالية.

مخاطر الهيدروجين على البيئة

Science & Vie d.r.

كشفت دراسة أعدها ترايسي تروتب وجون آيلر من جامعة MIT الأمريكية أنه في حال الاعتماد على الهيدروجين كمصدر رئيس للطاقة، فإن الغاز المتسرب من محطات التوليد والسيارات وغيرها سيتجمع في طبقة الستراتوسفير التي ترتفع خمسين كيلومتراً فوق سطح الأرض، وهناك سيؤدي إلى تشكّل بخار الماء الذي سيتجمع ويتكثف فوق القطبين مما سيدفع بمواد أخرى مثل الكلورين إلى تخريب طبقة الأوزون.
كذلك استخلص لاري هاروتيز من إدارة "لجنة المحيطات والأجواء الوطنية" الأمريكية أن تسرب الهيدروجين في الحالة أعلاه، سيزيد من حرارة الأرض لأنه سيتحد مع الأكسجين ليشكل بخار الماء، ولكن هذه المرة في طبقة التروبوسفير التي ترتفع 15 كيلومتراً فوق سطح الأرض.
وكان الاعتقاد الشائع يقول إن الاعتماد على الهيدروجين كمصدر رئيس للطاقة سيكون بمثابة الدواء الشافي لجميع المشكلات. لكن دراسات عدة بدأت تشير إلى مخاطر كبيرة يكتنفها الانتقال من مصادر الطاقة الهيدروكربونية إلى الهيدروجين. ويعتقد بعض العلماء أن هذا التغيير ربما يكون سبباً في مخاطر لا يمكن أن يتخيلها العقل في الوقت الحاضر.

الأطعمة السريعة تقصّر الأعمار

يهدد انتشار البدانة بين الأطفال ما تمّ تحقيقه خلال العقود الماضية على صعيد زيادة معدل عمر الفرد.
جاء ذلك في تصريح لجون كريبس، رئيس وكالة مراقبة الطعام في بريطانيا، الذي قال إنه إذا استمر هذا الاتجاه في استهلاك الأطعمة السريعة، فإن معدل عمر الفرد سينخفض تسع سنوات.
وأكدت الدراسة التي أجراها كريبس أن 10 في المئة ممن هم في السادسة من العمر، و15 في المئة ممن هم في الخامسة عشرة مصابون بالبدانة، ووجه إصبع الاتهام الرئيس إلى البطاطا المقلية، ونسبة السكر والملح والدهون المرتفعة في الأطعمة السريعة الأخرى.

الإنسان الآلي.. مجدداً

استخدم الإنسان الآلي أو الروبوت في الصناعة منذ زمن وعلى نطاق واسع، لكن استعماله في المنازل كان محدوداً جداً. وكانت قد عقدت في الماضي آمال كبيرة حول هذا الاستعمال وانتشرت الأخبار المبالغة في ذكائه حتى انتهى الأمر إلى مرحلة طويلة من الإحباط.
لكن الروبوت المنزلي أخذ، ومنذ سنة 2002م، يغزو الأسواق. فقد أطلقت شركة Electrolux السويدية أول روبوت للتنظيف المنزلي، ومهمته أن يدور في أنحاء المنزل ممتصاً الغبار دون الاصطدام بالأشياء أمامه، غير أن كلفته بلغت 1600 جنيه استرليني، أي أكثر من عشرة أضعاف المكنسة الكهربائية، وهذا ما أعاق تسويقه. لكن شركة I-Robot، من ماساشوستس، أنزلت في الأشهر الأخيرة روبوت يقوم بالوظيفة نفسها بكلفة 120 جنيهاً استرلينياً فقط، مما نشط صناعته، وفتح أمامها آفاق الازدهار.



المضادات الحيوية، التي بقيت لأكثر من نصف قرن تشكِّل العامود الفقري للصيدلية الحديثة، تواجه اليوم مأزقاً يتمثّل في تضاؤل فاعليتها وقدراتها العلاجية، حتى إن الأبحاث لم تعد تتركز على تصنيع مضادات جديدة أو أقوى من السابق، بل على إيجاد سبل علاجية مختلفة تماماً. الدكتور أحمد سعادة* يحدثنا هنا عن الاستعمال السليم للمضادات، والخطورة الكامنة في استهلاكها كيفما اتفق، وما أدى إليه هذا العبث.

المضادات.. تواجه مصيرها؟

في سنة 1928م اكتشف الطبيب البريطاني الكسندر فليمنغ أن الجراثيم لا تنمو بوجود "البينسيليوم" وهو الاسم العلمي للعفونة. فقد لاحظ هذا العالم بمحض الصدفة أن أحد أنواع الفطريات المعروف باسم "بينيسيليوم نوتاتوم" قد أفرز مادة البينسيلين التي أتلفت هذا الفطر بالكامل. وكان لا بد من انتظار بضعة عقود من الزمن لتتم ترجمة هذا الاكتشاف إلى ثورة علاجية كبرى، كانت الأساس في القضاء على أبرز الأمراض المعدية التي كانت تفتك بمئات الآلاف من المصابين. وهكذا، لم يكن فليمنغ على قيد الحياة عندما بدأ اكتشافه يستعمل كعلاج رئيس في الحياة اليومية.

ففي سنة 1940م بدأ ظهور مادة البينسيلين في الأسواق كدواء لعلاج الأمراض المعدية والالتهابات المختلفة وتم إنقاذ حياة العديد من المرضى. وفتح هذا الاكتشاف الطريق أمام اكتشاف مضادات حيوية أخرى مثل "الستربتومايسين" الذي استحق مكتشفه العالم الأمريكي سلمان واكسمان جائزة نوبل للطب عام 1952م. فحتى القرن التاسع عشر، كانت الأمراض المعدية، أي التي تتسبب بها الجراثيم السبب الرئيس للوفيات في العالم. وحتى منتصف القرن العشرين، وفي الولايات المتحدة على سبيل المثال كان ربع المصابين بالأمراض المعدية مثل الالتهابات الرئوية والسل والأمراض الجنسية يموتون. وانخفضت هذه النسبة عام 1990م إلى 4 في المئة فقط، بفضل استعمال المضادات الحيوية.

ما هي هذه المضادات؟

هي مواد كيميائية تنتج بواسطة أجسام صغيرة حية تملك القدرة على منع نمو الجراثيم، وفي بعض الأحيان القضاء عليها حين يتم وضعها داخل محلول مخفف جنباً إلى جنب مع الجراثيم. ومع التقدم العلمي والتكنولوجي، تغيرت طريقة إنتاج المضادات الحيوية فأصبحت تنتج داخل المختبرات بواسطة التركيب الكيميائي المحض أي بالاعتماد على مركبات صناعية غير طبيعية.

ولكل مضاد حيوي مساحة فاعلية تعني مجال تأثيره على الجراثيم. وكلما كان باستطاعة هذه المضادات القضاء على أوسع طيف ممكن من الجراثيم كلما كان مجال فعاليتها أوسع. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن المضادات الحيوية عديمة التأثير على الفيروسات ويقتصر تأثيرها على الجراثيم وأحياناً على الطفيليات وبعض الجسيمات الحية.



المحترف السعودي

*طبيب أخصائي مقيم في باريس

وتنقسم المضادات الحيوية إلى عدة فئات أو كما يشاع في الوسط الطبي إلى عدة "عائلات". وهذا التصنيف يستند إلى ثلاثة أسس: الطبيعية الكيميائية للدواء، طريقة تأثيره على الميكروبات ومدى تأثيره. ولكي يكون استعمال المضادات الحيوية ناجعاً فلا بد من احترام عدد من القواعد العامة:

1 - لا بد من تحديد نوعية العامل المسبب للالتهابات (بكتيريا أو فيروس أو فطر).
2 - وضع المريض العام (العمر، وجود أمراض مرافقة، إدمان على التبغ أو غيره، القصور الكلوي).
3 - حساسية الميكروب المسبب للالتهاب إزاء المضادات الحيوية الموصوفة.

أشرس الجراثيم المقاومة هي التي تنشأ في المستشفيات وتنتقل عبر المرضى والأطباء إلى العالم الخارجي

مضاد أو أكثر

من المعروف أن الغالبية العظمى من الالتهابات الشائعة يتم علاجها بسهولة بواسطة نوع واحد من المضادات الحيوية. ولكن في بعض الحالات ولمزيد من الفعالية في العلاج يتوجب استعمال نوعين من المضادات الحيوية في آن معاً على شرط أن تكون فعالية هذين المضادين مجتمعين أكبر من فعالية كل منهما على حدة وأن يكون تأثير الأول مكملاً لتأثير الثاني.

من أهم الأسباب التي دفعت إلى استعمال مضادين حيويين أو أكثر في آن معاً هي الحيلولة دون تمكين الجراثيم من التأقلم مع الدواء وبالتالي فرز جراثيم متحولة لا تتأثر بالمضادات الحيوية المعروفة. ويصح ذلك في علاج مرض السل لأن الميكروبات التي تسبب هذا المرض ليست متطابقة وتتفاوت حساسيتها إزاء المضادات الحيوية من مريض إلى آخر. فبعض هذه الجراثيم لا تتأثر بالعلاج من البداية في حين أن بعضها الآخر يتأقلم مع العلاج لتصبح مقاومة له. واللجوء لإعطاء أكثر من مضاد حيوي في آن واحد ومن عائلات متعددة يفرض نفسه إذن كحل لمنع ظهور جراثيم مقاومة.

الهدف الأول من المضادات الحيوية كما رأينا كان ولا يزال القضاء على الالتهابات التي مصدرها جرثومي. ومعيار الشفاء هو بكل بساطة زوال العوارض السريرية والميكروبية. ولكن مع تطور الطب والتكنولوجيا الطبية أصبح استعمال المضادات الحيوية وقائياً في بعض الأحيان واستباقياً في أحيان محددة جداً، كما هو الحال بعد عملية جراحية أو التهاب للغشاء الداخلي للقلب. وفي بعض الحالات يتم إعطاء المضادات الحيوية بشكل احتمالي، بانتظار معرفة بعض الفحوصات المخبرية الطويلة التي تعطينا بشكل أكيد نوعية الجرثومة ومكان تمركزها. وفي مثل هذه الحالة الاحتمالية يكون المضاد الحيوي الموصوف من النوع الواسع التأثير. وكلما كان العلاج مستنداً إلى نتائج مخبرية أكيدة كلما كان المضاد متخصصاً ومحدود التأثير بالجرثومة المعنية.

عائلات من المضادات.. لماذا؟

أشرنا أعلاه أكثر من مرة إلى وجود "عائلات" من المضادات الحيوية، بعدما كان "البينسيلين" المضاد الوحيد المعروف. فما الذي أدى إلى تنامي هذه الصناعة، وإلى تعدد أنواع المضادات؟

النجاح الباهر الذي حققته المضادات الحيوية في القضاء على العديد من الأمراض الجرثومية، خاصة في السنوات الأولى من عصرها، أدى إلى إفراط في الاعتماد عليها. ولكن هذا الإفراط، بمعنى الحاجة الاستهلاكية إلى كم أكبر، ليس بحد ذاته وراء اكتشاف المزيد منها وتصنيعه. بل هناك أمر آخر. فالتغيرات التي حصلت في جسم الإنسان المستهلك لهذه العقاقير، وقدرة الجراثيم على التأقلم مع هذه المضادات، من جملة الأسباب التي أدت إلى ظهور جراثيم جديدة مقاومة. لأن الجرثومة "تعلّمت" خلال نصف قرن كيف تحمي نفسها من تأثير هذا المضاد أو ذاك وتعطل أداءه.

من ناحية أخرى، فإن تطور الطب والجراحة عموماً (مثل زرع الأعضاء، وزيادة المعرفة حول الأورام الخبيثة وما شابه) استوجب استعمال المضادات الحيوية بشكل أوسع، وأدى إلى تعود الجسم عليها، وتأقلم الجراثيم معها، مما استوجب، ولا يزال يستوجب، اختراع مضادات أقوى من السابق.

بين المقاومة والمقاومة المضادة

هناك علاقة بين العلاج بالمضادات الحيوية وظهور جراثيم مقاومة، لا بالطبع بل بالتطبع والتكيّف إلى درجة أننا أصبحنا نواجه جيلاً من الجراثيم الصامدة في وجه أنواع عديدة من المضادات الحيوية المتعددة العائلات والفعاليات. كيف نفسر هذه الظاهرة المقلقة؟ هناك عدة تفسيرات. فعلى المستوى الفردي هناك أكثر من عامل نذكر منها:

- التركيب العضوي للجرثومة.
- نوعية المضاد الحيوي المستعمل للقضاء عليها.
- موضع تمركز الجرثومة.
- إمكانية التخلص من بؤر الالتهاب (فالقضاء على الالتهاب الذي مصدره خُراج مليء بالقيح لا يُعالج إلا بعد إفراغ هذا القيح جراحياً وهذا ما يسهّل عمل المضادات الحيوية).
- المناعة العامة والموضوعية للمريض تلعب دوراً في سرعة الميكروبات المسببة للالتهابات. ففي حين يحتاج المريض العادي إلى بضعة أيام من العلاج للقضاء على التهاب ما فإن نفس هذا الالتهاب يحتاج إلى فترة أطول لدى مريض فاقد للمناعة.
- طول فترة تناول المضادات الحيوية وكيفية الالتزام بتعليمات الطبيب. فكلما خالف المريض هذه التعليمات سواء عن طريقة تجاوز مدة العلاج أو تقصيرها في حال شعوره بتحسن، كلما زادت المخاطر بنمو جراثيم مقاومة تعصى على العلاج.

آفاق المستقبل: دراسة الهوية الجينية للجرثومة وتعديل سلوكها بدلاً من إبادتها

أما على الصعيد الجماعي فإن تعميم تناول المضادات الحيوية في حضارتنا الحديثة، وسوء التعامل معها في كثير من الأحيان والأماكن، أدى إلى تغييرات عميقة في البيئة الميكروبية البشرية والتي تشتمل على جراثيم يحتاج إليها جسم الإنسان لإفراز موادٍ معينة تدخل في تركيبات كيميائية معينة داخل الجسم ضرورة لتوازنه الطبيعي البيولوجي. وهذه التغييرات أضعفت هذه البيئة وجعلت الجسم البشري بصورة عامة أقل مقاومة للجراثيم الخارجية. وكلما تكرر اللجوء إلى العلاج بالمضادات الحيوية كلما أدى ذلك إلى نمو جراثيم أكثر مقاومة وعصياناً على العلاج المتوافر. وهذا ما يدفع الباحثين إلى الدخول في سباق محموم من أجل ابتكار مضادات جديدة أكثر فعالية وأكثر ملاءمة لم تتعود عليها بعد الجراثيم القديمة.

تجمع الدراسات الطبية والمخبرية الحالية على أن هناك علاقة سببية أكيدة بين ظهور الجراثيم المقاومة وبين الاستعمال الجماعي للمضادات الحيوية بشكل عشوائي وغير مسؤول. وليس من قبيل المصادفة أن أشرس الجراثيم المقاومة هي تلك التي تنشأ في المستشفيات وتنتقل منها، عبر المرضى أو عبر الممرضين والجسم الطبي، إلى العالم الخارجي وفي بعض الأحيان بصورة وبائية. ومن المفارقات المذهلة أن المستشفيات الكبرى التي تستعمل داخلها كميات هائلة ومتكررة من المضادات الحيوية هي الأكثر تنمية للجراثيم المقاومة.

البحث عن مخرج

ما الحل إذن للخروج من هذا السباق المدمر المجنون؟ منذ سنوات وخاصة بفضل الوعي الطبي لدى الرأي العام في الكثير من بلدان العالم المتطورة والباحثة عن طرق علاج بديلة، أخذ الباحثون يفتحون طرقاً جديدة أكثر عقلانية وأقل هدراً لاستعمال المضادات الحيوية بحيث يتم الاعتماد أكثر فأكثر على التحاليل المخبرية قبل بدء العلاج وابتكار أدوية جديدة تستهدف الجرثومة بشكل محدد ودقيق. والثورة التي يجري الإعداد لها حالياً في المختبرات والجامعات ومراكز البحث الحكومية أو تلك التابعة لشركات الأدوية المتعددة الجنسية تدور حول محورين واعدين:

- المحور الأول: ويقوم حول دراسة أكثر تعمقاً وجذرية للجراثيم وطريقة عملها ومقاومتها.
- المحور الثاني: ويقوم حول دراسة الهوية الجينية للجرثومة بحيث يتم تعديل سلوكها وإفرازاتها السامة بدل إبادتها.

ولكن الموضوع هنا يكاد يتجاوز الطب لأنه مرتبط بالمجتمع وأولوياته وبالاقتصاد وكلفته. فهل هناك من يريد دفع الثمن؟

قصة ابتكار

90 ثانية يسّرت الحصول على النقد!

كان الملل من صفوف الانتظار، وصعوبة الحصول على النقد في أي وقت من الأسباب الأكثر إزعاجاً لعملاء البنوك، حتى عقود قليلة خلت. لكن جون شبرد بارن، الإداري في شركة "توماس دولارو" المعروفة بطباعة أوراق العملة وتصنيع المعدات المصرفية في بريطانيا، كان ذا تفكير عملي، وكان يؤلمه أن "لا تستطيع الحصول على نقد من حسابك في إجازة آخر الأسبوع!"

كان شبرد على علاقة وثيقة بتقنيات طبع العملات، ثم عمل في نقل النقود بسيارات مجهزة خصيصاً لذلك وتحمل اسمه، وكان يعتقد أن خطوته التالية ستكون حُكماً في مجال صرف الأموال للعملاء، حالماً بتوفير النقد من خلال آلات تنتشر على الطرق. وجاءت الفرصة الحاسمة حينما رتبت 90 ثانية فقط لشبرد لشرح فكرته للمدير العام لبنك "باركليز". وعندما بدأ الحديث، بدا المدير وكأنه غير عابئ بالموضوع. وفي الثانية الخامسة والثمانين كمايقول شبرد، رد المدير بحزم: "إذا أمكنك عمل الجهاز الذي تحكي عنه فسأشتريه فوراً".

وسرعان ماتم التعاقد على صنع ستة أجهزة للتجربة.. ثم أتبعت بخمسين جهازاً آخر. استغرق العمل عاماً كاملاً ليتحول الحلم إلى حقيقة. ورُكّب الجهاز الأول خارج أحد فروع باركليز في شمال لندن في يونيو 1967م. وكان البنك قلقاً من ردود فعل الناس والبنوك الأخرى. ولكن، خلال بضعة أسابيع فقط، ظهر جهاز آخر في بنك وستمنستر المنافس وقد صنعته شركة أخرى غير "دولارو". نجحت الفكرة وصار الصرّاف الآلي حديث الناس.

حمل شبرد فكرته إلى الولايات المتحدة، وأمام مؤتمر ضمّ أكثر من ألفي مدير بنك، أعطي 12 دقيقة لتوضيح عمل جهازه. ويتذكر شبرد كيف أن فكرته قد "استقبلت كفكرة أوروبية ساذجة تريد أن تُباع في أمريكا". لكن بنك فيرست بنسلفانيا لم يتأخر في شراء الأجهزة، فطلب تركيب ستة منها في فروعه في فيلادلفيا. وكرّت السبحة.

كانت أجهزة شبرد تعمل ببطاقات ورقية سميكة يستلمها العميل من البنك، وكل بطاقة تصرف مبلغ 10 جنيهات فقط. ولهذا فإن الأمريكيين يعتبرون أن البداية الحقيقية للصراف الآلي بمعناه المعاصر، تمت على يد دونالد وتزل الموظف في شركة "دوكوتل" الذي صمم أجهزة تستخدم أول بطاقات ممغنطة عام 1969م. وقد سُجّل الاختراع في أمريكا باسمه. ووضع الجهاز الأول خارج مبنى بنك "كيمكال"، وكانت حملته الدعائية تقول: "في 3 سبتمبر 1969م سيفتح الفرع أبوابه في التاسعة صباحاً.. ولن يُغلق أبداً!"

قصة مبتكر

ليليان غيلبرت

أم لـِ 12 ولداً، وعضو في 20 جمعية، وحاملة شهادتي دكتوراة، ومبتكرة، ومستشارة إدارية.

امرأة مدهشة من حيث القدرة على التوفيق بين الحياة العائلية والعمل والابتكار. فبصفتها ربة بيت، ابتكرت ليليان جيلبرت العديد من أدوات المطبخ الحديث، ومنها الخلاّط الكهربائي، الرفوف داخل باب الثلاجة، وحاوية النفايات المطبخية التي تُفتح بضغط من القدم. كما أجرت هذه المبتكرة دراسات على 4,000 امرأة لتحدد المقاسات الدقيقة والمثالية للأدوات المطبخية وطاولات الطعام وارتفاعات الرفوف المعلقة، وهذا ما قادها إلى أن تكون المساهمة الكبيرة في نشوء علم "تنظيم مساحة العمل".

تميزت حياتها بالعمل الدؤوب والاستقامة. فكانت أول من تعرف علمياً على أثر الضغوط النفسية وقلّة النوم وسوء التنظيم على مسار العمل. واعتبرت بحوثها هذه من أسس علم الإدارة الصناعية.

ألفت ستة كتب، وأسست شركتين مع زوجها للاستشارات الإدارية، وظلت خلال سنوات عملها الستين تقدم النصح كمستشارة لست رؤساء أمريكيين.

وكانت غيلبرت قد ولدت في كاليفورنيا عام 1878م. وحكم عليها منذ طفولتها برعاية أمها المريضة وإخوتها الأربعة الصغار. غير أنها دخلت المدرسة وهي في التاسعة، وتخصصت أولاً في الأدب الإنجليزي وحازت على شهادة الدكتوراة الأولى من جامعة بيركلي.



وبعد زواجها من فرانك غيلبرت وإنجابها 12 مولوداً ثم وفاة زوجها، عادت ليليان إلى الجامعة في سن الخمسين لتنال شهادتي ماجستير ودكتوراة في علم الهندسة الصناعية. وكانت أول امرأة تنتخب في الأكاديمية الوطنية للمهندسين، وحازت على العضوية في 20 جمعية هندسية عالمية. قبل أن تتوفى في العام 1972م.

وقد سُئلت ليليان ذات مرة كيف استطاعت التوفيق بين دراستها وعملها وأبنائها، فقالت: "كنّا ندرّس علم الإدارة.. فكان حريٌّ بنا أن نطبقه في بيتنا".

اطلب العلم

المواضيع العلمية التي ما زالت تنتظر إجابات قاطعة كثيرة، إلا أن موضوعين يستحوذان على "شعبية" علمية وتهافت من النظريات لا ينتهي. أحدهما الفضاء بثقوبه السوداء وانفجاراته القديمة، والآخر "اختفاء الديناصور"، ويكاد يظهر على الإثنين ملامح الموضة. فالاجتماع السنوي الأخير لـ "الجمعية الجيولوجية الأمريكية" شهد نقضاً وتفنيداً للنظرية التي كانت مقبولة عالمياً لتفسير انقراض الديناصورات قبل نحو 65 مليون سنة، وتقول إن نيزكاً عملاقاً ارتطم بالأرض وأدى إلى حصول تقلبات مناخية وإشعاعية قضت على هذه المخلوقات الضخمة وعلى الكثير غيرها من الكائنات الحية. من جهة أخرى، شهد الاجتماع نفسه بعثاً للنظرية التي كانت قد خرجت من التداول العلمي قبل سنوات عديدة، وتقول إن الانفجارات البركانية العملاقة هي التي كانت وراء انقراض الديناصورات.

فناء الديناصورات!

فقبل عشرين سنة تقريباً، اكتسبت "نظرية الارتطام" صدقية كبيرة بفضل الحفرة العملاقة التي اكتشفت في صحراء مكسيكو. أبرز المتغيرات التي نتجت عنه والتي نملك اليوم دليلاً ملموساً على وجودها هي مادة الأريديوم المشع المسؤولة مباشرة عن هذه الإبادة، وقد عثر على بقاياها في طبقات الأرض في أماكن كثيرة من العالم، وتعود أيضاً إلى الفترة نفسها. ولكن التدقيق في الأرقام خلال الآونة الأخيرة أكد أن حفرة مكسيكو تعود إلى 300 ألف سنة قبل تشكّل طبقة الأريديوم وحصول الإبادة. وهنا يقفز السؤال: "إذا كان ارتطام هذا النيزك بالأرض غير مسؤول عن تشكيل طبقة الأريديوم، فما هو السبب؟"

بعض العلماء لا يزال مصراً على النظرية الشائعة، ويقول إن الفارق المتمثل بـ 300 ألف سنة هو مجرد هامش خطأ، الأمر الذي يرفضه علماء آخرون لاعتقادهم بأن مثل هذا الهامش العريض جداً لم يعد مقبولاً، خاصة بالنسبة إلى دراسة تتناول 65 مليون سنة فقط!.

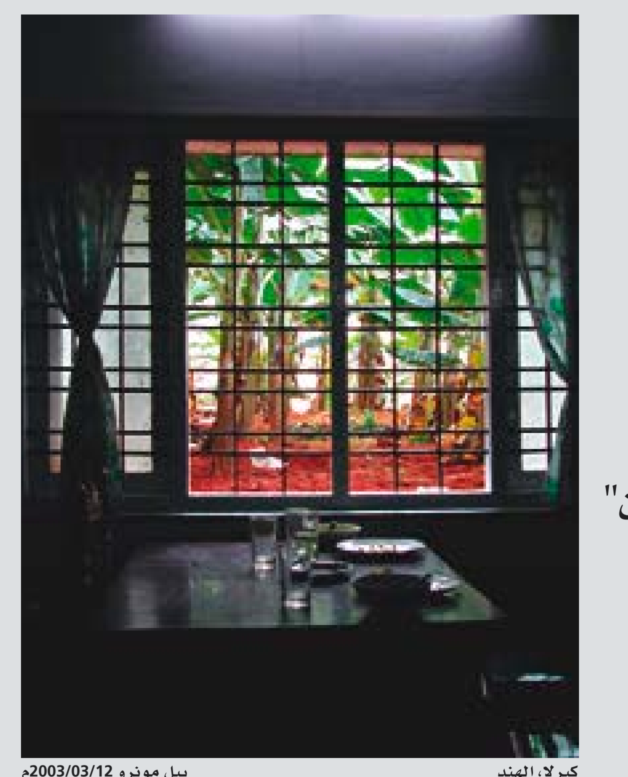
ومن ناحيتها صرفت العالمة غريتا كيلر من جامعة برنستون نظرها نهائياً عن "نظرية الارتطام" الشائعة، وتقول إن هناك حدثاً آخر على المستوى التدميري نفسه قد وقع آنذاك، إننا لا نعرفه في الوقت الحاضر، ويجب أن نبحث عنه. أما المدافعون عن "نظرية الارتطام" فقد باتوا يسلّمون بأن نيزك مكسيكو قد لا يكون مسؤولاً عن الإبادة، ولكنهم يضيفون احتمالاً آخر يقول بأن نيزكاً ثانياً قد سقط على الأرض في مكان ما غير محدد حتى الآن. الأمر الذي يرفضه الكثيرون لأن اصطدام نيزكين بمثل هذه الأحجام العملاقة بسطح الأرض خلال فترة 300 ألف سنة هو قليل الاحتمال حتى حدود الاستحالة.

والحل؟ عاد عدد من العلماء إلى دراسة نظرية "الانفجارات البركانية الكبرى" التي كانت قد أهملت تماماً لحوالي ربع قرن. وهم اليوم أكثر تفاؤلاً بالتوصل إلى نتائج مقنعة، خاصة وأن تطور أجهزة الكمبيوتر وبرامجها خلال السنوات الأخيرة بات يسمح لهم بالوصول إلى نتائج كانت بعيدة المنال حول ما إذا كانت الانفجارات البركانية الكبرى يمكنها أن تؤدي، وعن أي طريق، إلى تشكيل طبقة الأريديوم وإلى إبادة الديناصورات. وفي انتظار الوصول إلى نتائج جديدة، تبدو "نظرية الارتطام" في طريقها إلى الرف، بعدما تعامل معها العالم كحقيقة شبه مؤكدة. ولكن من يدري؟ فقد تعود هذه النظرية مجدداً إلى التداول خلال السنوات المقبلة. أليس الأمر كذلك في كل المجالات التي تحكمها الموضة؟



الملف المصور

إلى البعيد البعيد سافر موظفو شركتنا حيناً.. وإلى القريب القريب سافروا حيناً آخر.. وعادوا بزاد من الصور الجميلة، تُمتّع به نشرة "ارابيان صن" الأسبوعية قراءها.. في هذا الملف اخترنا بعض هذه الصور لقرّاء القافلة..



كيرلا، الهند — بيل مونرو 2003/03/12م



شاطئ الدمام — سامي الصيحا 2002/03/27م

والأشجار الغريبة
والوديان والجبال
الساحرة



معابد كمبودية — جون كرتزشمار 2002/02/06م





ينابيع كولورادو — بالان غاتيل ماثيو 2002/01/23م

وادي الموت - الولايات المتحدة الأمريكية — تيودور نلسون 2002/03/13م



إلى الصدف
البديعة
المضحكة

نيبال

وندي كوكر 2002م

حياتنا اليوم

بعيداً عن العمل.. قريباً منه

كم منّا تمنى لو أن بيته قريب من عمله بحيث لا يضطر إلى تحمّل أعباء الانتقال الطويل؟ كم منّا تمنى لو أن بيته بعيد عن عمله، أو عن كل ما يذكره بالعمل وكدّه اليومي في مكان هادئ مريح، وحبذا لو كان في حضن الطبيعة وأجوائها؟

كم هو مريح أن يكون بيتك قريباً من عملك. قريب حتى أنك تستطيع الذهاب والعودة منه سيراً على الأقدام، لا نقليات عامة ولا انتظار أو زحام وتأخر وتعب، بل ولا حتى عناء الانتقال بسيارة خاصة واجتياز المسافات وإشارات السير والبحث عن مواقف ذهاباً وإياباً.

وكم هو مفيد حين تخرج من عملك أن تخرج منه بالفعل، وتبتعد عنه كلياً، فتشعر بأنك ذاهب فعلاً إلى مكان تسترخي فيه وترتاح من هموم العمل وأعبائه، لا أن تبقى في محيطه وأجوائه وتحت تأثير سطوته وتحت تهديد الاستدعاء إليه في كل لحظة لحاجة طارئة. أنت المستهدف الأول لأن بيتك لا يبعد سوى خطوات قليلة.

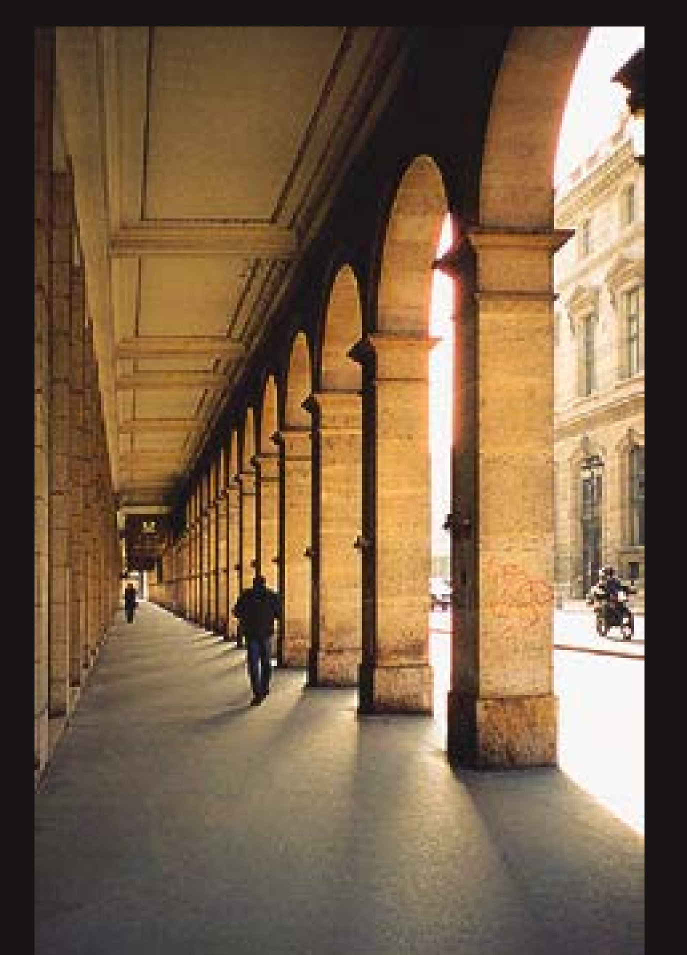
لكن تخيّل أنك تستيقظ صباحاً في وقت لا يسبق بداية الدوام كثيراً، مجرد ما يكفي لأن تحتسي القهوة أو تتناول الإفطار وتستحم وترتدي ملابسك وتهبط بعدها من على سلّم منزلك بهدوء إلى الشارع. تسير مسافة كافية لأن تستمتع بالتعرف إلى جو الصباح، وهاأنت عند مدخل مبنى المكتب، فتبدأ عملك وأنت هادئ، واثق، مرتاح.

لكن لا... أنت تخرج نشيطاً من البيت في الصباح متأبطاً صحيفتك أو رواية أعجبتك. تركب الحافلة التي تتجه إلى مقر عملك. على الطريق يستوقف نظرك رفاق الدرب من يصعد إلى الحافلة أو يهبط. تراقب من النافذة المشاهد المتعاقبة على تنوعها ثم تستقر قارئاً صحيفتك أو كتابك. وقبيل الوصول تراجع فكرك، تخطر لك خاطرة جيدة حول شأن يخص العمل فتدخل عند الوصول إلى المكتب بهمّتين: همّة الملتحق بعمله وهمّة من يحمل فكرة يريد تنفيذها.

وليس بين القرب القريب والبعد البعيد حل وسط. فالحل الوسط لا يحصّل، في أغلب الأحيان، فوائد هذا أو ذاك.

ويبقى التردد..
قريباً من العمل، نعم..ولا.
بعيداً عن العمل، نعم..ولا.


كميل حوا


شارع الريفولي، باريس — دافي هوب 2003/06/11م

من وسط المدينة
القريبة حتى
أقاصي الطبيعة


شبه جزيرة الأنترياتيك — وندي كوكر 2002/09/18م

هل يختفي رويداً البطل الرياضي المحبوب الذي يحمل شجاعة الأبطال ونبل تصرفهم ويمارس الرياضة كمتعة أولاً ومنافسة شريفة؟ إلياس سحَاب وماجد نعمة يجيبان على هذا السؤال..



تغيّر صورة البطل الرياضي..

من بطل، إلى نجم، إلى تقني ماهر في جهاز المدرب..!

1 العصر الذهبي الغابر في كرة القدم

إلياس سحَاب

بقيت ملاعب كرة القدم في عقود الخمسينيات والستينيات الميلادية وحتى السبعينيات، تنجب أعداداً وافرة من اللاعبين الذين يتمتعون إلى جانب الموهبة، التي ما زالت تملأ ملاعب الكرة حتى يومنا هذا، بقدرات بارزة في اللعب المبدع على الصعيدين الفردي والجماعي، بحيث تتحول معهم المشاهدة إلى متعة كاملة في كل دقيقة من دقائق المباراة، يؤدون ذلك داخل إطار الخطة التكتيكية للعب، التي يكون المدرب قد حددها، ولكنهم في داخل هذا الإطار العام، يحولون الدقائق التسعين إلى تفجير مستمر لمواهبهم ولطاقاتهم الإبداعية، في اللعب الجماعي دفاعاً ووسطاً وهجوماً، كما في أدائهم الفردي كلما وجدوا أنفسهم في موقف حرج مع الخصم.

المكانة والإبداع

ولا شك في أن لذة الفوز، بعد لذة الإبداع والتفنن في عرض المواهب الفردية والجماعية، ظلت حتى عقد السبعينيات الميلادية، هي الحافز المسيطر على اللعبة واللاعبين والملاعب، إضافة إلى أن تلك المرحلة الذهبية، كانت قادرة على إفراز اللاعبين الذين يتمتعون إلى جانب الموهبة الكروية والإبداع، بالمستوى الاجتماعي أو الثقافي المحترم. فنجم ريال مدريد دي ستيفانو (الأرجنتيني الأصل)، تحول إلى أحد أبرز رجال المجتمع في العاصمة الإسبانية، واختير بإجماع كروي وشعبي رئيساً مدى الحياة لنادي ريال مدريد. ويليه أسطورة الكرة البرازيلية، اختير وزيراً للرياضة في بلاده، بعد أن أدى مهمة ثقافية - حضارية بتحويل كرة القدم إلى لعبة ذات شعبية في الولايات المتحدة الأميركية. وبيكنباور، تحول في ألمانيا إلى شخصية اجتماعية مرموقة، حمل إليها من الملاعب لقب "القيصر" وبقي مستحقاً له في مواقعه الإدارية، حتى أصبح مرشحاً شبه دائم لرئاسة اتحاد الكرة الدولي، إضافة إلى ترؤسه لجنة الإشراف على مسابقة كأس العالم المقررة في بلاده في العام 2006م، كذلك احتل نجم الكرة الفرنسي (الإيطالي الأصل) بلاتيني موقعاً اجتماعياً مرموقاً في بلاده، حتى أصبح مرشحاً لأرفع المناصب في اتحاد الكرة الدولي، وتحول اللاعب الهولندي الفذ كرويف إلى أحد نجوم المجتمع الراقي في بلاده، وجاراه في ذلك صالح سليم في مصر. ويلاحظ أن كل هذه الأسماء النموذجية في المرحلة الذهبية الغابرة لكرة القدم، تتمتع بمستوى ثقافي وخلقي رفيع، كان بادياً بملامحه الأولى في أثناء احترافهم اللعب، ولكنه تجلى بكل ملامحه بعد ذلك في كل المناصب التي تقلدوها.

مقابل ذلك، فإننا نرى أن المواهب الكروية الفردية في مرحلة ما بعد السبعينيات الميلادية، بعد انخراطها في التحولات الاجتماعية والثقافية الهائلة لعصر الطغيان اللا إنساني للتكنولوجيا، وللقيم الاستهلاكية الزاحفة الطاغية، قد أصبحت أسيرة الخطة التدريبية، التي أصبح الفوز وحده محركاً لها مهما كان الثمن، وأصبح شعار "الغاية تبرر الوسيلة" هو سيد الموقف في الملعب وخارجه.

وبعد أن كان تسجيل أكبر عدد من الأهداف، تحقيقاً لأعلى مستوى ممكن من متعة الفرجة الجماهيرية هو سيد الموقف، أصبح الضغط لمنع الخصم من التسجيل هو الهم الأكبر، والأوحد أحياناً. لقد ذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التي تلقت فيها إنجلترا هزيمتها الكروية الأولى، بعد تسعين عاماً، على يد الفريق المجري الذهبي (فريق بوشكاش) بنتيجة 3 - 6 ثم في بودابست بنتيجة 1 - 7، كما تلقت ألمانيا في كأس العالم للعام 1954م في سويسرا، هزيمة على يد فريق المجر الذهبي نفسه في الأدوار التمهيدية، بنتيجة 1 - 8، قبل أن تنتزع منه الكأس بنتيجة 3 - 2. لقد ولت هذه الأرقام القياسية في تسجيل الأهداف إلى غير رجعة، كما أصبح التكتل أمام الهدف لمنع التسجيل، أي إماتة اللعب الجميل، هو قمة الإبداع. وحولت فلسفة الدفاع القبيح، على حساب الهجوم الجميل، اللعب إلى مباراة في المصارعة حيناً والملاكمة حيناً، والرفس العنيف بالأرجل، واستعراضاً لفنون العرقلة التي غالبا ما تفتقر إلى اللياقة والذوق والروح الرياضية وروح المنافسة الشريفة.

قد تجد مع ذلك عشرات بل مئات من اللاعبين الموهوبين في ملاعب الكرة اليوم، ولكنك تشاهدهم كأنهم آلات للعب، مشدودة بخيوط معدنية إلى يد المدرب. حتى أصبح ظهور اللاعب الذي يفجر مواهبه إبداعاً حقيقياً في الملعب نادر الوجود، بحيث يشار إليه بالأصابع في القارات الخمس، ويقفز سعره إلى عشرات الملايين من الدولارات، خاصة إذا كان يتمتع بموهبة اختراق خطوط "ماجينو" الدفاعية وتسجيل الأهداف، ولو بمعدل هدف واحد في المباراة الواحدة. فقد أصبح هؤلاء عملة نادرة تتخاطفها أندية العالم الكبرى مثل البرازيليين رونالدو وروبرتو كارلوس ورونالدينيو، والفرنسي (الجزائري الأصل) زيدان، والتشيكي ندفيد، والأوكراني شفشينكو، والإنجليزي بيكهام. وليس صدفة أن كل هؤلاء يلعبون في أندية خارج أوطانهم.

أما خارج هذه المواهب النادرة التي لا تتجاوز أصابع اليدين، فبإمكاننا أن نجد جمهرة واسعة من اللاعبين الموهوبين غير المبدعين، ولكننا لا نجد بينهم لاعباً يستطيع أن يلفت النظر، خارج الملعب، بمستواه الثقافي أو الاجتماعي، بل إن بعضهم يلفت النظر بضحالة هذا المستوى، حتى لو كان اسمه لامعاً بين نجوم الكرة.

ولّى عصر الهواية الممتعة وحلّ عصر الحرفة الآلية والمملة

من معالم التحولات

لو نحن راقبنا الترجمة العملية في ملاعب كرة القدم لسيطرة الحافز المادي على اللعبة، بكل مفاهيمه الإعلانية والتسويقية والترويجية، لأمكننا وضع اليد على عدد من الملاحظات التي باتت تصفع الملايين من عشاق الكرة، كلما تابعوا نجومهم المحبوبين وأنديتهم المفضلة ومنتخباتهم المفضلة على الشاشة الصغيرة:

1 - أصبح من الأمور المعتادة التي لم تعد تفاجئ أحداً، أن نشاهد فريقاً أو منتخباً يغص بالنجوم اللامعة، يتحول في الملعب إلى مجرد أسماء وأشكال هؤلاء النجوم، وليس مواهبهم العالية الرفيعة، حتى يخيل اليك أحيانا وأنت تشاهد فريقاً أسطورياً كريال مدريد، الذي يمكن اعتباره (باستثناء خط دفاعه) منتخب نجوم العالم، كأن الذي يتحرك على الشاشة هو صور هؤلاء النجوم، تحركهم أزرار الكمبيوتر يميناً ويساراً، وليسوا هم اللاعبين الحقيقيين، وذلك لأسباب متعددة، كأن تكون المباراة غير مهمة، أو أن يكون في جعبة الفريق ما يكفيه من النقاط.

مباريات المدربين..



بعد أن كان تسجيل الأهداف هو سيد الموقف، أصبح منع الخصم من التسجيل هو الهم الأكبر

2 - أصبحت المباريات التي تدور في إطار بطولات القارات، وخاصة القارة الأوروبية، ذات الأندية التي تعج بألمع نجوم العالم من كل القارات، يحدد عددها الاتحاد الأوروبي، وفقاً لمتطلبات الدخل الإعلاني، لمجرد الاشتراك في أية مباراة، وبنسبة أعلى عند الفوز بالمباراة، وبمبالغ طائلة عند الفوز بلقب من الألقاب. حتى أن الشركة الإعلانية الراعية لنادي ريال مدريد فرضت على مدربه السابق ديل بوسكي إشراك رونالدو ولو لشوط واحد في إحدى المباريات، مع أن إصابته كانت تفرض عليه عدم اللعب، وهددت الشركة النادي واللاعب بخفض الإعلانات إلى النصف إذا لم يستجيبا، فكان للشركة ما أرادت على حساب الوضع الإنساني للاعب والنواحي الفنية للعب.

3 - أصبحت الشركات الصناعية عابرة القارات، التي تملك أضخم الموازنات الإعلامية، تسيطر ليس على لاعبي الكرة فقط، بل حتى على الاتحادات الوطنية للكرة، فتفرض على هذا الاتحاد أو ذاك، اختيار هذا اللاعب أو ذاك في المنتخب الوطني لبلاده، حتى لو كان مستواه الفني في تراجع، لمجرد أن هذا اللاعب يستدرج إعلانات كثيفة. ومن عجائب هذه الظاهرة، أنه بعد أن كانت ألقاب النجوم من اللاعبين، محصورة بمهاراتهم الفنية، فيقال عن لاعب أنه ملك المراوغة، وعن آخر أنه سد الدفاع المنيع، تحولت ألقاب النجوم إلى قدرتهم على استدراج الإعلانات، فأصبح النجم الإنجليزي دافيد بيكهام (على سبيل المثال) يحمل لقب أكثر النجوم استدراراً للإعلانات، ربما بسبب زواجه من المغنية "فكتوريا" نجمة البوب الإنجليزية بالدرجة الأولى، أما مواهبه الكروية المؤكدة فتأتي في الدرجة الثانية، بدليل أنه (وهو لم يفز بأي لقب أوروبي أو عالمي) يتفوق في استدراج الإعلانات على زملائه في ريال مدريد رونالدو وزيدان وفيجو الذين نال كل منهم لقب أفضل لاعب في العالم.

والوجه الآخر لهذه الظاهرة، هو أن لا يكون لأي لاعب مهما ارتفعت مواهبه الفنية، أي حظ بالانضمام إلى منتخب بلاده، أو اللمعان في بورصة الأندية الغنية، ما لم يتمكن من تسويق مواهبه أولاً وأخيراً، في البورصة الدولية للشركات ذات الموازنات الإعلانية العملاقة.

لعب.. بلا روح

لا يمنع هذا أن الأندية الكبيرة تعج كلها حالياً بلاعبين من ذوي المهارات الفنية العالية، ولكنهم في الغالب، ولكل الأسباب المذكورة أعلاه، يلعبون في معظم الأحيان بلا روح، وخاصة من دون شعور بلذة لعب كرة القدم، الأمر الذي ينعكس على المشاهد، الذي كثيراً ما أصبح في أية أمسية من أماسي تصفيات بطولة الاتحاد الأوروبي، يضغط على زر التحكم عن بعد، متنقلاً بين مباراة وأخرى، باحثاً عن روح كرة القدم الحقيقية، التي تخلو منها حتى المباريات المهمة، ولا نلمح لها أثراً إلا في دقائق معدودات من كل مباراة.

لقد انتهى إلى غير رجعة العصر الذي كان فيه كل اللاعبين النجوم، يلعبون بحافز وحيد هو لذة لعب كرة القدم، والذي كان فيه الجمهور يستمتع بفنون الكرة كعشاق الباليه الذين يستمتعون بـ "كسارة البندق" أو "بحيرة البجع". وذهب العصر الذي كان فيه طبيب مثل اللاعب البرازيلي الفذ سقراط، يمتهن الطب ويهوى كرة القدم.

بعبارة موجزة، ولى عصر الهواية الممتعة المبدعة وحل عصر الحرفة المملة والآلية.

لقد منحتنا نهاية القرن العشرين، فرصة نادرة لاستخراج كل دروس وملامح المقارنة بين اختلاف طبيعة كرة القدم وطبيعة نجومها، بين مرحلة ومرحلة.

بيليه ومارادونا

فعندما دقت ساعة اختيار لاعب القرن العشرين، كما حصل في كل الميادين الإنسانية الأخرى عند وداع القرن المنصرم، انقسمت الآراء بين لاعبين

اثنين: البرازيلي بيليه، والأرجنتيني مارادونا. ولأن المواهب الفذة الاستثنائية التي تمتع بها وأظهرها كلا اللاعبين، تثير فعلاً حيرة أكبر الأخصائيين، فقد اعتمد أسلوبان لاختيار لاعب القرن العشرين:

- أسلوب يحدد نجم القرن العشرين من خلال آراء النقاد والخبراء المعتمدين.
- وأسلوب آخر يحدد النجم من خلال تصويت جماهيري على شبكة الإنترنت.

وكأن هذا الحل السحري قد صمم خصيصاً لاختيار بيليه برأي الخبراء والأخصائيين، واختيار مارادونا برأي الاستفتاء الجماهيري.

كان اللاعب ينتمي أولاً وأخيراً إلى ناديه المحلي ومنتخبه الوطني وصار اليوم سلعة تتبادلها الأندية الأجنبية الكبرى

غير أن ما لم تلق عليه الأضواء بما يكفي في هذا الاختيار المزدوج، هو أن بيليه (الذي تقلد منصب وزارة الرياضة في بلاده) يصلح بالفعل ليكون رمزاً لأجيال كاملة من اللاعبين المبدعين في مرحلة ما قبل السبعينيات، أما مارادونا، ذو الموهبة الفذة، ولكن الذي انتهى به المطاف إلى مصحة للشفاء من الإدمان في كوبا، وإدانته بالتعامل مع عصابات المافيا الإيطالية في فترة اللعب لنادي نابولي الإيطالي، في عمليات الاتجار بالرقيق والمخدرات، فيبدو وكأنه رمز لجيل ما بعد السبعينيات، وإن كان في ذلك شيء من الظلم لنسبة من أبناء هذا الجيل.

الولاء للإبداع والنادي والوطن

غير أنه ما من شك في أن بين العناصر الكثيرة التي زحفت لتغير كل شيء في حياة الناس، بما في ذلك ملاعب كرة القدم، بعد عقد السبعينيات، فإن عنصر المال هو الذي لعب الدور الأكبر في تغيير كل ملامح كرة القدم، من اللعبة، إلى الملاعب، إلى الجمهور، إلى الاتحاد الدولي للكرة، إلى أخلاق اللعبة نفسها وفنياتها.

لقد جاءت سيطرة المال لتضع خطاً فاصلاً بالأحمر الصارخ، بين مرحلتي ما قبل وما بعد السبعينيات.

فباسم التفرغ للكرة، عن طريق الاحتراف الكامل مقابل مرتب شهري ومكافآت مالية مجزية، تحولت كرة القدم، مثل كثير من النشاطات الأخرى في حقول الفنون والثقافة والإبداع والرياضة، عن كل القيم التي كانت في السابق تحرك الملاعب والفريق وتحفز اللاعبين، وحلت محلها قيم تحول اللعبة واللاعبين إلى صناعة في قبضة عمالقة رؤوس المال ودنيا الإعلان والتسويق. فزالت قيم كثيرة وأصبحت على رفوف متاحف التاريخ الكروي، وبرزت قيم جديدة أصبحت تعكس نفسها على كل شيء في كرة القدم، بما في ذلك روح اللعبة داخل المستطيل الأخضر.

قبل السبعينيات، كان اسم نجم الكرة لا يسطع إلا من خلال ناديه، داخل وطنه، وهو النادي الذي غالباً ما يقضي النجم اللاعب الموهوب عمره فيه، ويخرج منه إلى الاعتزال.

ولم يكن ذلك مجرد تحديد لشكل انتماء اللاعب، بل كان يجسد روح ذلك الانتماء، فكان النادي هو بيت اللاعب الكبير، الذي يحركه دائماً الحماس لإعلاء اسمه في منصات الشرف المحلية والدولية، ويبذل في ذلك الغالي والرخيص، إضافة إلى الجهد الفني والبدني إلى حدود التفاني.

وكان بديهياً، بعد ذلك، أن يكون الإطار الأكبر هو الانتماء إلى المنتخب القومي الذي يمثل الوطن في المحافل الدولية، فيصبح طريقة لعب هذا المنتخب القومي أو ذاك (دفاعاً أو هجوماً أو مراوغة أو قوة بدنية) رمزاً من رموز ثقافة ذلك البلد، وتجليات تلك الثقافة في سائر البلاد الأخرى التي يذهب إليها منتخب ذلك البلد للعب والمنافسة.

فكان لأميركا اللاتينية أسلوبها العام المعتمد على المهارات الفردية العبقرية، مع التمييز بين المدرسة البرازيلية والأرجنتينية. وكان لجنوب أوروبا أسلوبها المميز الذي لمعت إيطاليا في تمثيله، ولشمال أوروبا أسلوب مميز آخر تمثله بامتياز ألمانيا. كما بقيت إنجلترا تعتز بتمثيل أسلوب الجزر البريطانية المميز. وحتى عندما كانت تحدث انتقالات استثنائية، لظروف قاهرة، كان ذلك يتم من خلال قيم الانتماء العميق.

فعندما اجتاحت العواصف السياسية بلاد المجر في العام 1956م، لم يكتف اللاعب الفذ بوشكاش بالهجرة من وطنه المجر إلى إسبانيا، ولكنه اكتسب الجنسية الإسبانية، فأصبح يلعب لنادي ريال مدريد الإسباني، كما لمنتخب إسبانيا. وكذلك الأمر بالنسبة للاعب ريال مدريد الفذ الآخر، دي ستيفانو (الرئيس الفخري الحالي للنادي)، بعد انتقاله من بلده الأول الأرجنتين إلى إسبانيا.

انهيار السدود

فلما دخل المال الإعلامي والتسويقي لتسيد ملاعب كرة القدم، في كل أرجاء العالم، انهارت كل هذه الحدود والسدود. وقد يقول قائل إن ذلك قد يكون مفيداً في تراجع المشاعر الوطنية الضيقة أمام المشاعر الإنسانية الرحبة، غير أن عكس ذلك هو الذي حصل، فقد تراجعت قيم الانتماء للنادي، والوطن، ليحل محلها انتماء أضيق إلى الرصيد المصرفي للاعب.

لقد تراجعت كل منتخبات العالم الكروية (ذات المكافآت المالية المحدودة) أمام الأندية التي توزع عليها لاعبو تلك المنتخبات، والسبب الوحيد هو الفارق الهائل بين جزالة مكافآت الأندية، وضآلة مكافآت المنتخبات الوطنية. وعلى سبيل المثال، فقد تحولت البرازيل من منجم لتغذية منتخب بلادها الأشهر، إلى منجم لتغذية الأندية الأوروبية الكبرى، ذات الموازنات التي تقدر بمئات الملايين من الدولارات لكل نادٍ. كما تحولت الأندية الصغيرة الفقيرة، إلى منجم لا شغل له سوى اكتشاف المواهب الكروية، لتصديرها إلى الأندية الغنية، حتى في دول العالم الثالث الفقيرة مالياً وكروياً.

أمام هذا الطوفان الكاسح الذي جرف قيماً كاملة راسخة استعرضنا بعضها، وأحل محلها قيماً أخرى أهمها تحويل اللاعب الموهوب إلى دمية تتحرك في الملعب لتملأ رصيد الشركات الإعلانية العملاقة (بعد أن ينال اللاعب حصته)، حتى أصبحنا نشاهد تكراراً دائماً لحالة اللاعب الذي يكون في ذروة حماسه وبذله وعطائه عندما يلعب لناديه الذي يتقاضى منه راتبه الشهري، بينما يتحول إلى ظل باهت لنجوميته الشهيرة، عندما ينتقل للعب في منتخب بلاده.

وبعد، فإن انتماءنا إلى القرن العشرين يضع على أعيننا نظارة سوداء ونحن ننظر إلى تحولات بداية القرن الجديد، وقد لا تكون هذه التحولات التي عرضنا بعضها في هذه السطور، سوى مرحلة انتقالية، ينتهي فيها مخاض التحول إلى إفراز قيم جديدة راقية وجميلة وإنسانية، ولكنها مختلفة فقط في الشكل عن القيم القديمة.

ربما، ولكننا من الآن وحتى تنقشع هذه البلبلة الكاسحة، اسمحوا لنا أن نظل نسمي مرحلة ما قبل السبعينيات في كرة القدم كما في الأدب والشعر والموسيقى والسينما والمسرح: مرحلة العصر الذهبي.

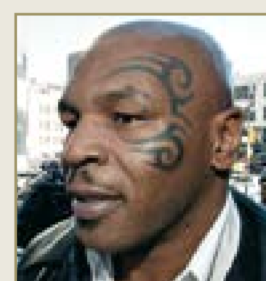


وفي الرياضات الأخرى أيضاً

يتجلى التبدل الذي طرأ على صورة البطل الرياضي بشكل صارخ في مجال الملاكمة، وذلك من خلال مقارنة بطل الستينيات محمد علي كلاي ببطل السنوات الأخيرة مايك تايسون.



محمد علي كلاي



مايك تايسون

ففي حين ترك محمد علي صورة زاهية ومشرّفة للبطل المتمتع بمستوى أخلاقي رفيع، وإيمان ديني، وسلوك رياضي حقاً على الحلبة، ونضوج سياسي مكّنه من تلافي المطبات في خضم الصراع العنصري الذي تفجر في أمريكا خلال الستينيات، فإن الضجيج الإعلامي الذي يثيره تايسون يعود في حيّز كبير منه إلى الفضائح السلوكية والأخلاقية، كدخوله السجن لجريمة اعتداء على فتاة، أو التهامه بوحشية أذن خصمه على الحلبة وما شابه ذلك.

إلى ذلك شهدت كرة المضرب تبدلاً من نوع آخر. فاللاعبون الذين تركوا الأثر في الوجدان الشعبي هم نجوم السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. إذ كانوا مميزين بعيشهم حياة ثقافية غنية إلى جانب تطلعهم إلى النجومية. فهناك بيلي جاك كنغ الذي عشق هذه الرياضة، وجون ماكنرو تابع تخصصه في جامعة ستانفورد، وآرثر آشي أصبح بطل الحقوق المدنية. أما اليوم، فلم يعد هناك مجال لمثل هذه الأمور.

إن مقارنة لاعبي اليوم من الشبان (21 إلى 23 عاماً) بعمالقة اللعبة القدامى تبدو غير عادلة، وقد نحتاج إلى مزيد من الوقت لفهمهم. ولكن عندما يكون أكثر الأبطال موهبة بلعبة التنس في مدينة نيويورك هو ماكنرو (44 عاماً) واللاعب الأعلى تصنيفاً هو أغاسي (33 عاماً) فهذا يعني أن هناك مشكلة!!

2 صناعة الأبطال.. الرياضة والترويض

ماجد نعمة

في كتابه "حياتي من أجل نجمة" يروي "إيميه جاكيه"، مدرب المنتخب الوطني الفرنسي الذي أوصله إلى الفوز بكأس العالم عام 1998م، كيف انتقل تدريجياً من لاعب كرة قدم هاوٍ إلى محترف يكره الأضواء والإعلام. وكان رموز الإعلام الرياضي، الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على هذه اللعبة الجماهيرية وحراساً لقواعدها، ينظرون إليه باحتقار وتعالٍ، ليس فقط بسبب جذوره الريفية المتواضعة وتحديه لهذه الأرستقراطية الجديدة بل لتمسكه بمفاهيم وقيم "بسيطة ولكنها قوية" مثل النزاهة والتواضع واحترام الآخرين والعمل" وهي على ما يبدو باتت نادرة مع تحول بعض الألعاب الرياضية مثل كرة القدم والتنس وسباق السيارات والغولف والروكبي وكرة السلة إلى قيم تجارية وإعلانية تدر مليارات الدولارات وتسير كأي نشاط اقتصادي، له مخططوه الاستراتيجيون وممولوه وإداريوه ومستغلوه.

خليفة "إيميه جاكيه" على رأس الفريق الوطني الفرنسي "لومير" لم يكن له من قوة الأعصاب ما يسمح له بالدخول في مجابهة مكلفة إنسانياً وعصبياً مع الإعلام ومع اللاعبين - ومسانديهم - الذين كفوا عن أن يكونوا لاعبين منذ أن ارتفعت أسهمهم في سوق العرض والطلب فأصبحوا أيضاً رجال أعمال

ومستثمرين ماليين ناجحين، ناهيك عن كونهم نجوماً تتخاطفها الأضواء وتتسابق عليها شركات الإعلان والمصارف وحتى السياسيون! وهذا ما يفسر الخسارة المنكرة التي أصيب بها هذا الفريق في بطولة كأس العالم عام 2002م في اليابان حيث خسر أمام فريق السنغال المتواضع في إمكانياته المادية الغني بطموحاته الفردية وقواه المعنوية.

صناعة الاحتراف

ولفهم هذا التحول الذي لا رجعة فيه في تطور ما بات يسمى اليوم بالاحتراف الرياضي لا بد من متابعة ما يجري أيضاً خارج الملاعب وحلبات الصراع والتنافس وبعيداً عن فضول عدسات المصورين. لا بد من متابعة كيف يقضي نجم من نجوم الرياضة "المكرسين" عالمياً وإعلامياً وإعلانياً وقته خارج المباريات والتدريبات؟ إنه، بكل بساطة، ينتقل بين مباراة وأخرى بطائرته الخاصة من عاصمة إلى أخرى ليقابل مدير أعماله أو ليبيع صورته بأغلى الأثمان لهذه الشركة أو لتلك المجلة أو ليتفاوض سراً أو علناً مع أي نادٍ يعرض عليه سعراً أعلى من السعر الذي يتقاضاه من ناديه الذي رعاه وشهره.

هل تعبر الرياضة عن واقع الخلافات الدولية وتحولها إلى مناسبات للتنفيس عن الاحتقان القومي وما شابه ذلك؟

كيف لا يكون الأمر كذلك عندما تنعدم الحدود أو تكاد بين الرياضة والتجارة؟

فقد تحولت المنافسة الرياضية إلى نشاط استعراضي بحت لم يعد هدفه الأساسي تحطيم الأرقام القياسية بقدر ما هو جذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين وبالتالي من الزبائن. وفوق هذا وذلك فإن نجوم الرياضة باتوا يؤدون، مرغمين أو راغبين، الدور نفسه الذي يقوم به نجوم السينما والمسرح والأغنية والإعلام ويعتبرون أنهم طالما يسهمون في إنتاج الثروات وفي توفير أوقات ممتعة لملايين الناس فمن الطبيعي أن يعاملوا على هذا الأساس.

والواقع أن المبادئ التي قامت عليها الألعاب الاولمبية منذ ما يقارب القرن أصبحت من ذكريات الماضي خاصة مع طغيان الاحتراف على الغالبية العظمى من الرياضات والتوسع المذهل في أعداد مدمني الرياضة.

ففي عام 1901م، على سبيل المثال، حضر مباراة نهائي بطولة بريطانيا لكرة القدم بين ناديي نوتنهام وشيفيلد أكثر من 114,000 مشاهد. واعتبر هذا الرقم قياسياً آنذاك. بعد حوالي قرن من الزمن على هذا الحدث الرياضي العالمي، وبفضل ثورة الاتصالات المذهلة تمكن أكثر من ملياري إنسان من متابعة ومشاهدة مباراة نهائي كأس العالم بين إيطاليا والبرازيل عام 1994م!

وهذا ما دفع الكاتب الأوروغواني إدواردو غاليانو، وهو مثله مثل ملايين أبناء أمريكا اللاتينية، من عشاق كرة القدم، إلى القول أن هذا الجمهور "يشكل أعظم حشد بشري في تاريخ الإنسانية" وهو حشد مرشح للتضاعف باضطراد مع كل مونديال أو نهائيات رياضية تهم وسائل الإعلام وشركات الإعلان.

علاقات دولية

هذا التحول يطرح بدوره وظيفة الرياضة الجماهيرية ليس فقط في التعبير عن الثقافة الاجتماعية والسياسية الجديدة ولكن أيضاً عن العلاقات الدولية خاصة في بعض الأزمات عندما تتحول المباريات الرياضية إلى مناسبات للتنفيس عن احتقان قومي أو تعويض عن ميزان قوى مختل أوتعبير عن احتجاج عن أوضاع داخلية أو دولية معينة. بمعنى آخر باتت الرياضة بتشعباتها ومضاعفاتها ومعانيها من أهم الظواهر الاجتماعية والثقافية والنفسية والاقتصادية في عالم اليوم ولم يعد من الجائز وضعها فقط في خانة الترفيه الجماعي أو الأداء الفني أو حتى كما كان يهدف المثال الأولمبي إلى تنمية ثقافة السلم والتفاهم بين الشعوب. إنها، بما تفرزه من عنف بنيوي ومن تشجيع غير مباشر لظاهرة الغش من أجل الربح من خلال تعاطي المنشطات ومن سعي لصرف الأنظار عن المشكلات الحقيقية للمجتمع والعالم، تدفع بعض المحللين لطرح بعض التساؤلات المحرجة حول الوظيفة "التخديرية" لهذا النشاط النبيل. وذهبت هذه التساؤلات في غلوها إلى حد اتهام الرياضة الجماهيرية، بطقوسها وقوانينها المكتوبة والعرفية وممارساتها العلنية والخفية والصراعات التي تدور في ملاعبها وحولها، بأنها "الألعاب الأكثر جدية في العالم".

يقول المثل الإنجليزي: "لا شيء ينجح كالنجاح" والرياضة بشكل عام، وكرة القدم بشكل خاص بصفتها الرياضة الأكثر شعبية في العالم، ما كانت لتتعرض لمثل هذه الانتقادات لو أنها لم تنجح، مهما كانت الوسائل والمبررات، في فرض نفسها على

المبادئ التي قامت عليها الألعاب الأولمبية أصبحت من الماضي مع طغيان الاحتراف على غالبية الرياضات

المشهد العالمي اليوم واقتحام حقل تفكير الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية والاقتصاد والسياسة والإعلام الأكثر جدية والذين انقسموا، إذا صح التعبير، إلى معسكرين لكل منه موقفه:

الموقف الأول يعبر عنه بامتياز الكاتب الإسباني البيروفي الأصل، ماريو فارغاس لوسا ويعتبر أن كرة القدم بقواعدها وخاصياتها الشكلية وقطيعتها مع الحياة اليومية الرتيبة، المرهقة، هي "مولد مشاعر قوية ولذة مكثفة". إنها "تجربة عابرة وآنية "تزول آثارها مع انتهاء المسبب" أي عندما يطلق الحكم صفارة النهاية. ولذلك فمن الظلم أن نحمل هذه الظاهرة "العادية" أكثر ما تتحمله من معان ودلالات وتأويلات. إنها مجرد لذة عبرة في زمان عابر!

قواعد اللعبة

هذه النظرة الجمالية قد تنطبق على كرة القدم منذ بضعة عقود عندما كانت قواعد اللعبة الكروية أهم من قواعد السوق والسياسة. لذلك فالتحليل الآخر لهذه الظاهرة "العادية" ولهذه اللعبة "المسلية" بات يفرض نفسه ويتمتع بمصداقية أكثر. وعلماء الاجتماع الرياضي في غالبيتهم الساحقة يتبنون، بشكل أو بآخر، التحليل الثاني. ففي رأيهم أن صراع اللاعبين فوق أرض الملاعب يخفي الكثير من الصراعات الأخرى الأساسية والفرعية خارجها وحولها والتي لا تشكل المباراة سوى قمة جبل الجليد من رهانات ومصالح اجتماعية وسياسية وتجارية هائلة.

ولعل النقد الأكثر حدة للظاهرة الرياضية الممسرحة في عالمنا الحديث هو ذلك الذي يصف ملايين المدمنين على متابعتها ومناصرتها بـ "القطعان الرياضية" وهو على كل حال عنوان كتاب مثير لعالم الاجتماع الفرنسي جان ماري بوم، كما هو موقف الروائي الإيطالي الكبير أمبرتو أيكو في دراسته التي كرسها لكرة القدم تحت عنوان: "لعبة القتل والبصبصة". ويعتبر هذا الروائي، شأنه شأن العديد من علماء الاجتماع الغربيين أن "المجتمع يجد توازنه بتشجيع ملايين الأشخاص على الكلام عن الرياضة للحيلولة دون الكلام عن أشياء أخرى". هذه النظرة النقدية المتشائمة ليست دائماً بدون أساس. فهوس كرة القدم والتعصب الأعمى



الهدف..!

لها، يتجليان بشكل لافت في المدن العريقة التي كان لها أمجاد غابرة وباتت الآن في طور الانحدار والانكسار (الاقتصادي أساساً)، وتسعى حالياً إلى استعادة هذه الأمجاد الضائعة من خلال أنديتها الرياضية كما هي الحال في مرسيليا ونابولي وليفربول ومانشستر.. وكأن من الانتصارات الرياضية، المصحوبة في غالب الأحيان بعنف لا يوصف (الهوليغانية مثلاً نشأت في ليفربول المنكوبة صناعياً واجتماعياً) قادرة على التعويض عن هذا الفردوس الاقتصادي الضائع بفردوس مصطنع ووهمي. أما انتصارات المنتخبات القومية فغالباً ما توظف هي الأخرى لأغراض الدعاية والتعبئة وتحقيق إجماع وطني مفقود في ظروف وحول قضايا إشكالية أخرى.

وفي مواجهة هذه التحولات بالغة التعقيد والأسباب، قد يكون من الحكمة الاكتفاء، كما يفعل الكثيرون من عشاق الرياضة الحقيقيين الذين يشعرون بحنين جارف إلى بدايات كانت واعدة مفتوحة قبل أن تتحول إلى حقائق خاضعة لمعايير التقنية الباردة ولقوانين العرض والطلب، بالنظر إليها كما هي وبدون محاولة الغوص في متاهاتها وكواليسها.

ويختصر الكاتب الأمريكي اللاتيني إدواردو غاليانو الحالة التي وصلت إليها الرياضة الجماهيرية من خلال لعبة القدم بجمل قليلة تغني عن ألف خطاب: "هذا اللاعب الذي بدأ يلعب بدافع عشقه للعب، في أزقة الضواحي، أصبح الآن يلعب في الملاعب الكبرى كواجب. يلعب كما يعمل وهو مخير بين الفوز أو ...الفوز! رجال الأعمال يشترونه، يبيعونه، يعيرونه. وهو ينجر وراء ذلك، لا حول ولا قوة له إلا القبول مقابل مجد موعود. وكلما كان يربح، كلما ازدادت ثروته وتعمق سجنه".

رياضيو اليوم لم يعودوا لاعبين بل عمالاً موظفين. أصبحوا كالقط الذي لحس المبرد: فكلما اشتهروا وكلما انتصروا باتوا أقرب إلى الهاوية.

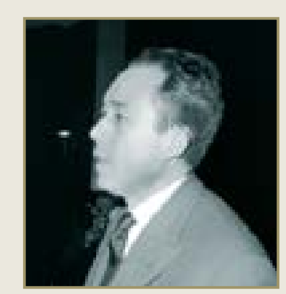
هل حان الوقت لتحرير الرياضة من الترويض؟

الكرة في ملعب الأدباء

إنهم يجهزون على الجياد أليس كذلك؟

"في النشاطات الإنسانية غير الرياضية يبدأ الأفول مع الشيخوخة. أما بالنسبة إلى لاعب الكرة فهو يبلغ سن الشيخوخة في الثلاثين من عمره.. أو قبل ذلك إذا ما سقط ضحية إطلاق نار، أو إذا ما خانه الحظ فتمزقت إحدى عضلاته أو إذا ما تعرض لركلة رجل حطمت إحدى عظامه التي لا يمكن لها أبداً أن تعود كما كانت. ويستفيق لاعب الكرة هذا في صباح يوم حزين ليكتشف أنه لعب على حياته وقامر بها من أجل رهان واحد وأن المال قد اندثر ومعه الشهرة. الشهرة، تلك السيدة الهاربة التي لم تترك له في رحيلها أي بصيص أمل أو عزاء..."

أدواردو غاليانو
روائي من أمريكا اللاتينية



مدرسة الكرة

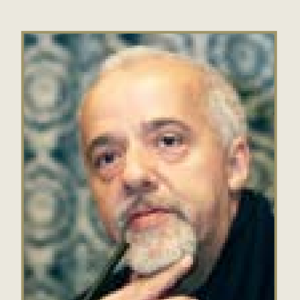
"كل ما أعرفه بشكل أكيد عن أخلاقية البشر وواجباتهم، إنما أدين به لكرة القدم."

البير كامو
روائي

أحلام للبيع

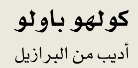
"عندما يتسمر خمسة ملايين رجل في كافة أنحاء العالم أمام شاشة التلفزيون في ساعات الليل والنهار اللا معقولة، وكأنهم تحت وقع نوع من السحر، فقد يكون ذلك لأنهم بحاجة إلى أن يحلموا... يحلمون أنهم، من خلال بلاتيني أو بيتيغا، الأعظم، الأقوى، الأفضل..."

فرانسواز جيرو
روائية وصحفية فرنسية



لعبة التغيير

"أعتقد أن الروائي ولاعب الكرة يشتركان في الهدف نفسه. فالروائي الذي يمسك بقلمه يشبه لاعب الكرة الذي يسعى لتسجيل هدف في المرمى. لماذا؟ لأن كلاهما لن يغير شيئاً من هذا العالم! ورغم ذلك فالأدب ولعبة كرة القدم يجب أن يوجدا لأنهما يعطيان القارئ أو المتفرج قوة بإمكانها أن تغير حياته"



كولهو باولو
أديب من البرازيل

الحرب لعبة ممتعة

"الروح الرياضية الحقيقية تشتمل دائماً على بعد ديني. فعندما حل منتخب كرة القدم النيوزيلاندي في بريطانيا وهزم الفريق الوطني الإنجليزي منذ سنوات عديدة أصيبت بريطانيا العظمى بالذهول كما لو أنها خسرت الحرب"

أندريه موروا
كاتب وروائي

صورة شخصية

عبدالعزيز البابطين..
مال وأعمال وشِعر ..وحياة فطرية!

تقول: عبدالعزيز البابطين، فيفكر رجل الأعمال بالتجارة والصناعات المختلفة، والمثقف يذهب بفكره إلى المؤسسة التي تحمل هذا الاسم وجائزتها الشعرية، أما المهتم بالبيئة فيفكر بالمحمية الطبيعية..

وليس تنوع الاهتمامات وحده هو ما يدعو إلى التوقف أمام شخصية الرجل، بل النجاح الذي بإضافته إلى هذا التنوع تتحدد الخطوط العريضة لصورته الشخصية التي يرسمها لنا الزميل محمد أبو المكارم.

هو من رجال الأعمال البارزين في الخليج، وله نشاط تجاري وصناعي معروف في البتروكيماويات والصناعات الغذائية في أوروبا وأمريكا والصين والشرق الأوسط، إضافة إلى استثماراته الضخمة في مجال العقارات. وعلى امتداد الوطن العربي، برزت شخصيته الثقافية من خلال ما تقدمه مؤسسته للأدب العربي المعاصر ممثلاً في جائزة البابطين للإبداع الشعري والأنشطة الثقافية التي ترافق الجائزة كل عامين. إلى ذلك بلغ اهتمام الرجل بالبيئة حد إنشاء محمية طبيعية في منطقة الصمّان بصحراء النفوذ، وصارت هذه المحمية تستحوذ على أربعة أيام أسبوعياً من حياته.. فما الذي يجمع هذا إلى ذاك؟ وكيف؟

..كالنقش في الحجر

ولد عبدالعزيز سعود البابطين في الكويت عام 1936م، ونشأ في ظل أسرة محبة للعلم والأدب والشعر، فقد كان والده شاعراً نبطياً، كما كان عمه قاضياً وشاعراً، وخاله نسباً الشاعر محمد بن لعبون من مشاهير الشعر النبطي في الجزيرة والخليج، فأحب الشعر والأدب منذ طفولته، وكتب أول قصيدة نبطية وعمره إحدى عشرة سنة، بينما كتب أول قصيدة عربية بعدها بخمس سنوات تقريباً.

عندما كان طفلاً، كان أبوه يأخذه وإخوته إلى السوق، فيشاهدون ما يجري فيها، ويخالطون الرجال، وإذا جنّ الليل واجتمع الرجال في الديوانية جلسوا في طرفها احتراماً للكبار، وكان أبوهم يحرص على تواجدهم فيها، وعندما يبدأ في سرد بعض مشاهد السوق وما جرى فيها، يكتفي ببدء القصة.. ثم يقول: عبدالعزيز! كنت موجوداً، قصّ علينا ما جرى؟ فيكمل القصة بتأتأته وتلعثمه وأخطائه، حتى إذا ما انفض المجلس وخلوا إلى بعضهم بدأ الأب بالنقد والتوجيه. يقول عبدالعزيز: "كان لتلك المجالس دورها في حياتي، فقد ربّت فيّ الشجاعة الأدبية، والجرأة على خوض الحياة ومواجهة صعابها".

لم يكن عبدالعزيز من عائلة ثرية، لكن طموحه لم يقف عند حد. بدأ بوظيفة حكومية متواضعة يكسب منها قوته، وأضاف إليها عملاً تجارياً بسيطاً في فترة المساء، ثم قاده طموحه وفكره المتّقد إلى فكرة البحث عن الزبائن والذهاب إليهم بدلاً من انتظارهم في متجره الصغير، فبدأ بسيارة نقل صغيرة (حوض) للتنقل ببضاعته وعرضها على الزبائن، وكانت تلك بداية فكرة التسويق في الكويت، ثم بدأ بعدها مشوار بيع الجملة على التجار لتتوسع تجارته فيما بعد ويصل إلى ما وصل إليه من نجاحات في الصناعة والتجارة والاستثمارات المختلفة.

في رحاب الثقافة

عندما فتح الله له باب الثروة، غلبه حنينه إلى الأدب. فأنشأ في العام 1989م "مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري" رغبة منه في دعم الشعر العربي الجاد، وهو القائل:

"سيذكر أهل الشعر والشوق أنني
عملت بما أوتيت من سعيٍ جاهدِ
أعيد لبيت الشعر حلو رنينه
وسحر القوافي في البيوت الشواردِ"

تعقد هذه المؤسسة دورتها كل عامين، وتسمى كل دورة باسم شاعر من شعراء العربية، ويعنى فيها بكل ما يتصل بتراث وحياة هذا الشاعر بالجمع والتحقيق والدراسة، كما تقدم جوائزها المعروفة لأفضل قصيدة وديوان ودراسة نقدية، وجائزة رابعة تكريمية للإبداع في مجال الشعر. وقد صدر عن المؤسسة حتى اليوم ما يزيد على سبعين مجلداً من الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية، كان من أبرزها معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين.

وإضافة إلى ذلك، أنشأ البابطين جائزة ثانية سمّاها "جائزة أحفاد الإمام البخاري"، وهي سنوية هدفها ترميم الجسور الثقافية بين الوطن العربي والدول الإسلامية المستقلة حديثاً في آسيا. وكان الرجل قد أولى التعليم اهتماماً بالغاً منذ العام 1974م عندما أنشأ بعثته الكويتية للدراسات العليا، وهي عبارة عن منح دراسية في جامعة الأزهر بالقاهرة، استفاد منها نحو 700 طالب وطالبة من آسيا وإفريقيا وأوروبا. مُنح عبدالعزيز البابطين عدة شهادات دكتوراة فخرية من جامعات عربية وإسلامية، وعدداً من الأوسمة من رؤساء الدول، وهو عضو في عدد من المؤسسات الثقافية والفكرية وعضو مجلس أمناء "مؤسسة الفكر العربي".. ومع ذلك، فهو يجد ما يلزم من الوقت لإضافة اهتمام آخر إلى اهتماماته.

الهواية وعقدة الذنب

لعبدالعزيز علاقة حميمة مع الطبيعة والحياة الفطرية، وهو يعتبرها علاقة ضمير تجدول حياته اليومية على نحو متخم بالشاعرية والشفافية. ويروي الرجل بنفسه حكاية هذه العلاقة فيقول إنه حين كان في الثالثة عشرة رافق والده في رحلات الصيد البرية. وفي أحضان الرمال عاش روح المغامرة الباحثة عن الغزلان السارحة، والأرانب، والحباري، وأسراب القطا التي أعطت للصحارى إحساساً مفعماً بالحيوية. ثم تطورت هواية الصيد، وخرجت عن حدود الجزيرة العربية إلى العراق، إيران، سوريا، مصر، ليبيا، الجزائر، المغرب، السودان، الصومال، وتعمقت في القارة الإفريقية فوصلت إلى مالي..! وتوسعت الخريطة شرقاً فامتدت إلى أذربيجان، باكستان، تركمانستان، وأوزبكستان..! والصيد هواية ممتعة. غير أن الهواية أنبتت في داخل عبدالعزيز البابطين ما يشبه "عقدة الذنب"؛ خاصة كلما عادت به الذاكرة إلى الصحارى ومغامرات الطرد والنيل من الطرائد. تحولت عقدة الذنب إلى عمل بنّاء يعيد للحياة الفطرية بعض الاعتبار. وتجسد العمل في مشروع محمية طبيعية يبلغ طولها عشرة كيلومترات في منطقة الصمّان بصحراء النفوذ.. كانت البداية مع مجموعة من الأرانب البرية اصطادها البابطين من إحدى الصحارى السورية. ثم اشترى الرجل من الحكومة السودانية عدداً من الغزلان، ومن جنوب إفريقيا جلَب عدداً من النعام والمها وحمير الوحش والغزلان وطيور الحمام..! وفي إحدى المناسبات أهداه الشيخ أحمد الفهد الصباح خمسين طير حباري انضمّت إلى حيوانات المحمية. ويقول "إن التصاقي بالمحمية نوع من العشق.. إنه تجاوب مع نفسي وإرضاء لضميري وتكفير عن سيئاتي. لأني أشعر بأنني أخطأت في حق هذه الحيوانات، وأحاول قدر الإمكان تعويض ما فات".

الاطمئنان إلى المستقبل

ولأن المؤسسات الثقافية التي أنشأها البابطين مرتبطة بشخصه، كان لا بد من إثارة موضوع مستقبلها من بعده. وفي هذا المجال يقول: "من الظلم للمتلقي العربي أن تنتهي هذه المؤسسات بنهاية شخص. وبهذا فقد شرعت في وضع ترتيبات تكفل لهذه المؤسسات الاستمرارية من بعدي. لقد أهدتنا الحكومة الكويتية قطعة أرض، وسنبني عليها برجاً يصل إلى خمسين طابقاً، وسنسلمه لوزارة الأوقاف لتشرف عليه، ولينفق ريعه على هذه المؤسسات. إنني باكتمال هذا المشروع سأكون مطمئناً لجهة استمرارية ما بنيته". أما الثروة التي كانت وراء كل هذا، فيقول عنها عبدالعزيز البابطين: "إن الثروة لوحدها والسعادة لا يلتقيان. الثروة في أغلب الأحيان تكون نقمة على صاحبها، ولن يجد الإنسان السعادة إلا إذا أحسن استعمال ثروته. ومن لا يستثمر ماله في خدمة الآخرين يفوّت الفرصة على نفسه".





لغتنا.. على الهواء مباشرة

اكتسحت اللهجات العامية المحكية هنا أو هناك، عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وأبرزها الفضائيات العربية، كافة بيوت المشاهدين العرب على حد سواء في مشرقه ومغربه. وعندما تطلّ الفصحى برأسها في بعض الفقرات، فإن حالها تبدو غير مشرّفة، وتبعث على المزيد من الشعور بالاستفزاز والتشاؤم. الناقد جهاد فاضل يعرض لنا جذور المسألة وخطورة الوضع الذي آلت إليه، باحثاً في خلفياته السياسية وحال المؤثرات الاجتماعية منه.

حتى نشرات الأخبار بدأت تخالطها العامية، والخطير فيها أن بعضها صار خطياً مكتوباً مسبقاً

شهد النصف الأول من القرن العشرين صراعاً مريراً بين العامية والفصحى. فقد وُجد في تلك المرحلة من دعا، في مصر وفي لبنان على الخصوص، إلى إهمال العربية وإحلال العامية مكانها، أو العاميات التي تفرعت عنها. قال هؤلاء إن العربية سجينة الكتب القديمة وبعض الدوائر المغلقة التي فشلت في عقد صلة بين الفصحى وبين الحياة، كالجامع الأزهر، وكلية دار العلوم، ومجامع اللغة، وما إليها. وهي بعيدة عن الألسن لا ينطق بها أحد تقريباً. وهي في واد والعلوم والمعارف الحديثة في واد آخر. ناهيك عن أن علماء اللغة المعاصرين في البلدان الأجنبية الراقية يرون أن كل لغة غير محكية، هي لغة تضرّ بالعقل وتسيء إلى قابلياته ومداركه.

وقد تصدّى بالطبع كثيرون للدفاع عن أم اللغات وتبيان تهافت منطق خصومها وأعدائها، معتبرين، ولأسباب مختلفة، أن اللغة العربية قد تجاوزت المأزق التاريخي الذي صادفته اللاتينية مثلاً. فهي لم تعد سجينة بؤر وبيئات ومراكز ضيقة، وإنما صارت تتجول في كل مكان. إنها تُدرَّس الآن في المدارس والجامعات، وبها تُكتب الأبحاث والدراسات..

بدايات كانت تدعو إلى التفاؤل

وعندما أطلّ عصر وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة، اعتبر أنصار العربية أن لغتهم انتصرت نهائياً على كل عوامل الاندثار والفناء، وأنها ستكون لغة المستقبل كما كانت لغة الماضي والحاضر. إنها لغة قديمة ومتجددة وقابلة للتجدد على الدوام. وهذا التجدد كان باستمرار خاصة من خصائصها اللافتة والمميزة. لقد صحبت الدهر وهو فتى كما يقول الشاعر القديم، وقد رافقتها الفتوة في مراحل بلا حصر، إلى أن تخلفت وفسدت وانهارت إبان الحقبة العثمانية لدرجة أنها كانت تُدرّس في بلاد الشام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بواسطة اللغة التركية إلى أن عادت عامرة بالحيوية مختزنة لطاقات قابلة دائماً للتوظيف في معارك التطور والتحديث. وكل هذا يؤكد صلاحها للحياة وتهافت وجهة نظر خصومها.

وقد عمل القرن العشرون لصالحها، إن لم نقل إنه كان القرن الذي نفض عنها غبار القرون الخوالي وأعاد إليها الروح الذي كادت تفقدها، وبث في عروقها الدماء والتجدد. فها هو يزودها بوسائل اتصال حديثة يجعلها، وهي بحلتها الجديدة، بمتناول كل عربي أنّى أقام، سواء في البادية أو في الحاضرة. فالصحيفة والمجلّة، يسّرتا وصولها إلى كل مكان. ولأن لغة هاتين المطبوعتين لم تكونا لغة الجاحظ ولا لغة المنفلوطي، بل لغة أخرى يمكن أن نطلق عليها عبارة اللغة العربية العصرية، أو اللغة العربية الحديثة، فقد اطمأن الغيارى على العربية إلى أن الصدام بينها وبين العامية قد حُسم نهائياً لصالحها.

وبمجيء عصر الراديو والتلفزيون، زاد تفاؤل الغيارى على العربية. فإذا كان تداول الصحيفة والمجلة والكتاب محصوراً على الذين يعرفون القراءة والكتابة دون سواهم، وهؤلاء قلة في عالم الأمية الطاغي عندنا، فإن الراديو يدخل إلى كل أذن. ولكن الراديو فقد نفوذه الذي كان له قبل صعود التلفزيون، وبالتالي صعود الفضائيات، لصالح هذه الأخيرة، نظراً لنفوذها المتعاظم الذي غلب نفوذ أية وسيلة إعلام أو اتصال أخرى. وهنا زاد تفاؤل هؤلاء الغيارى على أساس أنه لا يُعقل ألا تصبّ اللغة التي ستُتداول في هذه الفضائيات الواسعة النفوذ في غير صالح العربية. فهل يمكن أن تنطق "الفضائية" بعامية لا تسري إلا على شفاة أبناء هذه المدينة دون المدينةً المجاورة؟ بل هل يمكن أن يُفتح الباب أصلاً أمام هذه اللهجات العامية المحلية، للدخول على الفضاء مباشرةً، ولمخاطبة العربي الآخر في كل مكان تحت الشمس؟

على عكس المسار المتوقع

الواقع يفيد أن هذا هو الذي حصل فعلاً. فاللغة التي تصول وتجول على شاشات الفضائيات العربية التي تدخل كل بيت، والتي فاق نفوذها نفوذ أية وسيلة اتصال أخرى، هي اللغة العامية (إن صح أن تُدعى كذلك) أولاً، تليها اللغة العربية. ولا يمنع ذلك بالطبع أن تطل العربية بوجهها الخجول من حين إلى آخر، سواء في نشرة أخبار، أو في قراءة الصحف العربية والأجنبية، أو عبر متحدث من الداخل أو الخارج أصرّ على التحدث بعربية سليمة أو شبه سليمة. أما الشائع على شاشات هذه الفضائيات فهو تلك الصالونات والمجالس والديوانيات والبرامج الحية التي تُنقل مباشرةً إلى المستمع باللهجة العامية التي يتحدث بها أصحابها، سواء في منازلهم، أو في الشارع، أو في أي مكان.

حتى نشرات الأخبار لم تعد تُبَثّ كلها بالعربية، بل بدأت العامية تتسرب إليها. فقسم كبير من نشرة الأخبار، المسائية أو غير المسائية، على إحدى الفضائيات اللبنانية، نجده محكياً أو مكتوباً بإحدى العاميات اللبنانية. يمهد المذيع بموجب سطرين، لوقوع حادث أمني أو سياسي أو اقتصادي حصل في البلد. بعد هذين السطرين يظهر مذيع آخر، من ضمن تحقيق أجراه، أو بدون تحقيق، يتلو، وأحياناً يقرأ على ورق أمامه، كلاماً كُتب بعامية لبنانية محضة لا يداخلها أي كلام بالفصحى. وكثيراً ما يبدأ هذا المذيع الثاني مداخلته بعبارة صباح الخير، أو مساء الخير بالفرنسية، كما لو أن من يخاطبهم فرنسيون أو أجانب.

والخطير أن هذه العامية الفضائية، إن جاز التعبير، لم تعد شفهية أو ارتجالية، بل إنها في جزء منها خطية مكتوبة مسبقاً. ذلك أن المذيع يلجأ أحياناً إلى أوراق أمامه يقرأها. وهذه الأوراق مكتوبة بالعامية قطعاً، ولو لم تكن كذلك لقرأها بالفصحى. وهذا أمر لا أعتقد أنه موجود في غير لبنان. فالمذيع، أو المتحدث، في الفضائيات العربية الأخرى، الخليجية أو غير الخليجية، إذا نطق بالعامية، فنطقُه يتم عفواً وشفاهةً، وليس انطلاقاً من أوراق أمامه مكتوبة بالعامية. وهو ينطق، أي المذيع العربي، بهذه العامية عن عدم اكتراث أو تدبر، وليس انطلاقاً من أيديولوجيا ما. أما في لبنان فالأمر يختلف. فلو سألنا أحد هؤلاء المذيعين اللبنانين الذين يقومون بتحقيقات ميدانية تُبَثّ خلال نشرات الأخبار المسائية على الخصوص عن السبب الموجب الذي يكمن وراء اعتماد العامية في هذه التحقيقات لظفرنا بأكثر من جواب بصدد هذا السبب الموجب، منها أن العامية أصلح لهذه التحقيقات من العربية، وأخف

..والفصحى التلفزيونية ليست أحسن حالاً، فمن أية ندوة فكرية يستخلص المراقب ألف خطأ لغوي خلال ساعة أو اثنتين

دماً، وأقرب إلى فهم الجمهور. ولكن علينا ألاّ نعتبر هذا الجواب هو الجواب الجامع المانع، وبالتالي أن نبرئ صاحبه من "الأيديولوجيا" التي أتينا على ذكرها.

لغة الديوانيات والصالونات

يمكن تلخيص أكثر برامج الفضائيات العربية، من لبنانية وغير لبنانية، بأنها عبارة عن ديوانيات وصالونات مفتوحة. يمكن لهذه الديوانيات والصالونات أن تتعرض لأي موضوع: سياسي، اجتماعي، صحي، اقتصادي، زراعي، صناعي، بيئي. وباستمرار بالعامية إلى أن يثبت العكس. وهذه الديوانيات والصالونات تستضيف كل الناس: ربة المنزل، الخبيرة الصحية، المرأة العاملة في نشاط اجتماعي، الطبيب، السائق، العالمة النفسانية أو العالم النفساني. الضابط ورجل الشرطة، وكل ما يخطر على البال. البرامج لا تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً. ساعة من البث المتواصل أمام مشاهد لا يتناهى إلى بصره وأذنه سوى لغة واحدة في الأعم الأغلب، هي اللغة العامية. ولأن الضرب المتواصل يفلّ اللحام، كما يقول المثل الشعبي، فإن هذا المستمع غارق في لجج لهجات عامية متعددة، متنوعة، مختلفة، للكلمة العربية الواحدة فيها أكثر من مصطلح واحد. هذا المستمع لفرط تعاقب هذه اللهجات والمفردات والمصطلحات العامية عليه، اعتاد عليها، بل وفهمها حق الفهم. فالكويتي، على سبيل المثال، بات يعرف العامية اللبنانية كواحد من أبناء هذه الأخيرة. واللبناني الذي يستمع يومياً، عبر هذه الفضائية الخليجية أو تلك، إلى سائر لهجات الخليج، بات يعرفها أو يعرف قسماً كبيراً منها. ولكن ماذا لو أن هذه الفضائيات العربية اعتمدت من البداية سياسة تنسيق قضت، في حدّها الأعلى باعتماد العربية دون سواها، وفي حدّها الأدنى باعتماد لغة عربية ميسّرة أو لهجة عامية راقية وعصرية؟ أما كان في ذلك خدمة، وأية خدمة، لصالح اللغة الجامعة الواحدة والثقافة الواحدة، والقضايا الوطنية والقومية الواحدة؟ ألم يكن وضع اللغة العربية اليوم هو وضع اللغة الحديثة التي لا يجادل أحد في مصيرها، وفي مستقبلها؟

ليس للفضائيات العربية، بلا ريب، موقف أيديولوجي، أو سياسي مسبق في مسألة طغيان العامية على الفصحى في برامجها. فهي إنما تلجأ إلى برامج ترفيه أو غير ترفيه تجد أن لها إقبالاً عند الجمهور. وفي معرض اهتمامها بتنفيذ هذه البرامج، لا تجد في متناول يدها من المشاركين في هذه البرامج، من يتقن العربية، أو يصرّ على التحدث بها. بل إن العكس هو الذي يحصل. فأكثر المدعوين للمشاركة في هذه البرامج هم من بين من لا يعرف من العربية سوى مثل هذه المعرفة، أن يتحدث بعاميته التي ينطق بها بصورة عفوية، لا أن يتحدث بفصحى لا يستطيع أن يؤلف جملة شفهية واحدة صحيحة بها. أليس ذلك هو الأسلم له؟ ألا ينطبق هذا الوضع لا على أكثر من ستتصل بهم الفضائية للمشاركة في هذه البرامج، بل على أكثر من يتألف منهم المجتمع العربي؟ أليست الغالبية العظمى في هذا المجتمع تجهل العربية جهلاً يكاد يكون تاماً؟ فهل تُلام الفضائية العربية إذا كانت صورة برامجها هي صورة المجتمع التي طلعت منه، والتي توجه برامجها إليه؟ ألا تهدف الفضائية العربيّة إلى تقديم برامج مشوقة ومثيرة وناجحة؟ فبأي حق يوجه إليها اللوم إذا لجأت إلى ما هو ممكن ومتاح أمامها، أي إلى أشخاص يتكلمون بلغة محكية هي لغة التفكير كما هي لغة اللسان في عفويته وتلقائيته؟

غايات غير معلنة

يمكن بالطبع تفنيد كل هذه الحجج التي يسوقها "الفضائيون" للدفاع عن سياساتهم التي يمكن أن تؤدي، مع الوقت، إلى خلخلة عمارة العربية، وإلى نشوء ظروف جديدة تجعل من العامية لغة مكرسة ولو بصورة غير رسمية في البداية. فإذا زاد ضمور العربية مع الوقت، وباتت العامية هي المستخدمة بالفعل، فما المانع من أن تتكرس لغة رديفة أو لغة بديلة مع الوقت؟ ألا يُنبئنا تاريخ اللغات بأن انهيار لغة وقيام لغة أخرى مكانها لا يحتاج إلى قرار حكومي أو غير حكومي؟ ألم تقم اللغات الأوروبية التي أشرنا إليها أعلاه، بصورة عفوية وبلا قرار رسمي؟ لم يعلن أحد وفاة اللاتينية بصورة رسمية، كما لم يعلن أحد ولادة اللغات التي انبثقت عنها وهي الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية وسواها. بل تم ذلك بصورة عفوية، وكأنه مجرد إعمال لقانونٍ مضمر أفرزته طبيعة الأشياء.

عامية راقية وأخرى رثّة

ينتقد الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي، العامية المصرية، والعربية عموماً، المستخدمة في وسائل الإعلام، وفي الأغنيات أيضاً، في وقتنا الراهن. فيقول إن هناك فرقاً شاسعاً بين الأغنية التي كان أمير الشعراء شوقي يكتبها لمحمد عبد الوهاب، مثل: "بلبل حيران"، أو "في الليل لما خلي"، أو "النيل نجاشي"، وبين الأغاني العامية المبتذلة التي نستمع إليها الآن. فالعامية، كما يضيف حجازي، ليست عامية واحدة، وإنما عاميات. وإذا كنا لا نستطيع في نهاية الأمر، والأسباب عديدة، أن نقضي على اللهجات العامية قضاءً مبرماً، فلماذا لا نحاول الترقي بهذه اللهجات وتقريبها من الفصحى؟

أكثر برامج الفضائيات العربية، من لبنانية وغير لبنانية، عبارة عن ديوانيات وصالونات مفتوحة

الواقع أن أكثر العاميات الفضائية عاميات رثّة، مبتذلة وخالية مما تتوافر عليه العامية الأصيلة، عامية الأرياف والجبال. فالعاميات الفضائية كثيراً ما تكون عامية مدينية (نسبةً إلى مدينة) أو شبه مدينية، وهي عامية فاقدة لأية شخصية أو قوام أصيل.

إذا أخذنا على سبيل المثال، عامية هذه الفضائية اللبنانية، أو تلك، لوجدنا أنها عامية إحدى قرى منطقة كسروان، أو عامية كسروان، أو عامية حيّ الأشرفية في بيروت، لا تلك العامية اللبنانية الأخرى التي كتب بها الرحابنة مسرحياتهم وأعمالهم الشعبية الغنائية، ولا تلك العامية التي نعثر عليها في القرى الجبلية، أو في سواها من الأمكنة التي حافظت على تراث شعبي عريق استقى منه فنانون خالدون كالرحابنة وعمر الزعني ورشيد نخلة وزكي ناصيف وفيلمون وهبة وأسعد السبعلي وأميل مبارك وسواهم. إن استيحاء هذا التراث وهب الخلود لهذه الأسماء المضيئة في تاريخ الفن والأدب في لبنان في حين أن الإنصات إلى اللهجات الشعبية الرثة الشائعة الآن في فضائياتنا، يكفي وحده للاقتناع بأن استخدام مثل هذه العامية إنما يتم في الوقت الضائع، ومن ضمن عملية استهلاكية في جوهرها لا أكثر ولا أقل.

ذكر الشيخ عبد الله العلايلي يوماً أن مستشرقاً ألمانياً ألقى مرة محاضرة في أحد منتديات القدس عام 1938م، قال فيها إنه يتابع منذ سنوات بعيدة هذا الصراع عند العرب بين العربية والعامية ولكنه – والكلام للمستشرق الألماني – مع العربية وتطورها وتطويرها من نوع تيسير صرفها ونحوها، وفتح نوافذها للعصر، وللعامية معاً بحيث تغتذي منها وتتفاعل معها. وهو، على القطع، لا يحبذ اعتماد العامية مكانها. أما لماذا، قال هذا المستشرق، فلأنه لا سبيل على الاطلاق للقضاء على هذه الازدواجية اللغوية. فحتى لو ألغينا الفصحى، وأحللنا محلها العامية، فإن هذه العامية لا بد أن تتحول مع الوقت إلى لغة نخبة وثقافة، وأن تُفرز عامية جديدة تسري على ألسنة عامة الشعب. وطالما أن الأمر سيكون على هذه الصورة، لماذا لا يتم اللجوء إلى التقريب بين العربية والعاميات المتحدرة منها؟ أليست العامية وليدة الفصحى؟ ألم يؤلف العالم اللغوي الشيخ أحمد رضا موسوعة علمية باسم "ردّ العامي إلى الفصيح"، أثبت بموجبها أن العامية هي عربية سرت على شفاه الشعب فتفككت بعض حلقاتها. ولكنها عربية المنبت والأصل، وليست لغة أخرى.

وأذكر أني سألت مرة أمين عام مجمع اللغة العربية بمصر الدكتور إبراهيم مدكور عن رأيه بالدعوة إلى اعتماد اللهجات العامية، فقال: "أذكر عن لساني أنني وأنا أمين عام مجمع اللغة العربية، لا أدعو إلى لغة مقعدة وبائدة ومهجورة، بل إلى لغة حية متطورة باستمرار، هي أشبه باللغة التي تتحدث بها النخب العربية في مجالسها ومنتدياتها. لقد بتنا نتسامح في مجمع اللغة في أمور كثيرة في قضايا اللغة، ولم يعد التحجر هو عنوان عملنا. ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين الدعوة إلى المحكية وبين تيسير اللغة. إنني مع هذا التيسير، ولكني ضد إلغاء العربية لصالح عاميات ومحكيات. فمثل هذا التوجه سيقود العرب إلى مزيد من التشرذم والتفتيت. وهو ما لا يسعد به إلا الخصم والعدو".

بصورة لا واعية على الأرجح، تحقق الفضائيات العربية اليوم ما عجز عن تحقيقه الإنجليز في مصر، والفرنسيون في لبنان، زمن استعمارهم للبلدين. ففي مصر، حاول الإنجليز بواسطة بعض المستشرقين الأوروبيين الدعوة إلى إحلال العامية المصرية كلغة لمصر. وقام الفرنسيون في لبنان بالمحاولة ذاتها عبر بعض الإرساليات التعليمية.

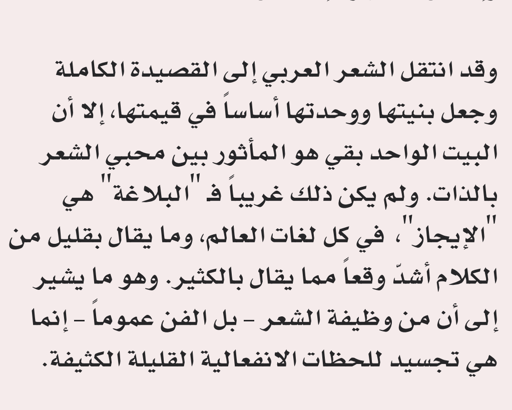
على أننا إذا شكونا من خفة أو هشاشة اللهجة المحكية المنتشرة في الفضائيات اللبنانية والعربية، فلا يعني أن اللغة العربية المنتشرة في هذه الفضائيات هي أفضل بكثير من عامياتها. فالقليل القليل ممن يظهرون على شاشات هذه الفضائيات تكون رحلتهم مع العربية رحلة ميسرة خالية من وعثاء السفر، وكأنهم غرباء في الأصل عنها، ولا يُطلب منهم إتقانها كما يتقن الأجنبي لغته. ولو أراد أحد العارفين بالعربية أن يطارد أخطاء ندوة فضائية ذات طابع فكري يشارك فيها نفر ممن يوصفون بالمثقفين والمفكرين، لخرج بما لا يقل عن ألف خطأ لغوي خلال ساعة أو ساعتين.

الاحتضار

لا تقل أزمة اللغة العربية في الفضائيات اللبنانية والعربية عموماً عن أزمة اللهجة العامية الضحلة السائدة فيها. وتعكس هاتان الأزمتان في الواقع أزمة تسود مجتمعاتنا كافةً. فلو أن العربية بخير في مدارسنا وبيوتنا وجامعاتنا، وفي الحياة الاجتماعية العربية، لظهر أثر ذلك في هذه الفضائيات التي هي في الواقع صورة لأوضاعنا العربية من جوانبها كافةً. وفي الوقت الذي ندافع فيه عن الفصحى، وندعو إلى ضخ مزيد من الحيوية فيها، وإلى فتح الطريق أمامها سواء في التلفزيونات أو في سواها، لا تفوتنا الإشارة إلى أن هناك رأياً بدأ يشيع في أوساط كثير من المثقفين والأدباء العرب، ملخصه أن العربية في خطر، إن لم تكن في حالة احتضار.

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم يقول: نحن آخر جيل بين الشعراء والأدباء العرب، يعرف لغة عربية ... والشاعر المغربي محمد بنيس يقول إن كل الدلائل والمؤشرات تفيد بأن العربية في حالة موت سريري. فهل تتوافر جهة تدعو للتنسيق بين هذه الفضائيات، وتدعوها لعقد اجتماعات دورية بين المسؤولين الكبار فيها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، انطلاقاً من دور خطير تلعبه هذه الفضائيات في صياغة وجدان الأمة ومستقبل لغتها، ومستقبلها نفسه؟ 

ديوان الناس ديوان اليوم



يُتْمُ يتمنّاهُ آباء الشعر..!

في الشعر العربي كما في شعر الشعوب الأخرى تخرج من القصائد الطويلة التي مهما بلغ شأنها، أبيات متفردة لتنطبع في الوجدان الشعبي ولتستمر نابضة بالحياة في كل زمان ومكان. يستعرض لنا فريق التحرير بعضاً منها.

في البدء كان بيتُ الشِّعر؛ قبل أن تكون القصيدة. وكان هذا البيتُ كافياً لسُكنى الفكرة، أو الشعور، أو الموقف. تماماً كما كان بيتُ الشَّعر - بفتح الشين وتشديدها - كافياً لسُكنى الإنسان، واحتضان خصوصيته..! والفرق بين البيتين - الشِّعر والشَّعر - هو أن الأول يعيش مع الدهور والأزمنة محتفظاً بقدرته على الإدهاش وإنعاش الفكر والإحساس معاً.

وقد انتقل الشعر العربي إلى القصيدة الكاملة وجعل بنيتها ووحدتها أساساً في قيمتها، إلا أن البيت الواحد بقي هو المأثور بين محبي الشعر بالذات. ولم يكن ذلك غريباً فـ "البلاغة" هي "الإيجاز"، في كل لغات العالم، وما يقال بقليل من الكلام أشدّ وقعاً مما يقال بالكثير. وهو ما يشير إلى أن من وظيفة الشعر - بل الفن عموماً - إنما هي تجسيد للحظات الانفعالية القليلة الكثيفة.

ألم يقل كولريدج الشاعر الإنجليزي قولاً مأثوراً في ذلك مصرحاً بـ: "أن قصيداً على درجة معينة من الطول لا يمكن أن يكون كله شعراً"..؟!

آباؤنا العربُ وصفوا البيت الواحد بـ "اليتيم" كناية عن أهميته، لا عن انكساره ووحدته. وما "يتيمة الدهر" إلا صفة صارخة لكتاب رأى فيه مؤلفه التميز والتفرد معتمداً على وصف أُطلق - أصلاً - على الدرر النادرة الـ "يتيمة"..!

وحين تناقش قضية البيت الواحد فإن الأكثر حضوراً هو أبو الطيب المتنبي الذي يكاد لا يُنافس، ومنذ عصره حتى عصرنا ذهبت أبياته اليتامى مذهب الأمثال: فـ "الرأي قبل شجاعة الشجعان"، و"ما كل ما يتمنى المرء يدركه"، و"حتفي كأني حتفه"، و"إذا أتتك مذمتي".. كان المتنبي الشاعر الذي أسمعت كلماته "من به صمم"...! لقد استفاد المتنبي من جعل البيت مسكناً للحكمة التي يبحث عنها الناس، واستفاد أغلب الشعراء، أيضاً، بقدرتهم على جذب انتباه الآخرين إلى بيتٍ جميلٍ يسكنه إحساسٌ ما، أو فكرة مضيئة.. أو تساؤل جاد..!

وعلى نسق بقاء البيت الواحد في الذاكرة والوجدان، وتأثيره فيهما، كان الشعراء يجربون ويجربون على أمل أن يترسخ لهم شيء في ذاكرة الناس.. قبل المتنبي وبعده كان همّ الشعراء أن يبنوا لهم ولو بيتاً واحداً..

أبو تمام قبل المتنبي له في الذاكرة العربية أبيات وأبيات.. قد يكون من ألمعها:

السيف أصدق إنباءً من الكتب
في حده الحد بين الجدّ واللعب

بدوي الجبل من المحاولين، ومن حظه الجميل اختزال رؤية في قراءة الحياة:

قد تطولُ الأعمارُ لا مجْدَ فيها
ويضُمُّ الأمجادَ يومٌ قصير

توأم معاصر لثابت قطنة كان معتدّاً بفعله متهاوناً بقصوره في الكلام.. والخطابة، في رؤيته، هي خطابة الشجاعة في الحرب:

فإن لا أكن فيكمْ خطيباً، فإنني
بسيفي إذا جد الوغى لخطيبُ

اختيارات البيت الواحد في شعرنا العربي لا تنتهي. والشابي كان يرى النور في قلبه ويقرر:

النور في قلبي وبين جوارحي
فعلامَ أخشى السير في الظلماءِ؟

والشابي هو نفسه الذي صار أحد أبياته شعاراً للأحرار والثوار:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وقبله حافظ إبراهيم الذي أعطى للأم وساماً شعرياً لا يزال يردد كل يوم:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق

وكثير هي نماذج البيت الواحد هذه ترى القارئ يكملها ولم يقرأ منها إلا كلمة أو اثنين، مثل قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أو الوصف الدرامي الهائل لحركة الخيل في بيت امريء القيس:

مِكرٍّ مِفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمودِ صخرٍ حطّه السيل من علِ

وكثير من أبيات الواحد التي يستشهد بها لست شعراء ذائعي الصيت وقد تم تناقل بعضها وقد سقط اسم قائلها كلياً. فهنا الشاعر مجهول يقول:

أتاها بعطر أهلها فتضاحكت
وقالت، وهل يحتاج عطرٌ إلى عطرِ

وآخر:

وما الناس إلاّ العاشقون ذوو الهوى
ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وآخر:

إذا ما بدت ليلى فكلّي أعينٌ
وإن هي ناجتني فكلّي مسامع

وعن أعرابيّ مجهول أيضاً في وصف الغربة:

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى
ولكنّ من تنأين عنه غريب

اعتنى البيت بتلخيص الكثير الكثير من الكلام الذي قد يُقال ويذهب أدراج النسيان.. هذا الاعتناء جعل من البيت خلاصة لتجربة الشاعر وإحساسه بكل ما هو حوله، ومن حوله.. فالظلم عند محمود الوراق تجربة مختلفة عن الظلم الذي نفهمه:

ما زال يظلمني وأرحمه
حتى رثيت له من الظلم

وصراع الحياة والموت والمرض له حقيقته الصعبة في قول الربيع بن خيثم:

هَلَكَ المداوي والمداوى والذي
جلب الدواء وباعهُ والمشتري

أما المشاعر الخاصة بالحبّ والشوق واللوعة فهي بلا عدد حين نبحث عن يتامى الأبيات.. غير أن لحميد بن ثور أمنية مختزلة جداً:

أقلب طرفي في السماء لعله
يوافق طرفي طرفها حين تنظر

كل مضمون من مضامين الحياة يمكن أن يُختزل في بيت شعر واحد؛ إذا توافرت العبقرية والمخيلة والمقدرة الإبداعية. نزار قباني له بيتٌ ذائع يختزل فيه كل ما يمكن أن يقال عما يجهله العاشق في العشق:

عشرون عاماً يا كتاب الهوى
ولم أزل في الصفحة الأولى

ومثل هذا الاعتراف بانعدام المعرفة يشبهه اعتراف مختلف لشاعر عباسي آخر هو دعبل الخزاعي:

إني لأفتح عيني حين أفتحها
على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا..!

والبيت مُختزنٌ للرؤية والموقف المتذمر مثلما لدى أدونيس:

بكت المئذنة
حين جاء الغريب
اشتراها
وبنى فوقها مدخنه

والبيت مساحة للدهشة من الواقع، ذلك الواقع الذي يتكرر من أن تأتي الأيام بأي جديد في رأي عبدالله البردوني:

لماذا الذي جاء ما زال يأتي
لأن الذي سوف يأتي ذهبْ..!!

في الشعر العربي، عموماً، مملكة يمكن اعتبارها مملكة البيت الواحد. وهي مملكة شغلت الأوائل والأواخر، المختصين والعابرين. شغلت الأوائل الذين اصطنعوا آراءً مطلقة في تقييم الأبيات.. لقد ادعوا أجمل ما قالته العرب في الغزل، والهجاء، والفخر، والمدح.. وكانت أفعل التفضيل رائدهم التي لا يمكن الوثوق فيها طيلة الوقت.

وانشغل المختصون بالبيت الواحد، وأبو منصور الثعالبي أحد أوائل المهتمين خاصة في كتابه "الإعجاز والإيجاز" الذي ولدت من بعده كتب كثيرة.. جواهر الأدب.. لآلىء الشعر.. وغيرهما.

وخليفة محمد التلّيسي أديب ليبي يُعتبر من المهتمين بقضية "بيت الشعر" وقد ألف مجموعة كاملة من مختاراته من روائع الشعر العربي، منطلقاً من رؤية ثاقبة: "الحركة النقدية حول الشعر إنما ولدت وتطورت بسبب ما فجره البيت من صراع وخصام. فالمفاضلة بين الشعراء في القديم إنما اعتمدت على البيت الواحد".

وقد يكون لكلٍّ عذر ورأي خاص.. لكن الرأي العام في مسألة أهمية البيت الواحد له فعله، فقد ذهبت مئات الأبيات أمثالاً وشغلت الناس وملأت مواقفهم، وحين ينجح بيت من الشعر في أن يتحوّل مثلاً يسير بين الناس؛ فإنه يكون قد بنى مملكته الخاصة..!

ديوان الأمس ديوان اليوم

الحُروف القصيرة

لأنَّ لِساني
عَرِيضٌ.. طَويلٌ..
كَطُولِ الكَلامْ

صَمتٌ.. وَصَمْتُ الحُروف
حَديثٌ شهِيٌّ
يَهُزُّ السَّلامْ

أُفَتِّشُ عنْ جُملةٍ لا تَحيدُ
عَنْ السَّطرِ بَيْنَ الزِّحَامْ
أُفَتِّشُ عن قِصَّةٍ تَنْتَهي..
وتَكْتُبُ فِيَّ..
فُتُورَ الخِيامْ!!

فَراغٌ.. فَراغٌ.. ولا شَيْءَ
إلاَّ هَديل الجِراح..
علَى مُقْلَتَيْكَ..
كَصَوْتٍ قَديم تَمَزَّقَ
في رَدَهَاتِ السِّنين
وعَادَ بِلَوْنٍ فَقِير
رَميم.. تَعَلَّمَ نَبْشَ
العِظَامْ..

تَوَهَّمْتُ أنَّ عِظَامَ العِبَارة
حَفْرٌ.. وَنَبْشُ العِظَام
حَرَامٌ.. حَرَامْ!!

كَأنَّ التَّوَهُّمْ
لَمُّ الطَّريقِ... وكَبُّ الطَّلاسِمِ
بَيْنَ الوَراءِ... وَبَيْنَ الأمَامْ!!
نُمُوٌّ يَضُمُّ حُقولَ الكَلامِ

وَموتٌ يصُدُّ إناثَ الختَامْ
تُرَابٌ تَساقَطَ، يَحْثُوا
البَشائِرَ.. - عِنْدَ اللِّقاءِ -
كَنَقْصِ التَّمَامْ!!

بأيِّ اللُّغَاتِ..
تُريدُ اللِّقَاءَ
وَنَحْنُ نُحَيِّي - على غَفْلَةٍ -
دُرُوبَ المَمَرّ
- ولاَ فَرْقَ عِنْدي -
لِمَا بَيْنَنَا
سَواءٌ أَتَيْنَا نَحُثُّ الخُطَى..
سَواءٌ أَتَيْنَا نُميتُ المَدَى..
فَإنَّ النِّهَايَةَ مَا بَيْنَنَا
إمَّا الظَّلامُ بِظِلِّ الجِدَارِ
وإمَّا التَّوَحُّدُ - في صَمْتِنَا -
لِنَدْخُلَ - نُطْقاً -
جِدارَ الظَّلاَمْ!!

أحمد عبدالرحمن العرفج
شاعر وكاتب سعودي



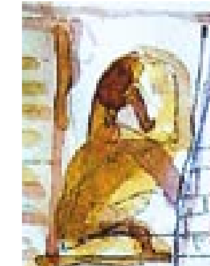
فردوس

..قصة قصيرة فازت بالمركز الأول في مسابقة القافلة الذهبية لمناسبة مرور خمسين عاماً على صدورها. كاتبها هو **محمد عبدالمنعم زهران**، من مصر، من مواليد عام 1972م. حائز على شهادة في الحقوق عام 1994م، ويعمل الآن في قصر الثقافة في بلدته سمالوط بمحافظة المنيا. ويسر القافلة نشر هذه القصة لما تتمتع به من حساسية في مجالي التصوير الواقعي من جهة والخيال الشاعري والفانتازيا من جهة أخرى، متمنية للكاتب الشاب مزيداً من العطاء الأدبي المتميز.

في هذا الشارع ضحك الناس حتى دمعت أعينهم؛ لأن البقال استمر يصرخ لفتاة قصيرة وبالغة النحافة تقف أمامه، لمجرد أنها تباطأت في جمع مشترياتها ووضعها في كيس، ولأنه يكره أن تظل واقفة طويلاً أمام المحل، حيث لا أحد يرغب في رؤية وجهها بالغ القبح.

كان شيئاً مسلياً؛ لأن الناس في هذا الشارع ببيوته القديمة باهتة الطلاء، يفتقدون البهجة، لذا فقد ضحكوا بملء وجوههم البائسة، كنت تستطيع أن ترى النسوة على عتبات البيوت يضحكن من الأعماق، والرجال الذين يدخنون الشيشة في الشارع يهزون رؤوسهم واضعين قدماً على قدم، حتى الشرفات القليلة المتناثرة امتلأت بالشباب والفتيات الذين استيقظوا تواً وعلى وجوههم سيماء النوم، ورغم أنهم يفضلون النوم لأوقات متأخرة، فقد استيقظوا حتى لا يفوتهم هذا المرح النادر. ورغم أن الفتاة لملمت أشياءها ومضت باتجاه بيتها فقد أخذوا ينظرون جميعاً إلى مشيتها المرتبكة ووجهها الذي يكاد يخفيه إشارب ملون وواسع، حتى البقال الذي كف عن الصراخ شاركهم الضحك وهو يرمق الفتاة تبتعد. هكذا نصب الناس في الشارع شبكة من النكات الرائعة كانت تتحرك بسرعة وبهجة طلقات نارية بين الشرفات والمحال وعتبات البيوت، فيغرق الجميع في ضحك لا حدود له..

كانت فتاة تدعى فردوس. شعرت بآلام في كتفيها حين صرخ البقال في وجهها فاضطربت وغشى وجهها احمرار شديد



كانت فتاة تدعى فردوس. شعرت بآلام في كتفيها حين صرخ البقال في وجهها فاضطربت وغشى وجهها احمرار شديد، نكست رأسها واعتذرت له بصوت منخفض مرات كثيرة وهي تجمع مشترياتها.. ولكن الأشياء تساقطت من بين ذراعيها، فضج الشارع بالضحك، أصابها ارتباك شديد فعاودت جمع مشترياتها وهي تنظر للبقال بعينين تبعثان على العطف، وبعد أن فرغت مشت باتجاه البيت. ورغم أن البيت على بعد خطوات قليلة فقد بدأت تفكر حائرة في أن الباب لا يريد أن يقترب.

ما أن دخلت حتى أغلقت الباب ووقفت تلهث دافعة بأكبر كمية من الهواء إلى رئتيها آملة في أن يتوقف ذلك الألم في كتفيها، رفعت رأسها ففاجأتها أمها واقفة بعصبية ظاهرة تحكم ربط الطرحة على رأسها، لم تتكلم ورأتها تندفع خارجة.

أنصتت فردوس للصمت الذي خيّم فجأة على الشارع، بدا وكأن كل النكات التي تحلق في الهواء قد ارتطمت فجأة بالأرض. ظهر صوت أمها عالياً جباراً، سمعت فردوس شتائم بذيئة جداً وبدا صوت البقال مخنوقاً لا يكاد يُسمع، شعرت بشيء في حلقها ورغبة قاهرة في البكاء.. عاد الصمت مرة أخرى، وبعد قليل دخلت أمها بوجه ينفجر بالاحمرار، كانت جالسة منزوية تعبث في أصابعها، رأت أيضاً بعض النسوة من الشارع يدخلن معها وهن يهدئنها، عاودتها الرغبة في البكاء حين رأت الجارات يسلمن عليها وهن ينظرن إلى وجهها مأخوذات. بعد أن خرجن نظرت إلى الأرض وتجنبت النظر إلى أمها، كانت تسمع أنفاسها عميقة وساخنة. بعد قليل حدثتها فجأة فنهضت بجسمها الضئيل في استسلام، كان صوتها واضحاً وحازماً، كان على فردوس الآن أن تخرج مرة أخرى إلى ذات البقال لتشتري لأمها أقراصاً من الأسبرين، ترددت قليلاً إلا أنها لم يكن بإمكانها التراجع أمام عيني الأم. خرجت ومشت ببطء، أحست بصمت الشارع يعود مرة أخرى فاضطربت وعاودها ذلك الألم الرهيب في الكتف، وحين وقفت أمام البقال لم ينظر إليها، أخرجت صوتها بصعوبة فناولها الأسبرين صامتاً.

حين عادت أغلقت الباب وشعرت بجسمها الضئيل ينهار وبأنها غير قادرة على حمله فدخلت حجرتها وأغلقت الباب.

استيقظت فردوس في اليوم التالي، أرادت أن تنسى كل ما حدث برمته، ابتسمت فجأة حين تذكرت أن ذلك يتكرر دائماً ومع أشخاص عديدين، فكرت أيضاً أنها تنسى كل شيء بسرعة تدهشها، إلا تلك المرات القليلة التي تعرف بها أمها – مصادفة – فيتعقد كل شيء كما حدث بالأمس. تذكرت أن أمها لم تحادثها طوال الأمس أيضاً، عرفت أن ذلك سيظل عالقاً برأسها وباعثاً على الألم لأيام قليلة. اقتربت من النافذة وواربتها ظلت واقفة تنظر إلى نافذة البيت المقابل ثم إلى مدخل البيت، لم يمر وقت طويل حتى رأته يخرج، كان شعره مصففاً لامعاً، وقف وأشعل سيجارة، فاستطاعت أن تتأمل وجهه لأطول وقت ممكن، فكرت في أنها لسنوات ظلت تنظر إليه كل يوم، وأنه ربما لا يعرف حتى اسمها، أغلقت النافذة مرة أخرى، تحسست وجهها بيديها.. وابتسمت في ضعف، سرحت قليلاً وقالت إنها كلما رأته تشعر بسعادة لا حدّ لها.. وأن روحها في الداخل يغمرها مرح، قالت أيضاً إنها تراه كل يوم وذلك يكفيها تماماً.

كانت أمها قد استيقظت أيضاً. جلستا تأكلان في صمت، أحست بعيني أمها رائقتين، تخفيان حزناً فآلمها ذلك، نظرت إليها وراقبتها تأكل في هدوء، التقتت أمها وحين رأت وجهها الصغير يبتسم ابتسمت أيضاً، بعد قليل ضحكا بصوت مرتفع، اقتربت منها وأمسكت كتفيها...

– ما زالا يؤلمانك...؟

– نعم... قليلاً...

أخذتها بين ذراعيها فشعرت فردوس بدفء جسمها، إلا أنها وفي الوقت نفسه لم تستطع أن ترى عيني أمها تلمعان، كل ما شعرت به رغبة هائلة في البكاء وهي ملتصقة بهذا الجسم، تدافعت الدموع إلى عينيها وبدا أن جسمها بأكمله يفتح طرقاً متسعة دافعاً بكميات هائلة من الماء إلى عينيها، ولكنها وفي اللحظة المناسبة التي أحست فيها بتنفيس لهذا الدفء، وهذا الجسم الضخم الذي يحتويها في رفق قررت ألا تبكي.

قررت أن تذهب للعجوز في كشكه، دائماً تذهب إليه حتى بعد أن أنهت دراستها، ودائماً يبدو لها هذا المكان القصي مكاناً أميناً للحديث والبكاء، خرجت وهي تشعر بجسمها مشبعاً بكمية هائلة من الماء، ذلك الذي تعودت في كل مرة تقف فيها أمام العجوز أن تتركه ينساب فيغرقها حتى لا تعود قادرة على تبين ملامح وجهها، عبرت الشارع وأبهجها أن مرت هكذا دون أن يشعر بها أحد، وفكرت في أنها من المرات القليلة التي يتركونها فيها تمضي لحالها وغشيها هدوء ونقاء وهي تتأمل الشوارع والناس التي تمشي والسيارات التي يتصاعد ضجيجها، تلتفت في كل اتجاه، وأحست أن الشوارع – رغم قذارتها – تشع طيبة وألفة، رأتها تتفرع إلى شوارعٍ أضيق ثم إلى حارات وأزقة تمتلئ بالبشر، دائماً تتفرعِ بانسيابية ككائنات تحاول العيش أيضاً. رأت سرباً من الطيور فتوقفت وتأملته يرسم خطاً مرناً يقطع السماء.

كان السرب قد اختفى ولكنها استمرت تنظر إلى السماء الخالية المشوبة بزرقة، تذكرت حين كانت تخرج من المدرسة ويمر مصادفة هذا السرب فتتأمله غائبة، أحياناً كانت تراه واقفة أمام كشك العجوز فيرفع عينيه معها ويتأمله، وتفاجئه دائماً، حين تراه لا يزال ينظر إلى السماء بعد مرور السرب، كان ينظر طويلاً فكان بإمكانها رؤية أدق تفاصيل وجهه العجوز. رأت الكشك على الرصيف المقابل للمدرسة، فاتجهت إليه ووقفت أمامه مباشرة، كان العجوز منحنياً يعبث في أشياء، رفع رأسه ورآها...

– فردوس...!

وكعادته صافحها وانحنى مقبلاً يدها.

بدأ العجوز يتكلم، فنظرت إلى وجهه وتأملته في سحر، أحياناً كان يتهيأ لها أنه وجه طائر أبيض يتلفت ويرمش بعينيه، وأحياناً أخرى كانت تشعر بضوء خفي ينبعث من عينيه حتى لا تعود قادرة على النظر إليها... صمت فجأة.

– آآه.. لم تأت بالأمس.

نظرت فردوس إلى الأرض فتجهم وجه العجوز.. أمسك يدها..

تكلمي، دعي كل شيء يخرج.. وعندها.. عندما يقول العجوز لها، دعي كل شيء يخرج.. تفتر مقاومتها، تنفجر في البكاء وتحكي.. تظل تحكي غير قادرة على إيقاف الدموع.. يستمر ذلك قليلاً والعجور منصت ينظر إلى عينيها، أحياناً يهمهم لها...

– إبكِ.. هل اكتفيت.. لا.. ينبغي أن يخرج كل شيء.. وحين تنتهي يكون قد خرج كل شيء، فتكف عن البكاء.

أدخل العجوز يده في برطمان زجاجي رأته يخرج قطعتين من حلوى الكرامل بطعم القهوة التي تحبها..

– قطعتان.. لم تأتِ أمس.. ضعيها في فمك.

ضحكت فردوس، فبشّ وجه العجوز وتألقت عيناه، وضعت الحلوى في فمها.

– أنت طيب.

نظر العجوز إلى الأرض، ثم أمسك يدها مرة أخرى وقبلها.

– آه.. أنا لا أملّ من تقبيل هذه اليد..

تذكرت فردوس أنه كان دائماً ما يقبّل يدها هي فقط دون زميلاتها، فغمرها شعور بالامتنان والراحة، انتبه فجأة.

– آه. كدت أنسى. أمينة تسلّم عليك.

– هل زارتك في الحلم مرة أخرى؟

– أمينة دائماً تزورني، خمسون عاماً معاً، كيف لا تزورني؟

– وإذا انقطعت عن زيارتك؟

– آآآه. انقطعت مرة أو مرتان، فكنت أشعر بالتعاسة في كل مرة، وحين تتأخر أذهب إلى قبرها وأعنفها فتعود.. دائماً تعود..

ضحك بصوت مرتفع، كانت تتأهب للعودة، شكرته، فتظاهر بالغضب..

– لا تشكريني أبداً.

هزت رأسها ومضت فعاد صوته.

– فردوس.

التفتت إليه.

– .....

– هل وضعتِ الكرامل في فمك.

– نعم.

– .. إذن .. ابتسمي.. كوني مبتسمة على الدوام.

كانت أمها ترقب عودتها خلف الباب، وحين رأتها قادمة في أول الشارع دخلت وجلست ساكنة. وفردوس التي كانت تقترب أحست بأن الجميع ينظر إليها في الشارع، فكرت أن تبتسم ولكنها حالاً سمعت امرأة تضحك في شرفة فوق رأسها تماماً فتوترت، أسرعت في مشيها وهي تنظر إلى الأرض، عبرت خلف ظهرها مزحة قالها رجل على مقهى فأحست بكتفيها يؤلمانها مرة أخرى، تمتمت داعية أن يقترب البيت وأن يمر كل شيء سريعاً، كان عليها أن تجتاز أولاداً بالكرة، فمشت ببطء حتى تتحاشى الاصطدام بهم وهم يجرون، إلا أن الأولاد وبمجرد أن رأوا وجهها صرخوا بصورة مفاجئة وتراجعوا جميعاً ملتصقين بالحوائط تاركين الكرة في منتصف الشارع، احمرّ وجهها تماماً أرادت أن تسرع ولكن ارتعاشة ما كانت تجبرها على المشي ببطء، كان الباب مفتوحاً فدخلت، أحست بالآلام تزول ورأت أمها جالسة تحدق في الحائط، شعرت بغضبها لأنها تأخرت، فتصنّعت المرح..

– فكرت في شراء مرآة.. لا توجد مرآة في البيت منذ وقت طويل.

حدقت الأم فيها فأكملت.

– لا يوجد ما يمنع مرآة في البيت – اقتربت منها ضاحكة – الإيشاربات على رؤوسنا تبدو مائلة وغير منتظمة.

نظرت الأم إلى الحائط مرة أخرى، ثم عادت تنظر إلى فردوس، إلى جسمها الضئيل وحين لاح الانكسار في عينيها جاء صوتها حاداً..

– لم تنظفي البيت اليوم؟!

– فعلت بالأمس.

– ولكن.. هذه الأتربة التي تتساقط من الحوائط.

انكمشت البنت.

– فكرت في أنه ينبغي إصلاح الحوائط.

– وإذا لم نستطع إصلاح الحوائط.. هل سيظل البيت قذراً..

نهضت ودخلت غرفتها..

لم تستطع أن تفهمها أبداً، في الوقت الذي تبدو فيه رقيقة تفاجئها هذه الحدة، بدأت في تنظيف الصالة من الأتربة ورقائق الجير التي تتجمع أسفل الحوائط، بعد ذلك جمعت الأطباق المتسخة وحملتها إلى الداخل ولكنها تساقطت فجأة من يديها فأحدث سقوطها ضجة، أنصتت ولم تسمع صوتها، جمعت الأطباق وغسلتها وحين كانت تهم بدخول حجرتها سمعت صوتها كأنها على وشك النوم.

– لا داعي لشراء مرآة جديدة.. توجد واحدة فوق دولابي.

كانت الليلة حارة شديدة الرطوبة، خانقة من تلك الليالي الصيفية التي تنشب فيها أظافرك لتستخلص الهواء. ظلت تنتظره خلف النافذة لتراه، وغلبها النوم فنامت واقفة مستندة على الحائط، وحين فتحت عينيها رأته واقفاً في النافذة يدخن، فارتجف جسمها حاولت أن تغلق النافذة قليلاً لأن إحدى ضلفتيها قد انفتحت تماماً، ولكنها خافت أن يشعر بها، ظلت واقفة تتأمله، ثم غلبها البكاء فبكت أمامه من دون أن يراها، كانت تبكي وتنظر إليه فتشعر بآلام في كل جسمها، بعد ذلك رأته يدخل ويجلس على منضدة ويقرأ، تأملته جالساً عبر نافذته المفتوحة على آخرها، وغمرها فرح هائل لأنها ستراه طيلة ليلة كاملة، وشعرت بالامتنان لليلة حارة هواؤها ساكن ومتشبع بالرطوبة.

مر وقت طويل وهو منكب على القراءة، بينما روحها ترفرف في داخلها، لم تستطع أن تنام ففكرت أن تجلس على منضدة وتكتب، بحثت عن أوراق ووجدت قلماً وجلست في الظلام وبدأت تكتب على الضؤ الذي ينسكب من حجرته، أول ما واجهها اسمه، أحست بأنها لأول مرة تكتبه فارتعشت أصابعها قليلاً ثم عادت تكتب فأعادت كتابة اسمه مرة أخرى:

.. "علي"

أنا أحبك...

ليس كما تحب البنات

توقفت مرة أخرى ونظرت إليه، وكان قد رفع رأسه وحدق في السقف وهو يفكر فأكملت:

..هل تستطيع سماعي.. هل أنت منصت.

ولكنها لم تستطع أن تكتب أي شيء آخر، فنهضت وظلت تتأمله حتى غلبتها آلام غامضة فانحنت في أسى وجلست على الأرض باكية.

وفي صباح استيقظت ولم يكن ثمة أي صوت لعصافير الصباح فانقبض صدرها، فكرت في أن هذا اليوم غريب نهضت ونظرت من النافذة، خمنت أنه قد خرج، فامتلأت كآبة، ولكنها دهشت حين رأته يخرج مندفعاً كأنما تأخر، لم تستطع أن تراه جيداً فمدت عنقها ورأته يمشي مسرعاً في الشارع ففاجأها دوار.

كانت تستطيع أن ترى النسوة على شرفات البيوت يضحكن من الأعماق، والرجال الذين يدخنون الشيشة في الشارع يهزون رؤوسهم..

في المساء عادت من عند العجوز، وحالما دخلت إلى البيت كانت آلام الكتف في ذروتها، جلست بجوار أمها، أحست بأنها منبوذة كما لم تشعر من قبل، ذلك أنها حالما دخلت الشارع عائدة رأت صديقة لها كانت قد تزوجت وسافرت. رأتها جالسة على عتبة بيتها فاتجهت إليها كانت قد لاحظت بطنها منتفخاً. فابتسمت وغمرها فرح، إلا أنها وعندما وصلت كانت قد اختفت نظرت الجارات إليها بتجهم وقلن لها إنها نائمة..

ابتسمت بصعوبة وبوجه يرتعش وقالت لهن إنها كانت تحب أن تسلم عليها، فنظرن إليها صامتات. تذكرت فردوس ذلك وهي تنظر لأمها، وأحست كم أن قلبها دافئ، أحبتها كما لم تحبها من قبل. وفجأة سمعت صوته في الشارع، قاومت رغبتها في النهوض طويلاً، لم تكد تراه في الصباح، أخيراً نهضت ودخلت غرفتها وأغلقت الباب، كانت لا تزال تسمع صوته فمشت كالسائرة في نومها، فتحت النافذة في بطء فغمر ضوء الشارع وجهها.

كان صوته ينبض حياة، ليس من وراء شيء ولا عبر نافذة أو من جوف منزله، أغمضت عينيها وتركت كل صوته، مجموع نبراته، بتفاصيلها الدقيقة، المصدر البعيد كنبع صافٍ لصوته ينفذ إلى أعماقها، شعرت بالشتات للحظات وحين فتحت عينيها لم تحده، كان قد صعد.

رأت حجرته تضيء، وبعد قليل سمعت أمه تناديه للعشاء، فأظلمت حجرته مرة أخرى. ظلّت واقفة قليلاً حين فاجأتها عينان تتلصصان، دققت النظر قليلاً فرأت ثلاث جارات على سطح أحد المنازل يراقبنها، انتفضت وأغلقت النافذة، وقفت في حيرة وتساءلت عن ما جعلهن يراقبنها هكذا، وعلى الفور تذكرت أنه في الصباح رأت إحداهن على نفس السطح ولم تفهم، انهارت على الفراض وأصابها ارتجاف حين فكرت أنهن يراقبنها هي، عادت تتساءل: منذ متى يراقبنها دون أن تدري؟!!

بعد قليل سمعت ضحكات مكتومة فتأكدت. شعرت بجسمها يسخن ويعاود انتفاضه وفكرت في أن الناس في هذا الشارع عجيبون، وأن أسرارهم يحملها الهواء ليلاً إلى كل البيوت، أحست على نحو ما أنها لن تتحمل هذا، حاولت أن تنام، أن تنسى كل هذه

الأشياء، على الأقل تؤجلها للغد، لكن عينيها ظلتا مفتوحتين، التقت يداها وقدماها بصدرها، زادت في انكماشها حتى بدت كقلب مدمم انتزع من جسمه وترك ليرتعش على فراش متسع، وفي كل حين يرتجف كل جسمها على هيئة نبضات قوية وعنيفة.

لم تكن نائمة فقط خائرة القوى حين جاءها صوت الجارات منخفضاً عبر النافذة مصحوباً بضحكات مكتومة "هل رأيتم..." "نعم" "ألم أقل لكم.." وارتفع الصوت قليلاً في الشارع: "هل رأيت يا عبدالعزيز.."

فجاوبها صوت رجل يلعب الدومينو في الشارع ضاحكاً: "إنه المذاق المر للحب". بدا سكراناً سأله اللاعب الآخر ضاحكاً: "هل يمكنك أن تحب مثلها..."

"أنا... أبداً...".

سمعت كل ذلك من دون إرادة، في أوقات كانت تشعر بأنهم يتحدثون بالقرب من أذنيها فتحاول إبعادهم، بيت مفتوحة العينين حتى الصباح.

تسلل ضوء الشمس عبر فجوات الشيش وظلت في سكونها، سمعت صوته يهبط من البيت ولكنها كانت غير قادرة على النهوض أو حتى الحركة، حاولت مرة أخرى، وأخيراً نهضت ومشت حتى النافذة، وهي تتمايل في دورانات مباغتة كإناء خزفي على وشك السقوط، ومن ثم التحطم. نظرت عبر فجوات الشيش ورأت النسوة على الأسطح المتعددة، رأت حتى البقال بجلبابه يميل برأسه مراقباً، فعادت إلى فراشها، كان شيئاً ما في حلقها يخنقها، وحين خدّرها التعب، تحسست حلقها، وشعرت بأنه ذهب، وأن كل شيء على ما يرام، فنامت.

..ورأت آلافاً من الحشرات الزاحفة سوداء ومقيتة تتقدم نحوها، وتقف على أقدامها، صرخت وبدأت تبعد الحشرات عن قدميها، ولكن الحشرات ظلت تعاود تسلق قدميها...

وفجأة انبثق بياض هادئ يتحرك في نعومة، كانت أرنبة كبيرة، حالما ظهرت اختفت كل الحشرات، كانت الأرنبة دافئة، اقتربت من وجهها ولعقته وظلت ملتصقة به.

حين فتحت عينيها رأت أمها تحضنها بقوة، ثم شعرت بها تتحسس كتفيها وتضغط على كل منهما، رأت وجهها، كان جزعاً. أسدلت عليها الغطاء وخرجت، فعادت إلى النوم.

أيقظتها أمها فرفعت رأسها مذهولة، رأتها تتحسس كتفيها مرة أخرى، انتبهت إلى أن كتفيها قد تورما فجأة، تحسستهما بيديها، كانا صلبين كالعظم، كان الورم يمتد حتى منتصف كل ساعد، نظرت إلى النافذة ورأتها مفتوحة على مصراعيها، خمنت أن أمها لا بد عرفت، وأن الجارات قد أخبرتها فشعرت برغبة لا يمكن إيقافها في البكاء، بدت كرغبة من يتشبث بالحياة لأنه عرف أن البكاء طريق وحيد لاستمرارها.

- حالتك تسوء.. سنذهب إلى طبيب.

كان صوت الأم متقطعاً.

- سأخرج قليلاً..

- أخرج معك.

نظرت إليها فردوس ورأت عينيها تعرفان كل شيء، فتحاشت النظر إليهما أحست بوجهها وكأنما تراكمت عليه طبقة رقيقة من الثلج.

- اطمئني.. مجرد أن أخرج فقط..

ارتدت ثيابها، وضعت الإيشارب الملون والواسع على رأسها وخرجت. كان الحر شديداً لذا كان الشارع شبه خالٍ، القليلون الذين تطلعوا من النوافذ ضحكوا ساخرين حين رأوها، ولكنهم حالما نظروا إلى كتفيها المتضخمين أصابهم وجوم.

رأت الكشك مفتوحاً. كانت تمشي بأقصى ما تستطيع، وأخيراً أصبحت أمامه، رأت العجوز منحنياً برأسه إلى الأرض، ظلت واقفة ولكنه لم يرفع رأسه ولم يقبل يدها، كان يرتعش، همت بأن تحدثه، أن تتكلم وتخرج كل ما بداخلها لأنها كانت تحن إلى لحظة البكاء الساحرة أمامه حيث تتصاعد آلام كتفيها إلى أقصى حد، أحست بأن بكاءها الآن سيبدو عميقاً وصاخباً إلى أبعد مدى، ستقف حيث اعتادت أمامه، في غيبوبة من ماء عينيها، لا ترى إلا وجهه، تجاعيده، عينيه وهما تخرجان ضوءاً خفيفاً، ومن ثم تصل إلى الراحة الكاملة، يقول لها ابتسمي فتبتسم ثم يقبل يدها ويتركها تمضي. ولكنه لم يرفع رأسه وقفت حائرة. بعد قليل مدت يدها ولمست ذراعه، فتحرك في بطء، شعرت بأن ذلك استغرق وقتاً طويلاً جداً، نظرت إلى وجهه، كانت التجاعيد قد تكاثفت، وتكسرت التجاعيد الكبيرة إلى مئات التجاعيد الصغيرة وخطوط لا تكاد ترى، كان وجهه أصفر وعيناه خبا ضوؤهما، تحدث في صعوبة..

- فردوس!.. هل أنت مبتسمة..

غالبت رغبتها في البكاء وابتسمت.

- نعم..

- إنها أمينة..

حين رفع رأسه إليها، شعرت على نحو غريب بأن العجوز تسحب منه الحياة ببطء، كان صوته يشبه صوت طفل بكى لساعات طويلة. نظر إلى وجهها طويلاً..

- أنت مبتسمة.. نعم.. إنها مبتسمة يا أمينة.. إنها الشيء الوحيد الذي أحبه في هذا العالم.. لذا كان ينبغي انتظارها يا أمينة.

أشار لها أن تقترب فاقتربت، حدثها بصوت منخفض، بلكنة طفل على وشك أن يعود إلى بكائه.

- إنها أمينة.. تناديني منذ الصباح، تقول تعال الآن، قلت لها.. انتظري يا أمينة، انتظري إلى الليل، في البيت، سآتي إليك وأنا نائم في الفراش، تعرفين أني أتمنى أن أذهب إليك..

اتسعت عيناه بصورة مفاجئة وكأنما شعر بألم مفاجئ لا يحتمل، مد لها يده فاقتربت وأمسكتها، أشار لها بعينيه ففهمت أنه يريدها أن تضغط بصورة أكبر، أمسكت يديه في قوة، في طمأنينة لم تستطع تفسيرها. أخذ نفساً طويلاً..

- ولكنها أصرت يا فردوس.. قالت الآن. قلت لها.. حسناً.. انتظري حتى تأتي فردوس.. انتظري..

انتفض جسم العجوز، أحست بذلك في كل جسمها، ابتسم ورفع عينيه إلى السماء. فابتسمت له فردوس وهي تراقب تجاعيد وجهه ترتعش. بعد قليل انحنت رأسه في سكون، توقفت كل تجاعيد وجهه عن الارتعاش وصمتت تماماً. كانت يده لا تزال بين كفيها، انحنت وقبلتها، ثم وضعتها في مكانها النهائي حيث لن تتحرك أبداً، ومضت.

فكرت في كل شيء على نحو سلس وأحست وكأنما تفهم العالم، رأت سرب الطيور البيضاء يمر في السماء، تخفق أجنحته في لين، هادئاً رقيقاً كحلم، انتبهت أخيراً إلى يديها التي كانت تمسك بيد العجوز، كانت حلوى الكرامل بطعم القهوة ساكنة في كفها، تضغط عليها بكل قوة، وفكرت بأنه حتى آخر لحظة، كان يريد أن يجعل فمها يبتسم، فتذكرته باعتزاز. توقفت والتفتت إلى الكشك، كان

تذكرت كل شيء وفكرت بأي شيء يمكنّها من عبور الشارع من دون أن ينظر إليها أحد، فعاودها اختناق..

بعض المارة قد التفوا حوله. مدت يدها الصغيرة والتقطت بإصبعها قطرة ماء صغيرة وحائرة في جنب عينيها.

شعرت فردوس بأنها لن تبكي بعد الآن مرة أخرى، ليس لأن العجوز قد مات وأنها لن تتمكن من البكاء أمامه مرة أخرى، ولكنها بدت لها رغبة موازية لموته، كما شعرت في الوقت نفسه بأن آلام الكتف قد زالت إلى الأبد، نظرت إلى وجهها القبيح في واجهات المحلات وإلى جسمها الضئيل الذي يشبه جسم طفلة، واندهشت لأن وجهها كان مبتسماً على الدوام. تذكرت أن عليها أن تعود إلى البيت، وأن تعبر الشارع بناسه الذين تحبهم والذين دائماً ما يرمقونها باحتقار، ولكنها فجأة فكرت في أنهم ربما يحبونها على نحو غامض. داهمتها رغبة في أن تمشي في الشوارع فقط، فواصلت تجوالها، قادتها قدماها إلى حيث الهواء البارد على ضفة النيل، وقفت تتأمله وأحست بحزن لأنها طالما تجاهلت بهاءه وعذوبة سير الماء به، جلست طويلاً وشردت.

كان المساء قد حل، فانتشرت أضواء خفيفة على شاطئه. نهضت وقررت أن تعود، داخلها خوف حين تذكرت كل شيء وفكرت في أي شيء يمكنّها من عبور الشارع دون أن ينظر إليها أحد، فعاودها اختناق.

وقفت في أول الشارع الذي غمرته أضواء الأعمدة الكهربائية، ضئيلة واهنة، رأتهم يتجمعون، يخرجون من البلكونات والواقفون بدأوا ينادون على من دخلوا بيوتهم، التصق الأولاد الصغار بالحوائط حين رأوا كتفيها، استطاعت أن تلاحظ أيضاً أن بعض الذين يمشون في الشارع بطريقة عابرة توقفوا أيضاً، قالت لنفسها إنهم جميعاً هنا.. ليعاودوا الضحك على البنت القبيحة والضئيلة كقردة، والمتيمة حباً بجارها الشاب، والتي تضخم كتفاها فجأة كورمين خبيثين. اتسع الشارع أمامها بصورة لا يمكن تصورها، اتسع مستقيماً ومحتشداً بالوجوه، تحركت وخطت بقدميها، شعرت بأن جسمها يدفعها إلى التحرك فخطت أخرى وأخرى، انتظمت أنفاسها فجأة، لم تكن تعرف من أين تسلل الهواء إلى داخلها فأنعشها.

وعلى وقع خطواتها تلاشى احمرار الوجه بصورة مباغتة، شعرت بحيوية لا تفسير لها في جسمها، في أعمق عروقها الداخلية، وفي عينيها اللتين بدأتا تريان كل الأشياء وكل الوجوه، كأنما ترى كل شيء على حدة، محدداً دقيقاً وبكل تفاصيله، ابتسمت في اللحظة التي رأى الجميع فيها وجهها يتحول إلى الأبيض الباهت. عندما وصلت إلى منتصف الشارع تماماً تعثرت قدماها في الكرة فوقعت على وجهها، بينما تحركت الكرة بعيداً، جرى ولد في سرعة والتقط الكرة في حضنه وعاد إلى مكانه لصق الحائط، عندما وقعت تبدلت كل الوجوه المستطلعة، بدا أنهم يرونها لأول مرة كائناً يائساً...

تحولت العيون في خجل ووضعت النساء أيديهن على وجوههن، رأت أعينهم المذعورة فزادت في ابتسامتها وازداد تألق وجهها الذي تحول إلى الأبيض البلوري، كانت عيناها تتطلعان إليهم في سكينة بينما جسمها يرتعش بغير إرادة، استطاعت أن ترى أمها واقفة أمام الباب كانت تبكي، فكرت أنها لأول مرة تراها تبكي، بدأ يصدر عن فمها آهات، آهات تشبه آهات مريض يتماثل للشفاء، انتفض جسمها عنيفاً هذه المرة، وفجأة ظهر من كتفيها المتورمين نتوءان ما لبث أن استطالا حتى اخترقا الملابس.

رأى الجميع جناحين أبيضين ينفردان ويتسعان، في كل كتف جناح، لزج ولامع كأنما خرج من بيضة، كان ثمة صراخ يصدر من النساء من أفواههن، والرجال تراجعوا في ارتجاف، تحرك الجناحان الآن، وجهها ما زال هادئاً باسماً يرنو متلفتاً في بطء، ارتفع جسمها قليلاً عن الأرض، نظرت إلى جناحيها، تأملت الشارع، كل رجل وكل امرأة، نظرت طويلاً إلى أمها التي انهارت بجوار الحائط، ثم أغمضت عينيها، تحرك الجناحان في عنف فخلّفا غباراً، وطارت فردوس، طارت إلى أعلى، إلى أعلى، بعيداً في عمق السماء حتى اختفت.

وكانت تظهر ليلة في كل عام فينتظرونها في الشوارع والشرفات، ودائماً ما تكون الليلة صيفية حارة، هواؤها ساكن ومشبع بالرطوبة، فيسمعون رفيف أجنحة تهبط، ويرون حجرة "علي" غارقة في ضوء أبيض سماوي، يسمعون صوتها هادئاً رقيقاً، ينفذ إلى كل بيوت الشارع مغلفاً بهالات من السحر...

"علي... علي...
أنا أحبك
ليس كما تحب البنات
هل تستطيع سماعي... هل أنت منصت..."
فيجاوبها صوت "نعم. أنا منصت...".



قول آخر

الأنسنة قبل النسونة

بعد عقود عديدة من بداية حركة الإبداع في المجتمع السعودي يصعب على الدارس أو الباحث العثور على "كم" يُعتدّ به من إنتاج النساء والرجال في المجال الإبداعي، أو قراءات نقدية تفحصه أو تؤرخ له فيما عدا اجتهادات شخصية استطاع بعض منها أن يوجد خارج الفجوات بالنشر خارج الوطن.
كم عدد الذين يعرفون أطروحة عبدالله عبدالجبار النقدية إلا من خلال شذرات ما يكتب عنه في الصحف..؟ وكم امرأة أو رجلاً يملك مشروعاً إبداعياً أو فكرياً أو نقدياً استطاع أن يعممه خارج حدود الوطن ويكتسب به حضوراً عربياً وعالمياً لافتاً ومتفاعلاً غير أسماء تعد على أصابع اليدين أو أكثر قليلاً.؟

رجاء عالم، تركي الحمد، عبدالله الغذامي، سعاد المانع أمثلة. أما غازي القصيبي فتخطيه لمتاح الخطاب استثناء في الاستثناء. هذا بالإضافة إلى تخطيات اجترحها عدد أقل من أسماء الشباب الجدد، كمحمد علوان، والتعزي، والتراوري، على أن مستقبل هؤلاء وسواهم لا يزال أمامهم. والملاحظ أن معظم من تجرأ على فعل ذلك ظل وجوده ظلياً في الداخل فلا يعرف إنتاجه إلا عبر السماع أو المناولة باليد. وهنا لا أتكلم عن أزمة نشر في الداخل

ولكنني أتحدث، بشكل محدد، عن النقص الحاد في أوكسجين المناخ الثقافي بحيث أن أزمة النشر تصبح مجرد جزئية في إشكاليات كبرى مشتركة تخص حيز الإبداع سواء كتبته المرأة أو كتبه الرجل. وهذا ما يجعل، في رأيي، النقد الأدبي النسوي الحديث في بعض جوانبه مناسباً ليس فقط لقراءة الحالة الإبداعية التي تخص كتابة النساء كما في المجتمعات الغربية التي أنتجتها.. بل أنه عندنا يمكن في ضوء بعض مقولاته التنظيرية قراءة الحالة الإبداعية لما ينتجه الرجال والنساء.

إذا كان ما تكتبه المرأة قد استدعى تطوير توجه نقدي يسعى لاستعادة الصوت النسوي والتجربة المعيشية للمرأة فإن معظم أطروحات هذا التوجه النقدي تمت على أساس من التبادل المعرفي بينها وبين الفكر الغربي النقدي الذي كان هو نفسه كتابة تحاول أن تموضع خطابها البديل على هامش خطاب الهيمنة السائد والمستتب . وقد استعار دريدا و فوكو بعض مفاهيم التنظير النسوي مثل مفهوم "Ecriture" للكشف عن الهوة بين المؤشر signifier والمؤشر إليه ignified ليس في بعدهما اللغوي وحسب بل في التعبير عن الفجوة بين الخطاب أو الخطابات السائدة وبين ما يحاول أن يتخلق خارج هيمنتها. فهناك الحضور مقابل الغياب، النقص مقابل الاكتمال، التعدد مقابل الكلية، والمعلن مقابل المستتر من أشكال التعبير. وذلك في محاولة لإيجاد أساليب جديدة تجعل إمكانية لقراءة كل ما كان مبعداً أو معتماً عليه في الفكر الغربي.

هذا الغياب ومحاولة الحضور من خلال الفجوات اكتسب أسماء عديدة لدى كل من النقد النسوي ونقد الفكر الغربي ككل. وثمة أسماء تعددت مضامينها حسب ارتباطها التاريخي بمرحلة كتابتها أو مرحلة محاولتها إعادة كتابة التاريخ بأصوات احتاج سماعها إلى نوع من الحفريات ،الأركولوجي. الحيز الهامشي هو مساحة "الحجرة التي تخصها" تعود للمرأة الكاتبة ليكون لها عالم من الإبداع ترى فيه نفسها بغير عيون الـ "غير" التي لا ترى لها أهمية إنسانية إلا في علاقتها بالجنس الآخر عند فرجينيا وولف.
وهذا المكان الذي كان يضيق وكأنه كمين هو "غرفة العلية أو السطوح "في جين اير لتشارلوت برونتي عند الناقدتين الأمريكيتين ساندرا جيلبر وسوزان جوبر.

إنها المساحة الكفيفة و الجانب المظلم الذي تهتكه ضحكة ميدوزا لدى الشاعرة و الناقدة الفرنسية هيلين سيكسو ليس باستعارة أدوات الكتابة من الآخر بل بترك الحرية للمرأة أن تكتب بالحبر الأبيض دون التعصب ضدها بسبب اختلافات لون الحبر.
كانت أمي تحدثني عن أمها ماحدثتها فيه أمها عن أمها فتقول لي بالحرف الواحد: "كانت تلبس ثيابها على حزنها وتقفل الباب لئلا تتكشف قروح روحها" ألسنا جيلا محظوظا أتيح له تجريب كتابة مجرى النهر بأصوات عديدة؟

د. فوزية أبو خالد

إضحاك حتى البكاء

الإضحاك وحده دون سواه مهنة مهرّجنا ذي الأنف الأحمر الكبير!
إضحاك بأية وسيلة...
بل إضحاك.. يسخّر فيها ذاته كي يمرح الناس.

يضحكنا المهرّج قبل أن ينبس ببنت شفة وقبل أن يقوم بأية حركة، يضحكنا من وجهه وملبسه. إنه يحوِّل نفسه إلى نكتة متحركة... من هنا يبدأ الضحك. الأنف الكروي الكبير وأحمر الشفاه الممتد إلى ما لا نهاية والرأس الأصلع بنتوءات شعر برتقالية من كل جانب وقبعة لا تتناسب وحجم الرأس... وملابس بمقاسات عشوائية مخططة ومرقطة.. ومعطف واسع وسروال قصير وحذاء ضخم.. ويبدأ الاستعراض.. وإذا كان سيركاً فالسيرك لا يبدأ بتاتاً إذا لم يبدأ بدخول المهرّج أولاً إلى وسط الحلبة لإيقاظ الحماسة والفرح في قلوب الجموع وإدخالهم في المزاج المطلوب لمتابعة الاستعراضات التي تتوالى ليقطعها المهرج نفسه بين الفينة والأخرى مجدداً الحماس والغبطة! حلم كل مهرِّج هو الوصول بالمشاهدين إلى ذروة الضحك.. الضحك المتفجر الذي يفلت من السيطرة. وهذه هي لحظة انتصاره واعتزازه بالفوز الكبير.

ولد المهرِّج من رحم حاجة الإنسان إلى الضحك، ليكون نقيض الجد في كل شيء، وكثيراً ما نجد بيننا أو بقربنا "مهرِّجاً" غير محترف، صديقاً أو قريباً أو أحد أولاد الحارة الذي يقفز ويقوم بحركات مضحكة مزعجة في آن معاً أمام كل عابر طريق. وصلة المهرِّج بهذه الحاجة الإنسانية العميقة - الضحك - أعطته دائماً طعماً خاصاً لا يشترك فيه مع الآخرين، وتحول إلى مهنة منتشرة لها أربابها ونجومها وثقافتها وفنونها، كذلك كتبها ومراجعها ومتاحفها. هذا الأبله اللمّاح الساذج الساخر اللامبالي السعيد المسحوق..

غير أن مهرِّجنا الذي يحوِّل نفسه إلى أضحوكة يتهدده دوماً خطر محدق.. أن يصل يوم يتوقف فيه عن الإضحاك وتتعثر قدرته على إثارة هرج ومرج الناس! وكم يتكرر مشهد المهرِّج الذي خرج من حلبة السيرك أو خشبة المسرح عائداً إلى غرفته حزيناً هضيم الجناح يزيل عن وجهه "المساخر"، فينظر إلى ذاته غير المبرجة وتقابل عيناه عينيه في المرآة لتسألهما عن الخيبة والفشل.. وهو الذي رضي متواضعاً أن يسخر نفسه ذاتها لتكون موضوع الضحك، سمح لذاته "المضحوك عليها" هذه أن تقصّر في نيل حتى هذا المجد المعكوس! (يتلازم الضحك والبكاء في شخصية المهرج حتى في زينة وجهه).

كنّا إذا نسينا المهرِّج في الماضي عاد إلينا فجأة ليضحكنا أكثر. لكننا اليوم والمهرِّج أمام سؤال: هل يعود المهرِّج ثانية؟ أم أن العالم قد تحول عن هذا الضحك الجميل البريء ولم يعد للمهرِّج على خشبة مسرحه مكان؟ الزميل إبراهيم العريس يسلّط الضوء على مهرجنا من جديد مستعرضاً دنياه في ملف يجول فيه بنا على الحضارات والفنون أمام الكواليس وخلفها.

Novosti

حكاية المهرِّج

من أيام الفراعنة إلى سينما فلليني

"حين تتفكك المنظومة الاجتماعية أو تنحل، يتضاءل حضور المهرِّج على خشبة المسرح، في حلبة السيرك أو على اللوحة، لكن المهرِّج نفسه لا يختفي، بل ينزل عند ذاك إلى الشارع: إنه يصبح كل واحد منا". جاءت هذه العبارة في نص للناقد الفرنسي جان ستاروبنسكي عنوانه "صورة الفنان المهرِّج". ولا شك أن هذه العبارة تتأرجح في ذهن المرء حين يستعيد في ذاكرته صورة ما من طفولته: في صف إحدى السنوات الدراسية الابتدائية، ثمة أستاذ معروف بضعف شخصيته وسماجته، معظم التلاميذ يصغون إليه بانتباه، غير آبهين بسماته تلك، فهم هنا ليتعلموا وينجحوا ويصبحوا مواطنين صالحين فيما بعد. ولكن بينهم صبياً أرعن لا يمكنه أن يأخذ الأمور على عواهنها. لهذا، في كل مرة يدير فيها الأستاذ رأسه عنه، يقوم بتقليد سمات وجهه آملاً في أن يضحك رفاقه. وفي كل مرة يلفظ الأستاذ جملة ممطوطة، يواصل ذلك الصبي آخر الجملة بشكل ساخر. وهذه اللعبة تثبت، دائماً، جدواها، إذ لا بد أن يضحك عدد من التلاميذ. أما إذا تنبه الأستاذ للفاعل وكان عقاب، فإن كل شيء يسقط على الأرض. المهم في هذا كله أن الصبي الساخر لا يعرف هنا أنه يمارس دور المهرِّج. في أكثر سماته بدائية، وصدقاً أيضاً.

ذلك أن هذا هو الدور الحقيقي للمهرِّج: أن يقلب الجد مزاحاً، أن يثير الضحك، أن يكشف عما هو قابل للسخرية لدى من هو قابل للسخرية. متحملاً، حتى العقاب في نهاية الأمر، مكتفياً بأن تكون جائزته حال المرح التي ينشرها بين رفاقه، ولو على حساب الأستاذ المسكين.

صورة أولية

نحن هنا أمام الصورة الأولية للمهرِّج... وفيها كل العناصر التي ترد في عبارة ستاروبنسكي: تفكك المنظومة الاجتماعية عن طريق "انهيار" سلطة الأستاذ بسبب سماجته وضعف شخصيته، محاكاة التلميذ للحظات السماجة، منزلاً دور المهرِّج إلى الشارع .. أو "الساحة العامة"، وجعله كل واحد منا.

المهرِّج هو الغائب الحاضر، تمر بنا سنوات ولا نتذكره، ربما لأننا نعيشه في كل لحظة، من دون أن ندرك ذلك، ولكن في لحظة ما، يقفز إلى الواجهة: إنه هناك، عند الطرف الآخر للمرآة .. ولكنه أيضاً في حلبة السيرك، بفمه الملوّن وأنفه الكروي الأحمر، وأذنيه الكبيرتين وعينيه المرسومتين بظلال سوداء.

فرح وحزن، نباهة وبلاهة..

كوربيس

هو هناك بثيابه الغريبة يطلع في السيرك بين فصل وفصل ليخفف من حدة التوتر الذي تثيره الألعاب الخطرة، ليغنّي صامتاً، ليقوم بحركات خرقاء ليزعم بطولة ليست له. إنه هناك واسمه يدل عليه. ولكن أو ليس ثمة شيء آخر خلف هذا كله، أو ليس هو ذاك الذي إذ يقوم بحركاته الخرقاء محاولاً إضحاك الجمهور، يكون دوره الحقيقي تسخيف البطولة والكشف عن غباء الغرائز؟.

لكنه هناك أيضاً في أغنية لأديت بياف تحكي كيف تضطهده زوجته باحتقار، ويسرق ابنه ما في جيبه من قروش قليلة. هناك، يحاول عبثاً أن يحطم مرآته الخاصة معتبراً أن مدّ نفسه مرآة للناس، سيزيد شقاءه. ولكن أنّى له هذا، إن القناع الذي يرسمه على وجهه ألوان ساخرة فاقعة، هو في حقيقته الحاجز الخفي الفاصل بين السعادة المزيفة والكآبة الحقيقية. ذلك إن المهرِّج بعد كل شيء، هو الكائن الأكثر كآبة... أو هذا على الأقل ما تقوله أغنية أديت بياف، كما تقوله لوحات لبيكاسو وتولوز لو تريك، من بين أعمال فنية أخرى وجدت في شخصية المهرِّج ما يسحرها.. هذا إذا نحّينا جانباً الآن، كل تلك السينما الهزلية الهوليودية التي استقت مناخاتها، عموماً، من شخصية المهرِّج من تشارلي شابلن، إلى الأخوة ماركس، ومن باستر كيتون إلى دبليو. سي فيلدز.

والحال أن هذه الأعمال الفنية كلها كانت تسعى إلى إخراج المهرِّج من سجنه الأبدي: السيرك. ذلك أنه لقرون طويلة ظلت شخصية المهرِّج بالمعنى الدقيق للكلمة، مرتبطة بالسيرك. ومع هذا لم يكن هذا صحيح، لأن وجود المهرِّج قديم، قدم وجود فن الأداء نفسه في تاريخ البشرية.

سيرته الذاتية

تفيدنا المراجع العامة عادة بأن المهرِّج حتى بالمعنى الأكثر حداثة ودقة للكلمة، كان موجوداً منذ أيام المسرح الإغريقي، حيث كان برأسه الأصلع وماكياجه الفاقع الغريب، يؤدي وصلات وأدواراً ثانوية في المسرحيات الهزلية وغالباً بشكل إيمائي تتخلله أحداث غير مفهومة. ولكن ثمة مراجع أخرى تؤكد لنا وجود الشخصية نفسها في نوع من الأعمال المسرحية كان يؤدى في قصور الفراعنة، ولا سيما أيام الفرعون داخيري- آسي من الأسرة الخامسة حوالي القرن الخامس والعشرين ق.م. والمراجع نفسها تتحدث عن مهرِّجين مشابهين وجدوا في "مسارح" الصين منذ القرن الثامن عشر ق.م. على الأقل، وفي أمريكا ما قبل كولومبوس. فما الذي أوصلهم إلى أمريكا الأزتيكية يا ترى؟ إن مشروعية هذا السؤال تأتي من وجود كتابات تاريخية تروي أن كورتيس، الغازي الإسباني، حين وصل مملكة الأزتيك في القرن الخامس عشر الميلادي اكتشف في قصر مونتزوما مهرِّجين ومشعوذين يشبهون تماماً، حتى



في ثيابهم، أولئك الذين كانت أوروبا قد بدأت تعرفهم آنذاك إذ خرجت من قرونها الوسطى..

هل لكل هؤلاء أصول واحدة أم أن في الأمر صدفة؟ المهم هنا أن الأقزام الأزتيكيين والمهرِّجين والممثلين المقلدين الساخرين. كانوا من بين "الكنوز" التي عاد بها كورتيس إلى أوروبا ليقدم بعضهم هدية إلى البابا كليمان السابع، ويخبره في طريقه بأن كل قبيلة أزتيكية لديها مهرِّجوها ومشعوذوها والساخرون، مؤكداً أن هؤلاء كانوا يلعبون دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والدينية للقبيلة، وأن بعضهم كان يُعتقد أن في كلامه وتصرفاته شفاءً من بعض الأمراض.

● مزيج مدهش

وهنا حدث ذلك المزيج المدهش بين دور المهرِّج الآتي من العالم الجديد، ودور نوع من الممثلين - المهرِّجين الذين كان لهم وجود ما في أوروبا.

لكن المدهش أن هؤلاء الأوروبيين، كان في وسعهم، منذ تلك الأوقات المبكرة، أن يستخدموا سلاطة ألسنتهم سلاحاً لهم، وربما دواء اجتماعياً أيضاً، حيث أن الواحد منهم كان في وسعه أن ينتقد، حتى أفعال أسياده. مرة أخرى نجدن أننا هنا أمام صورة المرآة التي يرى فيها المرء نفسه. ولكن أفلا نجدنا هنا أيضاً أمام "مهرِّجنا" الأكبر جحا، أو نصر الدين، الذي تتقاسمه الحضارة العربية مع الحضارة التركية؟ وإذ نتحدث هنا عن جحا أفلا ترانا نصل إلى أبطال المقامات مثل أبى زيد السروجي؟.

إن المهرِّج كما عرفناه خلال القرون العديدة إنما ولد من ذلك كله، بحيث يصعب في الحقيقة على أية حضارة بمفردها أن تزعم أن المهرِّج ولد من رحمها الخاص، فهل يمكننا أن نستطرد هنا لنقول إنه ربما يصح اعتبار المهرِّج بعالميته هذه، المظهر الأول من مظاهر "العولمة" في تاريخ البشرية؟

نصر الدين.. لا يزال يهرِّج!

جحا أو نصر الدين خوجا، هو الأشهر بين "المهرِّجين" المنتمين إلى التراث الشرقي المشترك، ولا سيما بين العرب والاتراك... ومع هذا فإن الثقافة الأوروبية، ولا سيما في بعض مناطق شرق أوروبا المجاورة لتركيا، اعتبرت نصر الدين هذا جزءاً من تراثها التهريجي. ومن هنا تناقلت عنه شعوب عديدة، من القصص ما يجعله في نهاية الأمر مختلفاً إلى حد كبير عن جحا كما نعرفه في تراثنا العربي، أو حتى التركي. ومن هذه القصص، ما يدل - كما كانت الحال في الصين القديمة - على أن هذا المهرِّج كانت له مكانة في البلاط، وكان في إمكانه أن يقول مزاحاً ما لا يجرؤ أحد غيره على قوله. غير أن اللافت في شخصية جحا هو في تحولها إلى صورة مجردة "للمهرِّج" بعيداً عن كل الدلالات التاريخية المحددة. فبمرور الزمن، كان العامة ينسبون إلى جحا كل طرفة تقوم على امتزاج الذكاء بالبلاهة، حتى صار مجموعها يشكِّل كتباً كاملة تعتبر من أكثر كتب الأدب الضاحك رواجاً على الصعيد الشعبي في البلاد العربية.






نصر الدين (جحا).. بكل اللغات



السيرك.. أكثر الأماكن ارتباطاً بالمهرج

لندع هنا هذا السؤال معلقاً، ونعود إلى المهرِّج نفسه، بالمعنى الأكثر ضيقاً للكلمة، ونتتبع حركته منذ وجوده مثلاً، في المسرح الإليزابيتي في بريطانيا، حتى لوحات بيكاسو وأفلام القرن العشرين.

إن عدداً كبيراً من المؤرخين يرصدون بداية وجود "المهرِّج" في المسرح الأوروبي، مع المسرحيات الإليزابيتية في القرن السادس عشر كما أشرنا. ولكن وجوده هناك لا يمكنه إلا أن يكون تالياً لوجوده في المسرح الإيطالي الهزلي المسمى "كوميديا ديل آرتي"، وذلك في زمن تال تماماً لزمن مهرِّجي الأزتيك، ونصر الدين خوجه - جحا - وأبطال المقامات. و"الكوميديا ديل آرتي" كانت بدأت في إيطاليا أوائل القرن السادس عشر. لتنتشر فور ذلك في طول أوروبا وعرضها. وكانت في الأصل عبارة عن مسرح ارتجالي مبني على شخصيات راسخة وأسس سيناريو قوية. ولقد تميز نوع معين من أنواع هذه المسرحيات، بوجود ثلاثة أنواع من الخدم الذين يمكن اعتبارهم آباء لـ "مهرِّج السيرك" الذي نحن، في نهاية الأمر، في صدد الحديث عنه: تساني الأول، تساني الثاني وفانتيسكا. وتساني الأول كان عبارة عن خادم شاطر وداهية غالباً ما يتآمر ضد سادته، أما الثاني فكان خادماً غبياً، غالباً ما يكون ضحية لمخططات تساني الأول وأداته الحمقاء لتنفيذ مؤامراته. أما فانتيسكا فهي خادمة أنثى فيها مزيج من الأولين، ولها في نهاية الأمر دور رومانسي إضافة إلى مشاركتها في اللعبة المسرحية.

● تنويعات أوروبية

والحال أن المهرِّج الذي وصل إلى المسرح الإليزابيتي في بريطانيا، كان مزيجاً من هؤلاء الثلاثة معاً: له مكر الأول وقناع الثاني، وربما سمات الأنوثة والدهاء لدى الثالثة. ولسوف تكون أسماء مثل آرلكان وبريغالا، تنويعاً على أولئك حتى وصول جون ريتش الذي أوصل آرليكان إلى مستوى أدوار البطولة والشخصية الرئيسة.

وهكذا حين وصل شكسبير بمسرحه، وجد أمامه ألواناً من شخصيات يمكنه استخدامها ليجعل منها شيئاً شبيهاً بمرآة ممدودة أمام أبطاله، وأشبه بكورس يعلق ويفضح، بكلمات تبدو - كما الحال عند جحا وأبي زيد السروجي - غبية في ظاهرها، ولكن شديدة الدلالة والذكاء في باطنها. وكانت تلك الولادة الحقيقية للمهرِّج الذي نعرفه اليوم، سواء تكلم أو صمت، سواء أكان في السيرك أو على خشبة مسرح يقدم عملاً عينياً لبيكين، أو على صورة شارلو في "الأزمنة الحديثة". ولسوف يقول لنا التاريخ إن ويليام كمب وريتشارد آرمن، معاصري شكسبير، كانا أول المهرِّجين المعاصرين في تاريخ المسرح.

● ظهوره في السيرك

كان المسرح في ذلك الحين شيئاً آخر غير السيرك. وإذا كان المهرِّج كما نعرفه اليوم هو نزيل السيرك، كان علينا أن ننتظر القرن الثامن عشر لنشهد ولادة أول سيرك في التاريخ. وكان ذلك في بريطانيا أيضاً، حيث أسس فيليب آستلي ما اعتبر أول سيرك في العام 1768م. وفي طريقه خلف آستلي، كذلك، أول مهرِّج سيرك في التاريخ، وكان ذلك في عرض قصير عنوانه "الخياط يركب الحصان إلى برنتفورد"، وكان اسم الخياط بيلي بانونز، والعرض كان يقوم على أساس حكاية

شعبية معروفة عن خياط يعجز عن امتطاء حصان، ومع ذلك يريد امتطاءه لكي يذهب إلى برنتفورد حيث عليه أن يدلي بصوته في انتخابات. لكن ذلك العرض الذي سيظل مرافقاً حياة السيرك طوال مائة عام، لم يكن في الحقيقة عرض مهرِّج بالمعنى الحديث للكلمة، بل كان مجرد عرض تهريجي غايته إضحاك المتفرجين على مغامرة الخياط السخيفة تلك.

كان على ولادة المهرِّج أن تنتظر مجيء جوزف غريمالدي (1778 - 1837م)، الفنان ذو الأصل الإيطالي الذي سيدخل التاريخ بوصفه أول مهرِّج مسرح حقيقي، وليرفع من مستوى هذا الفن، مُحِلاً ما سوف يسمى بـ "المهرِّج الأبيض" محل شخصية أرليكان. وبهذا كان غريمالدي، عن حق، المهرِّج Clown الأول الذي استحق هذا الاسم، علماً بأن كلمة Clown التي تترجم عربياً إلى مهرِّج هي من أصل إنجليزي هو Clod وتعني، ريفي وأحمق وماكر وأفاق، في وقت واحد تقريباً. وقد جمع غريمالدي في شخصيته وأدائه كل هذا معاً. لكن المهم أنه جمع كذلك في سمات تبرجه، كل العناصر التي شكلت، حقاً، شخصية المهرِّج كما وصلت إلى السيرك بشكلها النهائي: الوجه المصبوغ باللون الأبيض، الأنف الكبير الأحمر، العينان المحاطتان بكحل عريض - بشكل ما يسمى بتوقيع المهرِّج - والأذنان الطويلتان، إضافة إلى صلع الشعر المتناثرة بقاياه الخلفية تحت قبعة سخيفة، والثياب الملونة الموروثة من الكوميديا ديل أرتي مباشرة. وهذا دون أن ننسى لغة الجسد التي أتقنها غريمالدي جيداً. فالمهرِّج عنده كان في الوقت نفسه مقلداً، وإيمائياً وراقصاً ومصارعاً، خفيفاً بحيث يقفز كما يريد، وثقيلاً بحيث يظل مشدوداً إلى أرض هو من حثالتها: عليه أن يجيد ركوب الحصان وتسلق الجبال، وأن يعزف على آلات موسيقية عديدة أهمها الكمان.

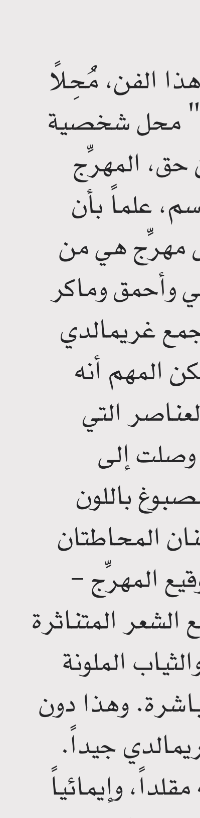


ماكياج الوجه.. العلامة المسجلة الخاصة بكل مهرج

ماذا.. هل كان المهرِّج حقاً في حاجة إلى كل هذا حتى يكون مهرِّجاً؟ حتى يكون شبيها بالحياة كلها.. كما سيؤكد لنا فلليني لاحقاً؟ فلليني نفسه الذي سيقول لنا في فلمه الشهير كيف أن الطفل الذي كانه، هو في مدينته الصغيرة ريميني، كان يخاف المهرِّج بدلاً من أن يندفع لمشاهدته: كان يراه في كوابيسه هاجماً عليه. لاحقاً فقط، حين كبر وصار السيرك جزءاً من حياته، اتخذ المهرِّج بالنسبة إليه سمة أخرى تماماً، ورأى المسكين المضطهد خلف صورة الداهية الماكر. رأى، ما صار هاجس كل فنان: دموع المهرِّج.

تراكم التجارب

وإذ نقول هنا دموع المهرِّج نجدنا نعود فوراً إلى السيرك، مكان المهرِّج الأثير... ولكن شرط أن نتوقف هنا لحظة لكي نشير، في استخلاص مما سبق إلى أن كل شعب كان له، ومنذ أزمان من الصعب رصدها، مهرِّجوه الخاصون به، وإلى أن







غالباً ما تكون كل حركة نكتة..

فريق المهرجين يصنع مشهداً مسرحياً.. تهريجياً

أسماء هؤلاء المهرِّجين قد تنوعت بشكل مدهش، فإذا كنا أشرنا إلى مهرِّجي الكوميديا ديل آرتي، وإلى جحا والسروجي عندنا، فإن علينا أن نذكر أن التاريخ حفظ لنا أسماء آوغوست وبادان (من فرنسا العصور الوسطى) وبوبو (من إسبانيا) وتشارلي (من أوروبا عموماً، وهو سلف شارلو على الأرجح)، وشو (من الصين)، ولكون (من فرنسا القرن الثامن عشر)، وكورنتراري (من قبائل أمريكا الأهلية) وفول وغليمان (من إنجلترا القرون الوسطى) وغراسيوزو (من إسبانيا القرن السادس عشر) وهانزورست (من ألمانيا والنمسا) وكارتالا (من بالي في إندونيسيا) والمنيستريل (من أوروبا العصور الوسطى) ونار (من ألمانيا القرن السادس عشر) وصولاً إلى نبهاتكن (من بورما) وريجي (من روسيا)، وسيمار (من جاوا) وفيدوساكا (من الهند) ووايانغ أورانغ (من أندونيسيا)... والحقيقة أن دراسة معمقة لكل واحدة من هذه الشخصيات ستكشف لنا المدهش من السمات المشتركة في ما بينها.

فهل نقول أن المهرِّج الذي وصل أخيراً إلى حلبة السيرك، ومنها إلى لوحات الفنانين وأفلام المخرجين كان وليد ذلك كله؟ على الأرجح أجل... حتى من دون أن نزعم أن غريمالدي كان هو من توصل إلى تلك التوليفة. بالأحرى كان غريمالدي خلاصة تراكمات سبقته، أضاف هو إليها الفكاهات البذيئة واللئيمة والإكسسوارات المتنوعة والثياب الغريبة. وكان هدفه أن يعطي للمهرِّج سمات "تفردنه" - أي تجعل له ما وراء الماكياج والثياب والحركات - شخصية بارزة فردية تدل عليه وتجعل له مكانته، في الوقت نفسه الذي تجعل منه أيضاً تلك المرآة الاجتماعية التي سوف يتطلع إليها الجميع.

وما فعله غريمالدي سوف يفعله من بعده كل ذلك الرهط من المهرِّجين الذين تلوه وصار من الصعب تعدادهم، ولا سيما بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر، طالما أن السيرك سرعان ما صار ظاهرة عالمية وحركة تنقله لا تهدأ. ومن أشهر الذين تلوا غريمالدي، الفرنسي الأصل فيليب لوران، الذي كان مهرِّجاً ومشعوذاً وبهلواناً في الوقت نفسه. أما الفرنسي الآخر جان - باتيست أوريول (1806 - 1881م) فهو الذي جعل لفن التهريج حداثته التي لا تزال قائمة حتى اليوم. كما جعل للمهرِّج مكانة أولى في السيرك لم تكن له أصلاً. وأوريول، استوحى الثياب الفضفاضة الإنجليزية، والبيريه الأسكتلندية المزينة بالريش. ولقد وصل أوريول إلى أن يكون مهرِّجاً حقيقياً وعصرياً بعد ما مارس كل ألعاب السيرك، بما فيها تلك الأكثر خطورة، فكان يقفز على الحبال ويقوم بألعاب الحواة ويشعوذ ويخب خبباً على الأحصنة. وهو إذ اعتاد أن يظهر على جمهور السيرك بين العروض، فإنه سرعان ما صار يعتبر هو العرض الرئيسي وينتظره الجمهور... وبهذا جسد أوريول نوعاً جديداً من المهرِّجين ... ومع هذا، مهما كانت حصة الحركة المؤداة في عروضه، فإن الهزل ظلت له المكانة الأولى لديه.. والهزل بالنسبة إليه كان حركة وإيماءه قبل أن يكون أي شيء آخر...

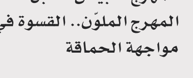
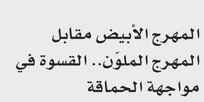
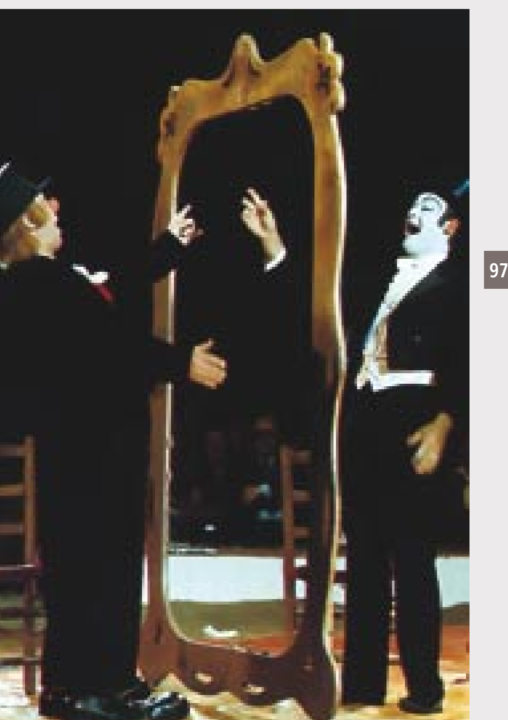


ملصق لمسرح "فولي برجير" في باريس من أوائل القرن الماضي

أما الأداء الصوتي فكان عبارة عن حروف مجتزأة يطلقها فتعني ما تعنيه، ويفهمها الجمهور.

لعبة بصرية

بالنسبة إلى أوريول، كان السيرك لعبة بصرية في المقام الأول. والحقيقة أن هذا البعد أسهم، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، في نهضة السيرك الأوروبي البصري، على حساب السيرك الإنجليزي الذي كان قد بدأ يشهد انحداراً كبيراً ... وكان هذا من حسن حظ السيرك في القارة. إذ أن ذلك الانحدار دفع العديد من كبار المهرِّجين الإنجليز إلى التوجه إلى القارة بحثاً عن عمل، فأضافوا خبرتهم التعبيرية الرائعة إلى الإنجازات التهريجية في أوروبا. لقد جاءوا بسماتهم الشكسبيرية ولكن من دون اللجوء إلى استخدام الكلام. الحاجة هنا كانت، من جديد، أمّ الاختراع. وهكذا راح التهريج الأوروبي يغنى أكثر وأكثر... ولقد زاد من روعة هذا أن الاستعراضات الإيمائية في كل مكان من أوروبا، كانت قد بدأت بالاختفاء خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ما سمح لكل سيرك في أوروبا أن يتعاقد مع الممثلين الإيمائيين، محولاً إياهم إلى مهرِّجين حقيقيين. وهكذا وصل فن التهريج إلى ذروته التعبيرية، وصار كل مهرِّج حكاية في ذاته ... صار له نصيب حتى من الدراما، وساعد على ذلك، أدب راح يكتشف خلف كل ماكياج شخصية درامية، ورسم راح يجد في شخصيات المهرِّجين مواضيع أثيرة له. صار المهرِّج من جديد، شيئاً آخر تماماً. فما هو؟

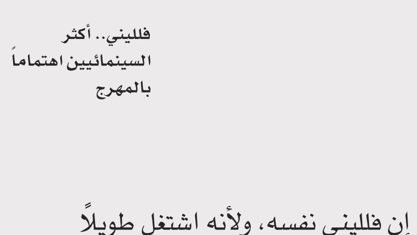




المهرج الأبيض مقابل المهرج الملوّن.. القسوة في مواجهة الحماقة

ما يخبئه الماكياج ويكشفه فلليني

نتذكر هنا المخرج الإيطالي فدريكو فلليني وما قاله تعليقاً على فلمه "المهرِّجون": "المهرِّج؟ إنه يجسد سمات المخلوق الغريب الذي يعبر عن الجانب اللاعقلاني لدى الإنسان، العنصر المكون للغريزة، هذا الحد الأدنى من الرفض والاحتجاج ضد النظام الأعلى القائم لدى كل منا". ويضيف: "عندما أقول مهرِّج فإنني أذكر بالمهرِّج الملون، لا بل السعيد. وذلك لأن ثمة صورتين للمهرِّج: المهرِّج الأبيض، والمهرِّج الملون. الأول هو الفخامة والرقة والانسجام والذكاء والوضوح (...) وعلى هذا النحو يصبح المهرِّج الأبيض أماً وأباً ومعلماً وفناناً وجمالاً مطلقاً، يصبح في اختصار "ما يتعين عمله" (...) أما المهرِّج الملون، الأبله السعيد، فهو شكل الطفل الذي يتغوط تحته ويثور ضد كمال المهرِّج الأبيض. إنه يفقد صوابه، يتدحرج على الأرض، ويُنشِّط بذلك احتجاجاً دائماً".

إنه بالنسبة إلى فلليني، الصراع الدائم بين عادة الفعل، وبين حرية الغريزة. ويستند فلليني هنا إلى الصيني لاوتسو الذي يستعير منه عبارة "منذ أن تقوم الفكرة، تولد معها إمكانية السخرية منها"، مضيفاً: "حين يخلق المهرِّج الأبيض فكرة ما، لا بد للمهرِّج الملون أن يبدأ السخرية منها". وهذا ما يجعل فلليني يستطرد قائلاً: "إن المهرِّجين الملونين، يمكن أن يكونوا هنا تعبيراً عن أدنى الطبقات الشعبية الرثة، صورة عن حيِّز يعج باللصوص والجائعين والمنبوذين، هؤلاء الذين يكونون عادة قادرين على التمرد ولكن ليس على الثورة. ويحتمل أن يكون الشعب قد عاملهم دائماً بنوعٍ من الألفة، لأنه وبسبب وضعه البائس أقام دائماً نوعاً من الحميمية مع كل ما هو شنيع".




فلليني.. أكثر السينمائيين اهتماماً بالمهرج

إن فلليني نفسه، ولأنه اشتغل طويلاً على التحضير لفلمه عن المهرِّجين، هو الذي سوف يخبرنا في نص لم ينشر إلا بعد موته في العام 1993م، بأن آل فراتيليني، أشهر نجوم السيرك في إيطاليا وفرنسا في القرن العشرين، هم أول من أدخل شخصية ثالثة تقع بين المهرِّج الأبيض والمهرِّج الملون، شخصية البهلول. إنه يشبه المهرِّج الملوّن في موقعه وسماته، لكنه لن يأنف تقديم العون إلى المعلم. فهو البائس الذي يتم ابتزازه فيصبح جاسوساً، مخبراً لدى البوليس، إنه – في اختصار – المتحلل الذي يعيش على حصان بين عالمين، في منتصف الطريق بين السلطة والشطارة. وفي هذا السياق يقول لنا فلليني أنه "في الحقيقة، وباستثناء فرانسوا فراتيليني، الذي لعب دور مهرِّج أبيض متقلب المزاج طافح بالرقة واللطف (...) فإن كل المهرِّجين البيض يبدون لنا قساة جداً. وليس على الخشبة في السيرك فقط، بل حتى في حياتهم الخاصة" ويروي المخرج الإيطالي كيف أن أنطوني، وهو أحد أشهر المهرِّجين في تاريخ السيرك الإيطالي، لم يتبادل خارج العروض أية كلمة مع بيبي الذي كان مهرِّجه الملوّن!!. وفي هذا السياق ها هو فلليني ينقل إلينا في نصه حواراً مختصراً يدور بين مهرِّج أبيض ومهرِّج ملوّن، يدلل فيه على أن المهرِّج الأبيض ينبغي دائماً أن يكون شيئاً، فهو بعد كل شيء، الذي يمضي وقته موجهاً الصفعات والعبارات اللئيمة.

المهرِّج الملوّن: أنا عطشان
المهرِّج الأبيض: هل معك نقود؟
المهرِّج الملوّن: لا ...
المهرِّج الأبيض: إذاً ... لا يمكنك أن تكون عطشاناً!"

مهرِّجون / مهرِّجات

وإذا كان فلليني يذكرنا هنا، بأن كل ما سبق يؤكد ما يذهب إليه بعض محاوريه من أن كل المهرِّجين الذين يتحدث عنهم هم من الذكور، فإنه يستطرد مذكرنا أيضاً بأن اثنتين من أشهر الشخصيات المهرِّجة في تاريخ السينما، هما امرأتان ظهرتا في فلمين له: جلسومينا (زوجته جوليتا ماسينا في "الطريق") وكابيريا في "الباقي كابيريا"، لكنه يستطرد قائلاً إنهما في الفلمين ليستا امرأتين حقيقيتين. لماذا؟

بكل بساطة لأن المهرِّج لا يجب أن يكون له جنس محدد. وحتى كبار مهرِّجي فن السينما في القرن العشرين من شارلو إلى لوريل وهاردي والإيطالي توت، من الصعب التوقف عند أي جنس ينتمون. وفي هذا السياق أيضاً قد يكون من المفيد أن نقرأ صفحات رائعة كتبها فلليني: "ليس للمهرِّج جنس ... غرورك هل كان له جنس محدد؟ وهل كان لشارلو، يا ترى، جنس؟ لقد قيِّض لي منذ فترة أن أشاهد فلم شابلن "السيرك" فرأيت من جديد أنه عمل رائع بصورة مطلقة ... لكنني أمام دهشتي وجدت أن شارلو لم يكن فيه، على الاطلاق، ذلك الرجل الساذج الصغير المثير للشفقة الذي اعتدنا الحديث عنه. بل كان أشبه بقط سعيد يعرف في كل لحظة كيف يرفع كتفيه بلا مبالاة ويمضي. وعَوْداً إلى جنس المهرِّجين أرى هنا أن لوريل وهاردي كانا مهرِّجين ملونين، أبلهين سعيدين، مليئين بالبراءة.. إن كل مواصفات جنسية تغيب عندهما تماماً. وربما كان هذا ما يثير الضحك فيهما. ثم ما أدهشني دائماً لدى باستر كيتون كان نظرته المترفعة إلى الأشياء والناس والحياة. وهي لا تشبه أبداً نظرة شارلو العاطفية الرومانسية الطافحة بالازدراء وبالنقد الاجتماعي (...) إن كيتون شخص عصري جداً، إنه مهرِّج راهن. ونحن نعيش مثله حالات وأحداثاً تصيبنا بخبل يشلّ قدراتنا



ملصق فيلم "المهرِّجون"

ويحوّلنا إلى حجر، يجمدنا، ويعطل حركتنا، دون أي ردّ فعل منا، مثلما كانت حاله تماماً".

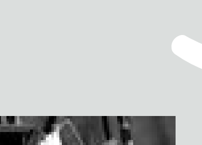
بين السعادة والبؤس: مهرج

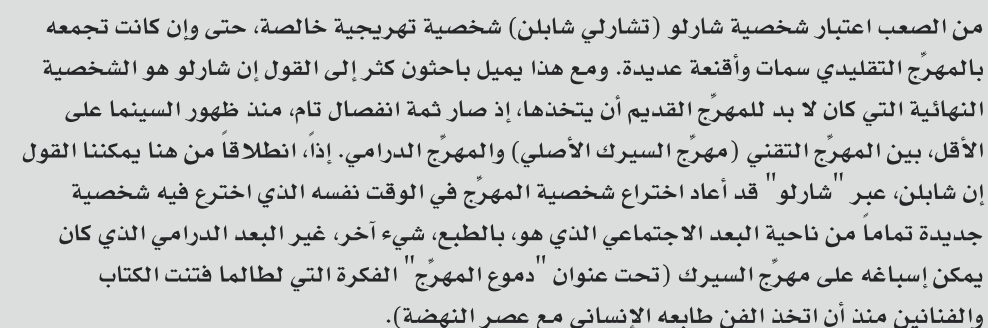
إن الحديث عن هذا النوع من المهرِّجين السينمائيين في معرض الكلام على مهرِّجي السيرك، ليس من قبيل التكلف، ذلك أن شارلو ورفاقه هم الورثة الشرعيون لكل المهرِّجين الذين عرفهم تاريخ هذا الفن. فإذا كان الكاتب الأرجنتيني الكبير بورغيس قد قال يوماً، نقلاً عن مالارميه، إن أحداث العالم الكبرى تبدو وكأنها وجدت فقط لكي تدخل في نهاية الأمر في الكتب، فإن في إمكاننا أن نستطرد هذه الفكرة قائلين إن السينما، في طول القرن العشرين وعرضه تبدو وكأنها تضم كل ما حواه التاريخ من حكايات وأحداث وشخصيات، وصولاً إلى السيرك وأبطاله ومهرِّجيه. وإذا كان الإيطالي فلليني قد حقق فلمه الرائع عن "المهرِّجين" - للتلفزة لكنه عرض سينمائياً دائماً -، فإن المهرِّجين لم ينتظروا هذا الفلم حتى يدخلوا الشاشة، بل هم دخلوها منذ بداياتها، على شكل ممثلين هزليين استعاروا، ولا سيما أيام السينما الصامتة، سمات المهرِّجين وحركاتهم، وحياتهم أيضاً .. لكنهم تجاوزوا هذا كثيراً، ليقدموا للمتفرجين المبهورين، صورة الجانب الآخر من المرآة: قدموا المهرِّج ليس فقط في ظاهر حياته الضاحك، بل في باطنها البائس. ومن هنا ربما كانت السينما قد قدمت أعظم مساهمة في إضفاء الطابع الدرامي على حياة المهرِّج ولعل في صورة باستركيتون وهو يمسح عن وجهه ماكياج المهرِّج ليكشف خلف ذلك سمات بؤس عميق، في فلم شارلي شابلن، خير مثال على هذا.

لقد جاءت السينما هنا لتؤكد ما كانت فنون كثيرة تقوله منذ زمن بعيد: درامية حياة أولئك الذين ملأوا حياة ملايين المتفرجين حبوراً وسعادة. فالمهرِّج وإن لذّه دائماً أن يكون مهرِّجاً، فإنه لم يختر أصلاً أن يكون مهرِّجاً لأنه سعيد، بل ربما اختار ذلك لأنه أصلاً بائس يريد أن يبحث عن قناع سعيد يغطي به بؤسه. وفي العديد من الحالات تنتهي حياة المهرِّج نهاية شديدة البؤس، نهاية عبّر عنها فلليني نفسه أيضاً في "الطريق" من خلال شخصية جلسومينا، التي يصطحبها البهلوان (أنطوني كوين) زامبانو معه، محولاً إياها إلى مهرِّجة، تثير السعادة والضحك لدى الناس، لكنها تموت وحيدة حزينة في نهاية الأمر من دون أن يفهم زامبانو أنها ماتت يأساً من عدم فهمه أنها تحبه.

هذا هو مصير المهرِّج ولا سيما المهرِّج الملون، ذلك "الأبله السعيد" الذي يميل الأطفال إلى الهيام به عادة. فهو هناك، دائماً في السيرك، بين الفصول يتلقى الإهانات وضربات العصا، وعلى وجهه تنهمر الصفعات والبيض الفاسد وقوالب الحلوى بالكريما. وهو يقبل كل ذلك راضياً، يقبل دوره ليُرَفِّه عن الناس ... ولكنه في لحظة من اللحظات (وهذا ضمن المشهد طبعاً، ولكن ربما يكون أيضاً جزءاً من الحياة نفسها)، يسأم كل ذلك، يسأم أن يرسله معلمه مبطوحاً وسط النشارة مهاناً، غامراً إياه في رغوة صابون مذلة، فيحاول أن ينهض محتجاً، لكن المهرِّج الأبيض يكون في انتظاره. والسيء في الأمر أن هذا "الأبيض" يكون قد فقد مع مرور الزمن حسّه الهزلي وتحول بالتدريج إلى شرير حقيقي... وهكذا، إذا كنا نلاحظ اليوم مع الباحث الفرنسي ثيوفيل ريمي (صاحب كتاب "المهرِّجون" باريس، 1945م) أن المهرِّج الأبيض قد هبط من عليائه، ولم تعد له مكانته الكبيرة السابقة، فإن المهرِّج الملوّن يبقى على الأقل رمزاً للسيرك ولشاعريته، بحيث أنه نحو هذا المهرِّج هذا الأبله السعيد، الضحية الدائمة للفرص الضائعة، تتوجه ضحكات وضروب تصفيق مئات الملايين من الناس.

هل كان شارلي شابلن مهرِّجاً؟





من الصعب اعتبار شخصية شارلو (تشارلي شابلن) شخصية تهريجية خالصة، حتى وإن كانت تجمعه بالمهرِّج التقليدي سمات وأقنعة عديدة. ومع هذا يميل باحثون كثر إلى القول إن شارلو هو الشخصية النهائية التي كان لا بد للمهرِّج القديم أن يتخذها، إذ صار ثمة انفصال تام، منذ ظهور السينما على الأقل، بين المهرِّج التقني (مهرِّج السيرك الأصلي) والمهرِّج الدرامي. إذاً، انطلاقاً من هنا يمكننا القول إن شابلن، عبر "شارلو" قد أعاد اختراع شخصية المهرِّج في الوقت نفسه الذي اخترع فيه شخصية جديدة تماماً من ناحية البعد الاجتماعي الذي هو، بالطبع، شيء آخر، غير البعد الدرامي الذي كان يمكن إسباغه على مهرِّج السيرك (تحت عنوان "دموع المهرِّج" الفكرة التي لطالما فتنت الكتاب والفنانين منذ أن اتخذ الفن طابعه الإنساني مع عصر النهضة).

إذاً، نعرف أن شابلن سخّر شخصية المهرِّج إذا أعاد صياغتها في تحديث لافت، للغوص في القضايا الاجتماعية، وحسبنا للتيقن من هذا أن نشاهد، ونشاهد من جديد، معظم أفلامه الصامتة .. وخاصة فلم "السيرك" الذي ظهرت فيه شخصية المهرِّج التقليدي، ولكن كعنصر جانبي في الفلم. وشابلن لم يكن وحده في السينما الغربية، إذ نعرف أنه كان حلقة في سلسلة طويلة من الفنانين الهزليين - تضم إليه: باستر كيتون والإخوة ماركس، والمساطيل الثلاثة، وآبوت وكاستيلو، وهارولد لويد ... ويمكن أن نصل باللائحة إلى وودي آلن نفسه. وفي الوقت نفسه، يمكننا أن نستطرد من هنا للقول إن السينما اهتمت، حتى خارج إطار شابلن ورفاقه، بالمهرِّج ولكن من خلال اهتمامها بالسيرك بشكل عام، من سيسيل بي. دي. ميل إلى انغمار برغمان (وله فلم "ليلة العيد الريفي" المليء بالمهرِّجين، وكذلك نجد المهرِّجين في أفلام عديدة أخرى له، ولكن أقرب إلى أن تكون شخصيات ثانوية). وبشكل عام، لأن السينما كانت ولا تزال فن التناقضات التراجيدية، صوّر المهرِّج في أغلب الأحيان ضمن إطار ازدواجيته، بين القناع المضحك، والعمق الدرامي المأساوي. ولا شك أن السينما تبعت في هذا تلك التقاليد القديمة التي أرادت أن ترى في المهرِّج ازدواجية البعد بامتياز.









لقطات من فيلم "السيرك"

حقائق سريعة

- **يعود أول ذكر للمهرِّج إلى حوالي العام 2500 ق.م. في الحديث عن حفلة تهريج أقيمت في البلاط الفرعوني في مصر.**
- **الصين تعرف المهرِّج بدءاً من العام 1818 ق.م.**
- **حوالي سنة 300 ق.م.، المهرِّج الصيني يوتزي يقنع الإمبراطور بالاستغناء عن طلاء سور الصين، وينقذ حياة آلاف العمال.**
- **القرن الرابع عشر الميلادي، ظهور نصر الدين خوجة أو جحا في بلاد المشرق العربي.**
- **في القرن السابع عشر بدأ التهريج بالظهور من خلال المسرحيات المختلفة في بريطانيا، ووضع روبرت آرمن أول كتاب يصدر في العالم حول المهرِّجين والتهريج.**
- **يعتبر جوزف غريمالدي (1779 - 1837م) الإيطالي الأصل والذي عمل أساساً في بريطانيا المؤسس الأول لشخصية المهرِّج الحديث.**
- **أصبح للتهريج معاهده الخاصة في القرن العشرين، وفي روسيا مثلاً على طالب هذا الفن أن يدرس في "معهد موسكو للسيرك" طيلة سبع سنوات قبل بدء العمل.**
- **يعتبر تبرج وجه كل مهرِّج علامته المسجلة الخاصة به، ولا يجوز لأي كان تقليدها، على عكس الملابس والتصرفات.**
- **يتراوح عدد المهرِّجين في العالم اليوم ما بين 50,000 و 80,000 مهرِّج.**

عربياً.. المهرّج حاضر غائب

عندما نأخذ أفلاماً مثل "المهرّج الكبير" الذي أخرجه يوسف شاهين عام 1952م، ومسرحية محمد الماغوط "المهرّج"، وفلم "الأراجوز" الذي قام ببطولته عمر الشريف وميرفت أمين... وأيضاً حضور شخصيات صامتة عابرة في بعض اللقطات من الأفلام العربية (كما في "سمع هس" أو "البحث عن سيد مرزوق") نكتشف أن حضور "المهرّج" بالمعنى الغربي للكلمة ظلّ محدوداً في السينما العربية. ومع هذا ثمة حديث دائماً عن "تهريج" و"مهرّجين" في هذه السينما. والأمر ينبع من خلط تبسيطي بين مفهوم المهرّج Clown، ومفهوم الإضحاك. ومن هنا يطلق في أيامنا هذه اسم "المهرّجين الجدد" على عدد من نجوم الإضحاك على الشاشة، لمجرد أن أشكالهم ليست مستقيمة تماماً، وأن غايتهم من فنهم هي الإضحاك.

ومع هذا، انطلاقاً من هذا الواقع بالذات قد يصحّ أن نتحدث عن "مهرّجين" على الطريقة العربية، استُقيت شخصياتهم ومكوناتها من مزيج من التراث العربي والشرقي القديم (المقامات، جحا، بعض أجواء ألف ليلة وليلة ...) ومن تراث المسرح الهزلي كما تُرجم في القرن التاسع عشر الميلادي، مدغوماً بتراث مسرحي عريق هو مسرح الكاراكوز وعيواظ المشترك بين العرب والأتراك. ولعل هذا الأخير هو الذي يبدو الأقرب إلى مفهوم المهرّج بالمعنى الغربي، حتى وإن كان هناك فارق كبير يكمن في أن أداء الغربي يعتمد خاصة على الإيماء واللعبة التراجيكوميدية، بينما يعتمد الشرقي على الكلام والمواقف الهزلية المضحكة التي ندر أن حملت بعداً درامياً.

ومن أشهر التجارب العربية في هذا المجال نذكر مسرح حسن علاء الدين "شوشو" الذي لمع في بيروت خلال الستينات والسبعينيات من القرن الماضي. وحملت شخصيته كل سمات المهرّج وأدائه من دون الماكياج التقليدي والملابس الملونة (استعاض عنها بشاربين ضخمين كانا علامته المميزة الكبرى). كما نذكر أيضاً العمل المسرحي المتلفز "أخوت شاناي" الذي قام به الممثل نبيه أبو الحسن، ويروي فصولاً من حياة المهرّج الذي عاش في بلاط الأمير بشير الشهابي.



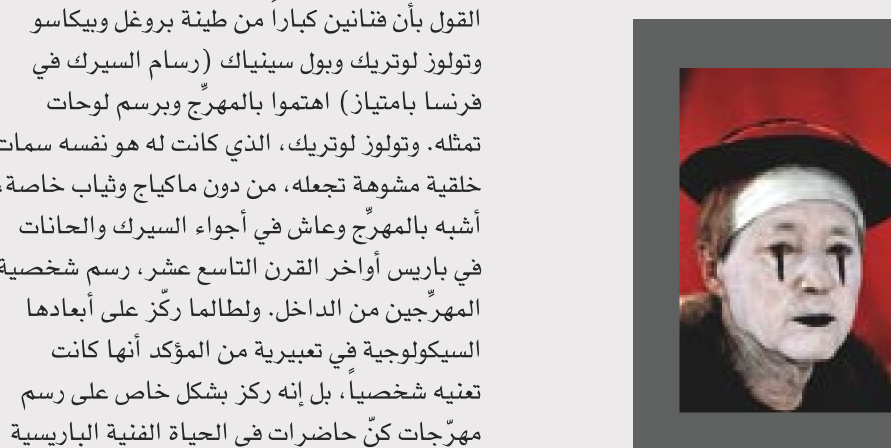

الفنان الراحل حسن علاء الدين "شوشو"

جريدة السفير اللبنانية

مهما يكن، فإن مزيج هذا التراث كله، أنتج، مسرحياً وسينمائياً في القرن العشرين، هزليين عرباً كباراً، تفاوت مدى اقترابهم أو ابتعادهم عن مفهوم المهرّج لكنهم لعبوا الدور الاجتماعي نفسه في حالات كثيرة، إذ من أمين الريحاني إلى عادل إمام، ومن كشكش بيك إلى إسماعيل ياسين وشكوكو وفؤاد المهندس وشرفنطح وغيرهم، تكوّن في الفنون العربية تراث إضحاك طويل عريض لا يستهان به. ومن المؤكد أن ما نسميه اليوم بـ "المهرّجين الجدد" (محمد هنيدي، الراحل علاء ولي الدين، أشرف عبد الباقي ... إلخ) إنما هم أبناء هذا التراث كله، مهما كان رأينا فيهم وفي أساليبهم الإضحاكية. وإذ نقول هذا لن تفوتنا الإشارة إلى أن المهرّج حتى في صيغته الغربية الأصيلة، ظهر على شكل قناع لغايات تنكرية، لا تتوخى الإضحاك نفسه، عبر شخصيات جديدة، مثل نور الشريف في بعض أدواره، حين كان الأمر يقتضي تنكراً ما، فكان الاختيار متوجها نحو التنكّر على صورة المهرّج... بما في ذلك أداؤه الإيمائي الصامت.

يوتزي

مهرّج الصين.. بطل قومي!



امتلأ تاريخ الصين، ومنذ أقدم العصور بالمهرّجين ... ومعظم هؤلاء كان يشكل جزءاً من البلاط الإمبراطوري، وكان يحظى بشعبية كبيرة.. غير أن ثمة مهرّجاً هو يوتزي، يعتبر عادة بطلاً قومياً في الصين.

فالتقاليد الصينية العريقة كانت تجعل من مهرّج الإمبراطور الشخص الوحيد القادر على أن يقول كل ما يخطر في باله، بما في ذلك أن يوجه أية انتقادات يشاء. شرط ألا يتجاوز الحدود، وأن تكون انتقاداته، مرتبطة بالمجال العام.

وتبعاً لتلك التقاليد، حين اتخذ الامبراطور شيه – هوانغ – تي قراره ببناء ما صار يسمى لاحقاً بـ "سور الصين العظيم"، استلزم الأمر استخدام آلاف العمال والبنائين في عمليات البناء ثم في عملية لطلاء السور أزمع القيام بها، دون أن يهتم بأن الأحوال الجوية وصعوبات العمل راحت تقتل آلاف العمال البائسين. وإذ راح الصينيون يراقبون بصمت وخوف ما يحدث، دون أن يجرؤ أي منهم على الاعتراض، انبرى المهرّج يوتزي، عبر مزاحه وتهريجه، لكي ينتقد الإمبراطور في حضرته، على ما يحصل، الأمر الذي أدى في النهاية إلى أن يتخلى الإمبراطور عن بقية مشروعه، موفراً حياة وجهود الآلاف. وإذ عرف الشعب أن يوتزي هو من أقنع الإمبراطور بذلك، جعل من المهرّج بطله القومي ولا تزال ذكراه حاضرة كمهرّج وبطل منقذ حتى اليوم.

الرسم والتهريج

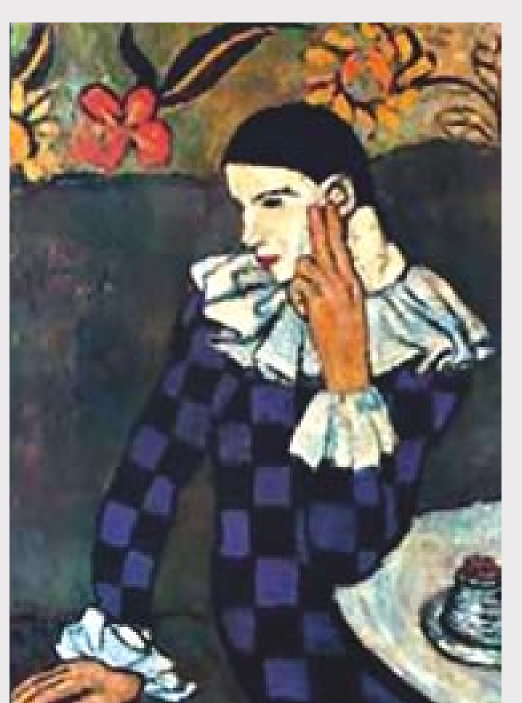
منذ زمن الفراعنة وربما من قبل ذلك كان ثمة، على الدوام حضور للمهرّجين في المحفورات والآثار والفنون الجدارية بشكل عام. ولاحقاً منذ عصر النهضة وفنونه، ومع ازدياد الحضور الإنساني في لوحات وأعمال الفنانين بشكل عام، استقل المهرّج بشخصيته في الأعمال الفنية: لم يعد جزءاً مكملا للعمل الفني أو ذا حضور اكسسواري، بل صار يشكل أحياناً موضوع العمل. والحال أن ما دفع الفنانين إلى ذلك هو، بالتحديد الطابع المزدوج لشخصية المهرّج كونه يشكل ظاهراً "كوميديا" وباطناً "دراميا" مفترضاً على الأقل.

وهكذا خلال بحث الفنان النهضوي عن عنصر تمثل جدليته موضوعاً جيداً للوحة، كان من الطبيعي أن يقع الاختيار على المهرّج كشخصية تؤدي هذا الدور. ومن هنا، إن كان من المستحيل إحصاء اللوحات التي شكل المهرّجون، موضوعها الرئيسي أو أحد مواضيعها الأساسية على أية حال، من الإمكان القول بأن فنانين كباراً من طينة بروغل وبيكاسو وتولوز لوتريك وبول سينياك (رسام السيرك في فرنسا بامتياز) اهتموا بالمهرّج وبرسم لوحات تمثله. وتولوز لوتريك، الذي كانت له هو نفسه سمات خلقية مشوهة تجعله، من دون ماكياج وثياب خاصة، أشبه بالمهرّج وعاش في أجواء السيرك والحانات في باريس أواخر القرن التاسع عشر، رسم شخصية المهرّجين من الداخل. ولطالما ركّز على أبعادها السيكولوجية في تعبيرية من المؤكد أنها كانت تعنيه شخصياً، بل إنه ركز بشكل خاص على رسم مهرّجات كنّ حاضرات في الحياة الفنية الباريسية في زمنه. لكن اللافت للنظر أن تولوز لوتريك ندر أن صور مهرّجاً أو مهرّجة في حال ابتسام أو مرح.. وعلى عكسه كان بيكاسو الذي إذ رسم المهرّجين مرات عديدة، بدا واضحاً أن همه هو رسم السمات الخارجية، غير السيكولوجية، لحياة المهرّج... ومن هنا كثيراً ما حدث له أن استخدم ثياب المهرّجين وزينتهم كإطار شكلي لبورتريهات أشخاص آخرين لا علاقة لهم، أساساً، بالتهريج: رسم أولاده في ثياب مهرّجين، مثلاً.

أما في ألمانيا، وإبان انتشار التعبيرية التي كانت في الأساس صرخة اجتماعية عنيفة، حضر المهرّجون ولكن على أشكال لا توحي تماماً بالتهريج، بل تعبر عن المأساة التي كانت تعتصر المجتمع الألماني في ذلك الحين. وهكذا، إذا تأملنا شخصيات رسامين، من كبار الرسامين الألمان في ذلك الحين، مثل جورج غروش وأوتود يكس، سنجد حضور المهرّجين واضحاً، بثياب وسمات مهرّجين أو من دونها، ولكن دائماً ضمن إطار تصوير موقف ناقد وساخر من المجتمع وسادته سواء أكانوا رجال أعمال أو جنرالات جيش. وعلى هذا يكون هؤلاء الرسامون الألمان، وعلى غرار ما كان فعل دوميه في فرنسا قبلهم بأكثر من نصف قرن، وظفوا السخرية التهريجية لغايات سياسية واجتماعية، محققين هنا ذلك الارتباط الذي سوف يطالعنا كثيراً، طوال القرن العشرين، بين البعد التهريجي، وفن الكاريكاتور وفن الرسم.

المهرج طائراً في لوحة للروسي شاغال، ويعير ملابسه لعائلة الأسباني بيكاسو



.. فارج السيرك

بسبب شعبيته الكبيرة، حضر المهرِّج في العديد من الأمكنة والمجالات بعيداً عن السيرك والمسرح، وصولاً إلى تخصيص دوائر البريد في بلدان عدة، طوابع تمجده وتمجد حضوره الطري في تاريخ البشرية. وفي الولايات المتحدة تشغل الفقرات التي تتضمن ركوب المهرِّجين للأحصنة (في شتى أنواع "الروديو") وسط مخاطر يعرفون كيف يضبطونها، فقرات جذابة ودائمة المتعة.

والحال أن هذا الحضور للمهرِّجين في "طوابع البريد" و "الروديو" وما إلى ذلك، إنما يأتي منسجماً مع أوضاع ومناسبات تاريخية كانت دائماً ما تعطي للمهرِّجين مكاناً في الكرنافالات والاحتفالات.. إذ ندر أن خلا مهرِّجان شعبي في أي من بلدان أوروبا الشمالية أو الجنوبية، من مهرِّجين يشاركون في الاحتفالات والمسيرات، وينطبق هذا بشكل خاص على كرنافالات شهيرة مثل كرنفال البندقية، الذي منذ العصور الوسطى، يحفل بالمهرِّجين، تحت أي اسم ظهروا. وسواء أتت أبعادهم من الكوميديا ديل آرتي أو من أجواء السيرك. وخلال تلك المهرِّجانات والكرنافالات من المعروف أن الأطفال يحبون دائماً أن يلحقوا المهرِّجين ويتبادلوا النكات معهم، ما خلق تلك الألفة الدائمة بين المهرِّج والطفل.

المحترف السعودي

دمى وطوابع بريد تكريماً للمهرج

المعرض الدائم لمشاهير المهرجين

كتب عن المهرِّج



الحمقى أينما كان

صدر هذا الكتاب في العام 2001م، ومؤلفته هي بياتريس ك. أوتو التي تأخذنا في رحلة حول العالم بحثاً عن المهرِّجين في كافة الثقافات والحضارات، غير أن كتابها هذا يتوقف عند مهرِّجي البلاطات القديمة، ولا يتناول الأشكال الشائعة الأخرى من التهريج في السيرك أو المسرح أو السينما.

وربما كان حصر الموضوع في هذا الإطار المحدد هو ما سمح للمؤلفة أن تشبع موضوعها بحثاً وغوصاً في الحقائق التاريخية، وتسليط المزيد من الأضواء على مهرِّجين مجهولين، وسرد عشرات الطرائف والحكايات حولهم حيثما يوجدون أو حيثما وجدوا في الماضي في الصين وأوروبا وآسيا الوسطى وإيران والبلاد العربية وإفريقيا والهند والأمريكتين وروسيا واليابان.. "ما عدا القطب الشمالي حيث لم ألتق بمهرِّج هناك"، على حد قول المؤلفة.

لوحات المهرِّجين

هذا الكتاب هو من إعداد الممثلة والمخرجة السينمائية المعروفة ديان كيتون، التي جمعت خلال عدة سنوات مجموعة من 65 لوحة تمثل مهرِّجين، من إنتاج فنانين هواة.

وتقول كيتون التي "صدمها" هذا الجمع بين القباحة الشكلية والجمال الفني، أنها لطالما تساءلت عن السر الذي يدفع بالرسام إلى بذل مثل هذا الجهد والوقت الطويل في سبيل نقل صورة المهرِّج بكل زخارفها إلى اللوحة، وما الذي يريد أن يقوله من خلال لوحته؟

وتخلص كيتون في كتابها إلى القول: "إن المهرِّجين يُرسمون عادة كأشياء تزيينية، ولكنها تدعو إلى التأمل. فبدلاً من المهرِّج الحي الذي يشتت تفكيرنا بأدائه وحركاته، تسمح لنا صورته المرسومة بالتأمل فيها، والتأكد أن هذا المهرِّج لم يوجد لإضحاكنا فقط، بل أيضاً ليسمح لنا بالتطلع إلى أنفسنا عن قرب".